
أحلى
الأساطير
الإغريقية
خليل تادرس
كتابنا للنشر
خليل تادرس
أحلى الأساطير الإغريقية
كتابنا للنشر
أحلى
الأساطير
الإغريقية
إن الأساطير في ما تتضمّنه من خوارق من خَلْق الخيال، تقاربُ الشّعر بسحرها وجمالها. فكما الشعر يرفع الإنسان الى عوالم يتطلّعُ إليها ولا يستطيعُ إليها تحقيقاً. هكذا الأسطورة هي تصوير لهذا العالم الذي عجز الإنسان عن تفسيره فعزاه الى قوى خارقة سماها «الآلهة» فجعلها تتصرف بمعزل عن قوانين الطبيعة والتعامل البشري. إضافة الى ذلك إن الأسطورة عند شعب معين صورة صادقة تعكس عقلية هذا الشعب وتفكيره ومعتقداته. كما أنها مجمع للفضائل والقيَم الإنسانية العليا. ففيها الوفاء، والحبّ والإخلاص، وفيها الصداقة والعطاء، وفيها البذل والتضحية...
لذلك ندعوكم الى رحلة طويلة في الأساطير اليونانية، تتعرفون خلالها الى عوالمَ قد تتوقون إلى العيش فيها إزاء الواقع المزريّ الذي يعيشه الإنسان.
الناشر
ISBN 978-9953-505-04-6
كتابنا للنشر



ولادة الطفل «زيوس»

أحلى
الأساطير الإغريقية

إعداد

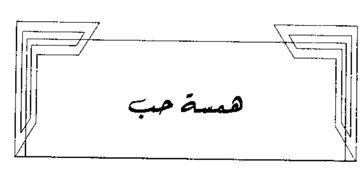
خليل ح. تادرس



كتابنا للنشر

ISBN 978-9953-505-04-6

لبنان: المنصورية (المتن)
ص.ب.: 269 ـ المنصورية (المتن)
هاتف/ فاكس: 00961 /4/ 532255 جوال: 00961 /3/ 629910
E.mail: kitabouna@yahoo.com



ما أجمل... وما أمتع... وما ألذ أن يعيش الانسان هائماً... محلّقًا في أجواء الخيال.. يرى.. يسمع أو يعيش في قصة شيقه بعيدة عن الحقيقة والواقع وقد تتجاوز الخيال في أحداثها ووقائعها.

وهذه القصة... أو الأقاصيص هي أساطير تحبس الانفاس

أساطير شيقة... مثيرة... ممتعة.

وما أمتع الأساطير..!

خاصة الأساطير الإغريقية

إنها مبعث للخيال الوفير والالهام النضير.

وهذه المجموعة التي بين يديك الآن من أساطير اليونان، هي باقة من الزهور والورود قطفتها لك من بستان الكون ومن فوق قمم جبال الالمبيوس حيث يتربع كبير الآلهة زيوس على عرشه الضخم المطعم بالزبرجد والياقوت والمرجان وسائر الأحجار الكريمة. إنها مجموعة من بستان الأدب العبق تنقلك إلى دنيا الحب والعشق والغرام، تنقلك إلى عالم الخيال والأحلام... وإلى اللقاء.

خليل ح. تادرس



نشأة الأسطورة الأغريقية

يرجع الفضل في نشأة أو ظهور الأساطير الاغريقية إلى الشاعر الضرير - هوميروس - الذي عاش في فترة اختلف المؤرخون في تحديدها فتأرجحت بين عامي 1200 وعام 850 قبل الميلاد. وكما اختلفوا في تحديد السنة التي عاش فيها هوميروس، كذلك اختلفوا بشأن تحديد موطنه، فيقول البعض إنه من بلاد آسيا الصغرى، ويقول البعض الآخر إنه من جزر بحر إيجه. وقد بلغ من تنافس مختلف المدن والجزر على الاستئثار بفخر إنجاب هوميروس أن سبعا منها تنازعت فيما بينها هذا الشرف.

وبالرغم أن اسم هوميروس بات من أشهر الأسماء في تاريخ الآداب العالمية قاطبة، فإن العالم لا يكاد يعرف عنه حتى اليوم سوى النزر اليسير. لا يعرف سوى أنه رجل شحاذ ضرير كبير السن كان يتجول من بلد إلى بلد منشدا أشعاره التي بلغت الآلاف من الأبيات الموزونة الجميلة.

وتعد ملاحم هوميروس هذه أقدم وأجمل وأغرب ما في الأدب الأغريقي الذي ظل خالدا منذ ثلاثة آلاف سنة حتى اليوم.



قالوا في الاساطير

كان المنشدون حين يتغنون بها يهتزون نشوة، وتجيش نفوسهم طربًا، بمجرد سماعهم صدى موسيقى الأبيات التي يرددونها.

[افلاطون]

أي ملك الملوك. خير المباركين بركة. وأبلغ قوى الكمال كمالا... أي زيوس يا واهب الغبطة.

[ايخولوس: الضارعات]

لا يمكن فهم الفن الاغريقى إلا من خلال الاسطورة والتراجيديا الاغريقية، فالاسطورة تجسيد للدوافع التشكيلية الكامنة في جميع افراد الشعب.

[ريتشارد فاجنر]

لا أقرأ الآن سوى هوميروس. وقد انتويت ألا أقرأ في العامين القادمين لأدباء معاصرين. لأن أحدا منهم لن يفيدني، وهم يبعدوني عن ذاتي على حين يمنحني القدماء متعة حقة.

[شيلر]

كل ما في اليونان من جبال وأنهار وبحار وأودية إنسي يشافه الانسان بلغته، لا يسومه العذاب ولا يرهقه بل يؤاخيه وينادمه، فتستحيل صرخة الهمجية المضطربة شفافية حين تغمرها اليونان بضوئها، فتتحول إنسية ثم فكرا.

[نيكوس كازنتزاتس: تقرير إلى جريكو]

ألا ما أسمى الانسان بين المخلوقات حين تتكامل له إنسانيته.

[ميناندر]

لم يخترع الشعراء موضوعات ملاحمهم، بل شكلوها من الحقائق القائمة.

[لاكتانتيوس]

يعتبر هربرت سبنسر من أكبر مؤيدي المدرسة الأنثروبولوجية إذ يحاول أن يلقى مزيدا من الضوء فيقول إن الاساطير الطبيعية هي نوع من عبادة الاسلاف نشأت نتيجة لما نسميه سوء الفهم. ويضرب مثلين لذلك.

هناك بعض القبائل التي تسمى أفرادها اسماء مأخوذة من الطبيعة مثل فجر وشمس وقمر ونور الخ... فلو أن هناك اسطورة تتناول قبيلة من تلك القبائل، فإن افراد القبيلة بمرور الزمن - سوف يخلطون بين الشخص الحقيقي والظاهرة الطبيعية، وبذلك تكتسب الظاهرة الطبيعية روحا وتصبح شخصا، كالقمر أو الشمس. مثلا هناك بعض الافراد يهاجرون إلى قبائل مجاورة فيقال عن احدهم أنه جاء من عند الشمس الحارقة أو من ضفة النهر السريع الجريان، وبمرور الزمن يعتقد أحفاد الشخص الأول أن جدهم قد انحدر من النهر، واحفاد الشخص الثاني أن جدهم قد انحدر من النهر. ومع مرور الزمن أيضاً يكتسب كل من الشمس والنهر - في نظر القبيلة - روحا وتصبح شخصا.

أما عن الاساطير التي تتناول الحيوانات، فإن هربرت سبنسر لا يعجز ايضا عن تفسير لاصلها متبعا نفس المنهج. هناك قبائل تُسمّي افرادها اسماء حيوانات مثل فهد. نمر. اسد... الخ وبمرور الزمن ينسى افراد القبيلة الحقيقية أو يسيئون فهمها فيعتقد الاحفاد أن جدهم الاكبر كان فهدا أو نمرا... أو اسدا.. الخ.

ويقدم لنا توماس بوليفنش في كتابه «ميثولوجية اليونان وروما» اربع نظريات في أصل الاسطورة لخصها فيما يلي.

الاولى دينية، تقرر أن حكايات الاساطير كلها مأخوذة من الكتاب المقدس مع الاعتراف بأنها غيرت أو حرفت. ومن ثم كان هرقل اسما آخر لشمشون المارد دبوكاليون ابن بروميثيوم الذي انقذ زيوس مع زوجته من الغرق فوق أحد الجبال هو نوح، وهكذا.

والثانية تاريخية، تذهب إلى أن أعلام الاساطير عاشوا فعلا وحققوا سلسلة من الاعمال العظيمة، ومع مرور الايام اضاف اليهم خيال الشعراء ما وضعهم في ذلك الاطار العجيب الذي يتحركون فيه.

والثالثة رمزية، وتقوم على أن كل أساطير القدماء لم تخرج عن أن تكون في شتى أشكالها الدينية والاخلاقية والفلسفية والتاريخية مجرد مجازات فهمت على غير وجهها أو فهمت حرفيا. من ذلك ما يقال عن - ساترون - يلتهم أولاده، فقد أخذه الاغريق، وإذا كرونوسا أي الزمن يأكل أي شيء يوجد.

والرابعة طبيعية، وبمقتضاها تشخص عناصر الكون من هواء ونار وماء وتراب، أو تتحول إلى كائنات حية، أو تختفي وراء مخلوقات خاصة. وعلى هذا النحو وجد إزاء ظاهرة طبيعية - ابتداء من الشمس والبحر حتى أصغر مجرى ماء - كائن روحي معين.

ومن المؤكد أننا لا نستطيع أن نرفض هذه النظريات الاربع كذلك لا نقبلها فكلها صحيح من وجهة النظر التي تمثلها، أو في كل منها ما يشدنا اليه، ومع ذلك نقرر حقيقة أن الاسطورة عادة هي ثمرة جهود الانسان في فهم طبيعة الكون وفي تسمية ظواهره وتحديد أماكنه.



الخيانة والوفاء
في الأسطورة الاغريقية

الآلهة في الأسطورة الأغريقية كالبشر تماما . . . تجري في عروقهم دماء الشهوة، تحركهم الرغبة. وتتملكهم المشاعر والانفعالات الدنيوية. ونجد الخيانة الزوجية. . أو الوفاء للزوج الغائب.

هذه هيلين في الالياذة

وأيضا بنيلوب في الأوديسا

المرأة الاولى ذات جمال يفوق الخيال كانت سببا في الحرب الطروادية التي استمرت عشر سنوات وقد قضت على الحرث والنسل فمات الآلاف من الرجال والاطفال والشيوخ.

هيلين التي خانت زوجها الملك مينلاووس مع الضيف باريس الذي رحل معها إلى طرواده.

أنها امرأة خائنة. ساقطة.

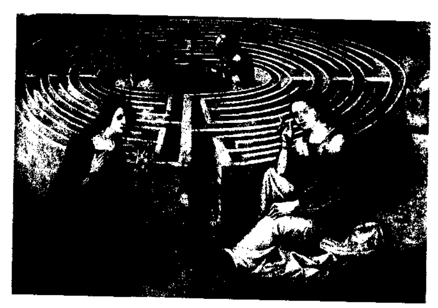
أما الثانية ـ بنيلوب زوجه أوديسيوس ـ فقد عانت طويلا بسبب غياب زوجها أوديسيوس، وقد حاول الخطاب الطامعون ابتلاع ممتلكات زوجها ومملكته بل وابتلاعها هي ايضاً. . ولكنها ظلت وفية مخلصه طوال عشر سنوات إلى إن عاد إليها زوجها وراحا يعيشان من جديد حياة زوجية سعيدة بعد أن قضى على الامراء والاصدقاء الطامعين الذين كانوا يطمعون في زوجته.

لقد استطاع الشاعر الضرير – هوميروس – أن يقدم لنا هاتين الشخصيتين في ثوب رائع إذ بلغت به المهارة والابداع إلى حد أنه جعلنا نحس ايضاً

بتعاطف شديد مع هيلين ولا سيما عندما ترفض النوم مع باريس مختطفها ومغتصبها، ولكن افروديتي ربة الحب والجمال والتناسل ترغمها على ذلك وتجعلها تبادله عواطفه الجياشة، وقد بكت هيلين ايضاً عندما مات هيكتور واخيرا يعود إليها ضميرها بعدما تعود إلى زوجها مينيلاوس بعد عشر سنوات وقد أدركت تماما أنها كانت سببا في الكثير من الاذى والضرر وقد راحت تهتم بشؤون نساء مملكتها اكثر من اهتمامها بنفسها.

وهكذا. . . . .

فإن شخصيات هوميروس في ملحمتيه الالياذة والاوديسا يعكسون موقفهم وظروف معيشتهم ويقتربون منا بمشاعرهم الانسانية، وهم بذلك يبدون أكثر جاذبية وسحرا مما كانوا عليه في المألوف الملحمي الذي ورثه هوميروس رغم أنه أنزلهم من عليائهم إلى الأرض، إلا أنه لم يفقدهم امتيازهم الخاص وعظمتهم الملموسة، فهم ليسوا أشرارا ولا ضعفاء ولا تافهين.



مصارعة المينوثور

رأي علماء النفس في الاسطورة

يرى علماء النفس أن الاسطورة تعبير عن ميول وقوى نفسية دائمة غير معترف بها. . أول من توصل إلى هذا التفسير هو سيجموند فرويد.

ولقد أشار فرويد إلى وجود أوجه شبه متعددة بين أساطير معروفة ورموز تظهر في الأحلام لتمثل دوافع غريزية قوية. لذا، أطلق على هذه الدوافع أسماء شخصيات أسطورية اغريقية.

بدأ فرويد بأقوى دافع غريزي في الانسان وهو عشق الابن لأمه وغيرته من أبيه فسماه «عقدة أوديب» إذ إن أوديب قتل والده وتزوج والدته، ثم انتقل إلى دافع مواز للدافع الاول وهو عشق الابنة لابيها وغيرتها من أمها فسماه «عقدة اليكترا» إذ إن اليكترا ساعدت شقيقتها في اغتيال أمها كلوتمنسترا انتقاما لوالدها الذي قتلته كلوتمنسترا، ثم انتقل إلى دافع ثالث وهو أن الغرور يتملك المرء فيعجب بجماله ورشاقته ويعشق طلعته البهية فيكون مصيره الموت مثل «نركسيس» وقد سمى هذا الدافع عقدة النرجسية نسبة إلى نرجس نركسيس.

ولقد وجدت تفسيرات فرويد النفسية قبولا لدى مجموعة من الدارسين فواصلوا دراساتهم النفسية المتطرفة، فتناولوا العلاقة بين الاسطورة والشعيرة والرمزية النفسية، لكن أبرز أتباع فرويد هو العالم النفسي يونج. ومضمون رأي يونج هو أن الاساطير ترمز إلى الرغبات والانفعالات التي يشعر بها كل فرد من أفراد البشر على وجه الأرض والتي لا يعترف بها. فالفتاة تتمنى أن تكون على أكبر درجة من الجمال وأن تتزوج من شاب غني ميسور وجميل، وأنه سوف يعثر عليها بالرغم من إهمال أسرتها وعداوتها

لها وبالرغم من عدم وجود وفاق بينها وبين أسرتها أو الظروف المحيطة بها. هنا نتخيل الفتاة أنها قادرة على التخلص من متاعب تلك الرغبة قائلة: إن ذلك من الممكن أن يحدث فعلا كما حدث لسندريلا. عندئذ تبدأ الفتاة في رواية قصة ساندريلا أو في قراءتها. وبالمثل فإن الفتى يريد أن لا ينافسه أحد في حب والدته ويتمنى القضاء على منافسيه في حبها - ومن بينهم والده - لذا فإنه يشعر بالسعادة عندما يقرأ قصة أوديب ذلك الشاب المغامر الذي قتل رجلا عجوزا ثم اكتشف بعد ذلك أنه والده، وتزوج امرأة حسناء ثم اكتشف أنها والدته.

إن أوديب. . وسندريلا وهيلينا وأوديسوس، وهيراكليس وكل هؤلاء ليسوا شخصيات تاريخية بقدر ما هم صور لرغبات وانفعالات وآمال يشعر بها كل فرد من أفراد البشر على وجه الارض.

إن الاساطير العظيمة. . بل حتى الرموز العظيمة مثل الزهرة التي يعتري الغموض شكلها، والأرقام الغامضة مثل رقم 3، 7، 13 دائماً وأبدا واردة عبر تاريخ البشر وآدابه في جميع أنحاء العالم. قد تبرز أحيانا كخرافات، أو كأسس لقصائد عظيمة، أو كنماذج عامة للفن أو للشعر.

يسمي يونج تلك الاساطير أو الرموز «النماذج الاصلية للشعور الجماعي». وبسبب هذه الشمولية فإن الاساطير أو الروايات العظيمة - كما يعتقد يونج - لا يمكن بأية حال من الأحوال نسبتها إلى مؤلف معين، كما يمكن إعادة كتابتها مرة بعد أخرى دون أن تفقد قدرتها على التأثير أو رونقها وجمالها.

إن العمل الذي يقوم به كاتبو هذه الأساطير أو المستمعون إليها أو القارئون لها، على مدى الاجيال المتتالية، هو عمل جماعي حقا. . إنها تصور أعمق أفكار الجنس البشري وأحاسيسه. لذلك فإنها حسب المقاييس البشرية خالدة.

ملحمة الخلق

بادئ ذي بدء كان العالم كتلة من أشياء مضطربة في غير نظام أو تنسيق.

وكانت ثمة وحدة جامعة بين النجوم واليابسة والبحار وما لبثت السماء أن سمت فوق اليابسة التي طوقتها البحار.

وأخذ الفضاء مكانه، وبسط الطير ذراعيه، وتلقت الادغال وحش الحيوان.

أما أنت أيتها الاسماك فقد أخذت الماء الدافق، ساعة كان البشر يهيمون على وجوههم في أرض موحشة بأشكالهم الفظة وسلوكهم الخشن.

ديارهم الأدغال، وقوتهم الاعشاب، وأوراق الشجر مضاجعهم. ما أطول ما عاش الانسان على غير ألفة مع غيره. إلى أن كان اللقاء بين الذكر والأنثى، فانبعثت في الانسان تلك المتعة الساحرة التي أيقظت مشاعره الوحشية.

ترى ماذا كان عليهما أن يفعلا ذاك الوقت؟!

لقد علم كل منهما رفيقه دون معلم.

بالفطرة كشفت فينوس للإنسان عن قانون المتعة فغدا للطير أليف يعشقه، وفي أعماق البحار تجد السمكة ذكرا يطفئ غلة شهوتها، وتتبع الايلة أيلها.

يضم الثعبان الافعى، ويلتصق الكلب بالكلبة محموما بالشبق، وتسعد النعجة حين يعتليها كبشها.

كما تهتز البقرة منتشية بثورها، وتحتمل العنزه نتن زوجها الكبش،

وتستثار الفرس سعارًا فتلاحق الجواد الفحل صوب المراعي النائية لا تعوقها الأنهار. فلتهدأ بالا، ولتطفئن وصاياي الناجعة ثورة أنثاك الغضبى.

فهي بلسم الحنق الثائر، وتفوق في قدرتها ما أوصى به الطبيب سن عصارات، فما إن تأخذ بها حتى تعيدك إلى خطوتها مهما كانت خطاياك.

اوفيد



الحضارة الاغريقية والأسطورة

الحضارة الاغريقية حضارة الفلسفة والاساطير، فقد كانوا من خالقي الاساطير وأساتذة الفلسفة ومفكري الجمال وصانعي الحركة والحياة في الفن، كما أنهم كانوا يقدسون الإنسان ومواهبه وجماله حتى أنهم ابتكروا آلهة أساطيرهم بصورة إنسانية لها نفس المقومات والصفات والعيوب التي للإنسان، فكان الإنسان والجسم البشري هو موضوع الفن اليوناني الرئيسي.. في تماثيلهم ولوحاتهم ورسوم أواني الخزف وغيرها.

والمرأة في الفن اليوناني بالدرجة الأولى هي الحياة والوجود والرغبة العارمة مثلها مثل أساطيرهم، فنرى زيوس كبير آلهه الأولمب أحب ليدا - من فتيات البشر - الفاتنة فيتحول إلى طائر البجع ليصل إليها. وفي مرة أخرى يتحول إلى ثور جميل تمتطيه «يوروبا» ليختطفها ويتزوجها، كما أن الآلهة جميعا تصارعت من أجل الوصول إلى قلب فينوس الجميلة، لكنها أحبت «مارس» وكانت له. وفي أسطورة أخرى تحكي قصة الملك «أيجوس» الذي عشق النساء وفتنته إحدى الأميرات بحبها بمجرد أن رأى ذراعيها المرمريتين وهي تقدم له كوب ماء من خلف الباب. المرأة في الأسطورة كانت السحر والعشق الجامح، وفي الفن كذلك. لذا فقد كان الفن اليوناني عكس سابقه الفرعوني فهو لا يبغي الخلود بل المتعة... فتميزت تماثيله بالواقعية والاهتمام بالتشريح السليم للجسم ومفاتنه، كما خرج عن مبدأ السكون الحركي ليصبح أكثر طلاقة وليونة، وتزداد بشكل كبير ديناميكية حركة الجسم والأطراف ورشاقتها. لأنه فن يبغي التحليق في سماء الأسطورة وأجواء الأرض معاً.

وقد عالج الفن اليوناني موضوعين رئيسيين هما: الأساطير والحياة

اليومية، وفي الموضوع الأول يجب أن نعرف معنى المناظر المصورة من الأسطورة التي تحكيها وعن الآلهة والأبطال بعكس مشاهد الحياة اليومية التي تصور عادات اليونان وألعابهم وحروبهم، لكن الغرض الأساسى للنحت يبقى دينيا مرتبطا بالأسطورة خاصة في عهودها الأولى.



الأسطورة

للفنان جناحان.. الحب والإبداع، بهما يحلق إلى عوالم مسحورة غير مطروقة، يخطو للزمن الآتي في طلاقة، يعود لأزمان غير معروفة، يجوب أماكن لا يعرفها أحد، وبخياله الخصب يغوص إلى أعماق الأعماق في محاولة بحث دائمة عن شيء غير موجود. وفي المنطقة الوسطى ما بين العبقرية والجنون يترنح على شواطئ الإبداع المخملية وهو قادر على الترحال من أرض الواقع للتحليق هناك عالياً في سماء الخيال اللامتناهية.

وفي الأسطورة وجد الإنسان الأول ضالته المنشودة سعيا فكريا وراء التفسيرات الطبيعية، ووجد فيها الفنان الشعبي متنفسا لطموحاته البطولية والأخلاقية، أما الفنان التشكيلي فقد وجدها أفقا لانهائيًّا لخلق عالمه الخاص الذي يحبه بعيدا عن أرض الواقع الصلبة، فقد خلق ما يحبه ولا يجده. وقد امتلأت الأساطير بنماذج نسائية مبهرة تحمل ملامح أسطورية تحقق قدرا من الارتواء والرضا النفسي. فأساطير الآلهة الإغريقية لم يخلقها إلا البشر، فقد صور البشر آلهتهم كما هم يحبون ويتمنون، فوجد الفنانون ضالتهم في خلق ما يحبون ويشعرون من خلال الأسطورة، وخاصة في صورة المرأة أو الآلهات.

وأحياناً ما خلط الفنان في لوحته ما بين الواقع والأسطورة، فالمستشرقون في القرن التاسع عشر ربطوا ما بين رسمهم للحريم وجو الشرق بأسطورة شهرزاد في «ألف ليله وليلة»، كما كان روبنز يرسم ملامح زوجته «هيلين» في لوحاته عن آلهات الفن والجمال.. كما نرى سلفادور دالي يكرر رسم وجه زوجته في لوحة العذراء والطفل، ثم وهي عارية بجوارها طائر البجع الأبيض، كأسطورة ليدا وطائر البجع – كما سيأتي

ذكرها فيما بعد – فالأسطورة أثرت بشكل كبير على الفن وخاصة فيما يخص علاقة الفنان بالمرأة من هذه الناحية. ومن ناحية أخرى ـ كما رأى بعض النقاد ـ إن الأسطورة تنطبق على حياة الفنانين أنفسهم، وقسموا الفنانين إلى ديونيزيين (نسبة إلى ديونيزوس إله الخمر) وأبوللونيين (نسبة إلى أبوللو إله القمر) وفقاً لأسلوبهم المتبع في معالجة موضوع الحب والجنس في أعمالهم وحياتهم.

والأسطورة تعني الحكاية الخيالية التي توجد عند الأمم في حالتها الأولى ومادتها أشخاص وحوادث فوق طاقة البشر، وتدور فكرتها حول ظواهر تاريخية أو طبيعية، وهي محاولة بدائية من الإنسان لفك طلاسم الكون والطبيعة بشكل خيالي، وهي تتشابه إلى حد كبير بين الأمم، فقصة «ديانا وأنديمون» اليونانية عرف مثلها الاستراليون والسنغاليون وبعض قبائل أفريقيا.

وهي تروي أن «ديانا» إلاهة القمر كانت تسوق جيادها الناصعة البياض عبر السماء فلمحت «أنديمون» الراعي الجميل نائماً على سفح الجبل، فانحنت عليه وقبلته. وظلت تفعل هذا كل ليلة في عشق وهيام به، حتى خافت أن تفقده فأغرقته في نعاس دائم وأخفته في كهف لا يعرفه إنسان.

وأنديمون هنا كان رمزا للشمس الغاربة التي يتطلع إليها القمر كلما بدأ رحلته الليلية.. وهي أسطورة لا تختلف إلا في تفاصيل قليلة من شعب إلى آخر.

وتتباين وجهات نظر الباحثين في تفسير الأسطورة فجعلها فلاسفة مدرسة الأسكندرية رمزًا للقوة النفسية والأخلاقية أو مظاهر الطبيعة كأسطورة إيزيس وأوزوريس.. إلا أن بعض الإساطير لا يمكن قبولها على هذا النحو.

والاتجاه الثاني يُرجع الأسطورة لأحداث تاريخية شبه حقيقة تحولت

إلى أساطير كما يتحول الأبطال الشعبيون في مخيلة الفنان القديم إلى آلهة مثل ملحمة «جلجامش السومرية» و«أبو زيد الهلالي».

أما الاتجاه الثالث فيرى الأساطير قد وضعت لتفسير الشعائر الدينية التي يتوراثها البدائيون ولا يفهمون معناها فتخلق الأسطورة كقناع عقلي تبريري.

وفي الأسطورة تكثر التحولات اللامنطقية من كائن إلى آخر.

فنرى «باخوس» إله الخمر في الأساطير الإغريقية أجر سفينة من قرصان «تيرينيا» لنقله من مكان إلى آخر، لكنهم اتجهوا به اتجاها آخر بدلاً من أن يحملوه إلى غايته ليبيعوه كرقيق.. فثار وتحول «باخوس» إلى «أسد» وحوَّل الأشرعة والمجاديف إلى ثعابين وأنبت اللبلاب حول السفينة، وانطلقت الأصوات من كل جانب، فجن الملاحون ووثبوا إلى البحر وفيه مسخوا دلافين. نرى في هذه الأسطورة قدرات الآلهة غير الطبيعية على التحوُّل والتحويل.

والأسطورة نقلت شفهياً فتعرضت بصفة عامة للتعديل والحذف والإضافة، إلا أن التدوين فيما بعد قد حفظها وساعد على ثباتها.

◄ خلق الإنسان وخلق المرأة..

صوَّرت أساطير قديمة وكثيرة خلق الإنسان، لكن الأسطورة اليونانية، والتي سيطرت على عقل الفن في أوروبا في أوج ازدهار الأساطير وتصويرها هي التي توضح أن الانسان صورة من الآلهة وله نفس قوتها.. فتحكي الأسطورة الحكاية الآتية:

بعدما نشأت معركة ضخمة بين «زيوس» كبير الآلهة - الذي قتل أباه للحصول على الحكم - وبين المردة «التيتان» من أجل الحكم في عالم الآلهة، انحاز بروميثوس وأخوه الأصغر إيمثيوس إلى جانب سيد الأولمب زيوس بالرغم من انحياز أبيه إلى جانب أعدائه.. وقد سر زيوس لذلك سرورا عظيما، واختارهما لخلق كائنات حية تعمر وجه الأرض فخلقا

بدائع الطير والحيوان والدواب، ولكلٍّ صفة تميزه وجمال خاص به. ثم أراد بروميثوس أن يخلق شيئا لا تستطيع الآلهة نفسها على خلقه، فأخذ قطعة من الصلصال وصوَّرها على صورة أرباب الأولمب وجعلها تقف على رجلين وترنو للسماء، وجعل لها ذهنا جباراً مفكراً ووهبها ثلاث هبات تميزه دون الكائنات الأخرى، وهي: رأس مفكر وروح نقية ويد خلاقة.. وهذه العجائب الثلاث لم تتيسر مجتمعة حتى للآلهة.

ولاحظ بروميثوس إن أخاه إيمثيوس يسرف في إهداء الكثير من المنح للحيوانات التي يخلقها من جمال وقوة ومميزات.. وفكر.. ماذا يهب للإنسان..؟ وأخيرا اهتدى إلى أن يهديه «النار» ويعلِّمه كيف يستعين بها على اقتحام عالم الفنون.. وعندما علم زيوس بذلك - وقد كانت النار وقفا على الآلهة - أمر بتكبيل بروميثوس بالأغلال وتعذيبه عن طريق نسر ينهش كبده كل صباح حتى رآه «هرقل» وحرره غير عابئ بسخط زيوس وغضبه.

◄ «بندورا».. المرأة

اغتاظ زيوس مرة أخرى، وسخط هذه المرة على الإنسان، وظل يفكر في وسيلة ينتقم بها منه ويعكر صفوه، فأمر بخلق المرأة. جمع زيوس الآلهة ليتفننوا في صنع «المرأة».. فقام «هيفستوس» إله النار والفن وابن زيوس فسوَّاها من نفس الحمأ الذي خلق منه الإنسان، فجاءت آيه من آيات الحسن والفتنة. وأقبلت الآلهة تنفث فيها أسرارها، فوهبتها فينوس من جمالها، وهيرا من ثرثرتها، ومينرفا من حكمتها، ولاتونا من استحيائها، وديانا من رشاقتها، وكيوبيد من حبه، وأبوللو من شعره وموسيقاه.. أما هرمز الخبيث فأعطاها المكر والخبث والدهاء.

ثم نفخ فيها زيوس من روحه فأعطاها الحياة.. وسميت «بندورا». كما أهداها كبير الآلهة صندوقا بديعا وهو مغلق.. وبعد فترة تملكها حب الاستطلاع، ففتحت الصندوق فانطلقت منه خفافيش سوداء كانت هي

عذاب البشر من الجهل، والفقر، والنفاق، والمرض،... والتي كادت أن تقضي على البشر... لولا ذلك الفراش الصغير الأبيض الذي انطلق على إثرها.. وهو الأمل.

◄ آلهات الفن «المرأة في الأسطورة»

إمتلات الأساطير بنماذج مبهرة للمرأة، والتي كانت حقلا خصبا لإبداعات الفنانين عبر تاريخ البشرية منذ نشأة الأسطورة وحتى الآن وفي كل الحضارات. وهذه نماذج لصورة المرأة في الأسطوة والفن معاً.

تعددت الآلهات في الأسطورة اليونانية وتميز كلٌ منها بصفة أو هبة.. وكانت هناك مجموعة كبيرة من الحوريات الجميلات هن آلهات الفن والحب والجمال والتي ترعى الفنانين والفنون وأعطتهم من أسرارها، حتى أن القصص الأسطورية تشهد كثيرا من القصص التي ترتبط فيها إحدى الحوريات أو الآلهة بحب إنسان مبدع فتهبه حبها ونفسها الإلهية. لذا فقد أطلق على الفنانين أسم «أنصاف الآلهة» لما لهم من قدرة على الخلق والإبداع.

ومن هذه الآلهة المتمثلة في صورة المرأة..

هيرا «Hera» ومعناها الهواء الأزرق أو الضوء السماوي وهي شقيقة زيوس، ويسميها الرومان Juno. كان لها جمال ساحر فسميت مليكة الأولمب وربة السماء، وأطلق الرومان إسمها على شهر يونيو، ويقيمون عيدها في شهر مارس الذي كانوا يستبشرون بعقد زيجاتهم فيه. وهي ربة تميزت بالغيرة الشديدة وشغوفة بالجمال والفن...

◄ عرائس الفنون

كان أبوللو ابن زيوس، ويطلق عليه ربّ الحياة والضوء والشمس، وأيضا رب الطب والموسيقى والشعر والفنون الجميلة.

ولشدة إعجاب زيوس بابنه وضع في خدمته وسلطانه بناته التسع وهن عرائس الفنون.. **كليو** عروس التاريخ - **يوتربه** عروس الشعر الغنائي وكانوا يصورونها وهي تحمل نايًا وضفائر من الزهور - **تاليا** عروس الشعر الريفي - **ملبومينة** ربة المآسي وكانت تلبس قناعا عابس الأسارير وتقبض على عصا هرقل - **تريسيكور** عروس الغناء والرقص وكانت تصوَّر وهي تحمل قيثارة - **أراتو** عروس أشعار الغزل - **بوليمينا** عروس البيان وتحمل صولجانا رمزاً للفصاحة - **أورانيا** عروس الفلك والعلوم - **كاليوبيا** عروس الأشعار البطولية والملاحم، وكانت تحمل لوحة وقلما وترتدي إكليلا من الغار.

وكان لأبوللو في جزيرة ردوس تمثال ضخم، وكانت السفن تمر من بين ساقيه وهي تدخل الميناء أو تخرج منه، وكان هذا التمثال واحدا من عجائب الدنيا السبع. واعتبر أبوللو بصفة عامة أحد الآلهة الهامة التي استلهمها النحاتون الرومان والفنانون الأوروبيون في أعمالهم.

فينوس... ومعناها الفجر أو السحر وهي ربة الجمال والحب، وقد أطلق عليها أيضا اسم «أفروديت»، ومعناها المولودة من الزبد. وثمة رواية عن مولد فينوس تقول إنها ولدت من «صدفة» كبيرة طفت على وجه البحر دفعها رب النسيم إلى الشاطئ، فتلقتها عرائس البحر فأهدت لها ربات الفصول أينع الزهر وأشهى الثمر، كما وهبتها ربات المحبة من أسرارهن... المحبة والحسن والجلال والمرح والنعيم. وبدأت رحلتها إلى جبال الأولمب في صحبة آلهة الهوى والمودة والغزل والزواج، وأعد لها عرش من ذهب. ولما استوت عليه كانت قد استولت على قلوب الآلهة وعلى قلوب البشر، وتقدموا جميعا لخطبتها، إلا أنها أحبت «مارس» إله الحرب الذي أنجب منها «كيوبيد» إله الحب.

وقد رسم الفنان العظيم بوتيشيللي حوالى عام 1485 م إحدى روائعه الفنية التي تصور «مولد فينوس» وهي تخرج من الصدفة السابحة على سطح

البحر وينفخ فيها إله النسيم من روحه. واللوحة محفوظة بمتحف الأوفيتسي بفلورنسا – وكما نعرف جميعا تمثال فينوس «مقطوعة الأذرع» والمعروف باسم «فينوس ميلو» أحد روائع الفن الإغريقي في العصر الهلينستي، وقد عُثر على التمثال بجزيرة ميلوس أو ميلو عام 1820م، والذراعان مفقودتان، ربما كانتا تحملان في الأصل درعاً مرفوعا لأعلى ناحية اليسار تتأمل الآلهة صورتها المنعكسة عليها.

ليدا.. وهي غادة حسناء من البشر، خلبت لب زيوس فكان يزورها في صورة ذكر البجع. وهذه الأسطورة كانت ضمن موضوعات الفنانين الخالدة، مصورين كانوا أم مثالين، والتي في أغلب الأحيان استفزَّهم فيها مشهد اللقاء الجنسي ما بين فاتنة وطائر بجع.. غير الطبيعي، فكان تصويره جموحا خياليا، حاك كل منهم صياغته حسبما يشعر. ومن أهم هؤلاء الفنانين مايكل انجلو وليوناردو دافنشي وسلفادور دالي.

اوروبا.. تقول الأسطورة إن أوروبا عروس البحر الجميلة قد ولدت أو خرجت إلى الوجود من بطن ثور هائج ضخم، إشارة إلى البحار التي تحيط بها من كل جانب. ويوجد تمثال ضخم بمدينة الإسكندرية للمثال الراحل فتحي محمود (1918 – 1987) باسم عروس البحر يصور لحظة ميلاد أوروبا وخروجها من بطن الثور.

وهناك نماذج أخرى مبهرة لأساطير الشعوب المختلفة والتي اعتبرها الفنانون مادة خام طيعة للعزف عليها لخلق أساطير جديدة من التشكيل المرئي. وهذه بعض النماذج المهمة والشهيرة.

العرائس.. هناك عدد من «الموتيفات» التى ظهرت بشكل المرأة في الأعمال التشكيلية والشعبية، واشتهرت منها عروس البحر التي تصور نصفها أنثى جميلة ونصفها السفلي على شكل سمكة، وهي في الحقيقة من نسج الخيال. فعروس البحر في الحقيقة هي حيوان بحري دميم يتميز بسلوكه الطريف، إذ تظهر في الليالى القمرية على سطح الماء وترقص

بزعانفها التي تشبه، إلى حدٍّ ما، أيادي الإنسان في حركات إيقاعية، وهي تشبه الإنسان في هيئته العامة. وقد رآها البعض من بعيد في الليالي المقمرة فتخيلوها فتاة ترقص لإغراء وغواية أهل الأرض، وهي من الجن أو كائنات أخرى وتناقلتها الصور بهذا الشكل كنصف أنثى ونصف سمكة ونسجت الحكايات حولها.

وهناك في الفن الشعبي عروسة المولد، وعروسة الحسد لحماية البيت من الحسد، وعروسة الزار، وعروسة القمح وهي تصنع لبشرى ظهور أول سنابله.. وغيرها سن النماذج المتعلقة بمعاني الخصوبة والميلاد والأمومة والفرح والمتعلقة بالمرأة. ومن أهم هذه العرائس تاريخيا عروس النيل الفرعونية، وقد كان من المعتقد أنهم يلقون بفتاة إلى النيل كتضحية بشرية لإرضائه، وهي في ثوب العرس إلا أنه لا يوجد في الأدب والتاريخ الفرعوني ما يشير إلى هذه الأسطورة ولا أي تضحيات بشرية كان يقدمها الفراعنة للآلهة، إنما هناك ثلاث لوحات قديمة لكل من رمسيس الثاني ومنفتاح ورمسيس الثالث تشير إلى الحفل الديني الذي يقام لوفاء النيل.. حيث تذبح الذبائح والقرابين من عجول وأوز وطيور ثم يلقى بـ «قرطاس» من البردي في النيل كان الكهنة يكتبون عليه عبارات سحرية لإرضاء النيل وطلب البركة والفيضان. إلا أن أسطورة عروس النيل العذراء التي تُضحّي بنفسها طلباً لخير الناس ظلت تُتناقل وتُصَوَّر على هذا الشكل.

الفن والأسطورة
(صراع ديونيزوس وأبوللو)

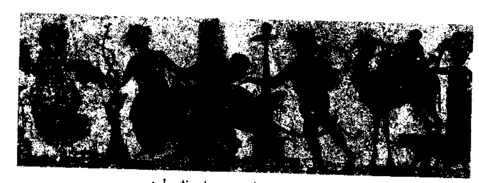
إنتشرت خلال القرنين السابع والسادس قبل الميلاد في بلاد الإغريق.. عبادة إلاله «ديونيزوس» إله الإخصاب. وكان معظم عبدة هذا الاله من موطنه الأصلي من النساء اللواتي يعرفن «بالميناد» وقد اتصفت عبادته بالفجور والعربدة، فقد كن يجتمعن ليلا على قمم الجبال النائية، وهنالك يحتسين الخمر ويأخذن في الرقص الجنوني والعربدة على دقات الطبول، في ضوء المشاعل، حول أنصاب ترمز للفحولة، ثم يلتهمن لحم الثيران والعجول التي كن يعتقدن أن هذا الإله يتقمصهن... في احتفال مملوء بالنشوة الجسدية والروحية، التي تصل للغيبوبة بغية تحطيم الحواجز بين الإله والإنسان، وحتى تدور الحياة وتتجدد في الأرحام والأرض.

وتحكي الأسطورة أن ديونيزوس يموت بعد أن يُقَطَّع أربا مع دفن البذور في جوف الأرض - وقد كان هذا الموت العنيف أول صورة من صور التراجيديا عند الإغريق - ثم بعد دفنه ينتقل إلى عالم الظلمات الغيبي أو ظلمات قلب الإنسان. وإنه ليظل هكذا كامنًا حتى تتفتح طاقات السماء بماء الحياة والمطر فتخصب الأرض، عندئذ يكون عيد الإله ديونيزوس حيث يغني القوم ويرقصون ويشربون ويعربدون طائفين في القرى على عربات تحمل أنصابا ترمز للفحولة، ويطلق عليها في اللغة الاغريقية اسم «كوموس»، ومنها اشتقت كلمة «كوميديا» التي أصبحت تطلق فيما بعد على الأعمال الدرامية التي تقوم على الهزل.

وأسطورة ديونيزوس ترمز للشهوانية التي سيطرت على الفن في فترات ما...

وبالضرورة كان هناك اتجاه مقابل، فلكل اسطورة وإله هناك الند أو المغاير.. فكان «أبوللو» وهو إله النور والطب عند الإغريق والذي يشفي النفوس من تلك القوى المظلمة، قد أصبح بعد ذلك إله الفنون بعد أن تحول الفن الإغريقي نفسه إلى كبح تلك النزوات الجامحة الشهوانية وأصبح طريقا مقابلا في الفن في اتجاه الصفاء والاشراق والاتزان والحكمة.

ومن هذا يتضح لنا أن ديونيزوس وأبوللو يمثلان قوتين متعارضتين في النفس والفن كعنصرين من عناصر الوجدان الإنساني نراهما تارة مجتمعين وتارة يتغلب أحدهما على الآخر في شتى صور الفن منذ القدم وحتى العصر الحديث. إنهما أشبه بالصراع «الهائل» داخل الإنسان.



لوحة تجسد ديونوسيس على ظهر أسد



أسطورة المرأة

رأيت فيما يرى النائم مخلوقة عارية منتصبة فوق رابية مزدانة بالأزهار والرياحين وما إن دنوتُ منها حتى تبين لي أن محياها وضاء كالشمس، وعينيها خلابتان كالنجوم، وشفتيها جذابتان كالورد القرمزي، وجسدها فتان كجسد هاتور!

ولما أمعنت فيها النظر رأيت أشعة رقيقة مثل ضياء القمر بجسدها الأملس، وسمعت نغمات شجية تنبثق من الفضاء بقربها!

فاقتربت منها متفرسا فيها وفي ما حولها، فرأيت في يمينها جعبة سهام عجيبة، وفي يسارها تفاحة جميلة، وعلى رأسها تمثال ذهبي وثعبان ملتوٍ منقوش برموز سحرية!

ورأيت لها جناحين كالبللور يختفيان تارة فيبدو لها بدلا منهما ذيل كالافعى، وقرنان كقرني التيس، ويظهران مرة أخرى فيتلاشى الذيل والقرنان!

ونظرت فإذا بجوارها طاووس عجيب، وقلب بشري في كأس من المر، وباقة من الزنبق الداوي، وقيثارة من ذهب، ووردة نضرة تعطر أرجاء الفضاء، ومائدة عليها ذهب ولبان ومر!

فوقفت أتأمل في ما أرى صامتاً، ثم تقدمت وسألتها من تكون!

فنظرت إليَّ بدهشة وقالت: يا للعجب إلا تعرف أمك حواء؟ أنا أم البشرية!

قلت: لقد أضلتني عن معرفتك تلك الغرائب التي حولك!

قالت: لا أرى حولي شيئاً غريباً!

قلت: فما هذه الأشعة السماوية التي تكتنفك؟

قالت: في البدء لما صنعني مهندس الكون، وخطرت تحت خمائل الطيب وكروم الجنة، هبط الملائكة والآلهة ليروني، وسرعان ما استغربوا منظري وفرحوا بي وقدموا لي ثمين الهدايا..

فمنحتني الآلهة «ديانا» هذه الأشعة العجيبة التي تسربلني بالروعة والبهاء حتى أغمر بها القلوب فتصبح ثملة في لازورد ضيائها، وترفرف مستسلمة إلى قوة سحرها، فيحيا مواتها وينتعش وهنها.

قلت: وما تعني هذه النغمات الملائكية التي تنبثق حولك ولا يعلم مصدرها؟

قالت: أما هذه فهبة الرب «أبوللون» لأملأ بها فراغ النفوس بحب الوجود والاقتراب من مغزى الحياة!

تسمعها الآذان عند اقترابي فتطرب في جو ناعس ترن في آفاقه أناشيد الأمل!

إن في تلك النغمات ما يرمز للمرأة التي هي أغنية عذبة تائهة بين ضجيج الوجود.

قلت: فما هذه الجعبة الملأى بالسهام؟

قالت: هذه هدية «كيوبيد» إله الحب ذي الجناحين الصغيرين قدمها إليَّ لأرشقها في القلوب! ذلك هو سيفي المسلول في وجه العقبات، به عُددت في مصاف الجبابرة على الرغم من ضعفي وعجزي.

ذلك هو موضع ظلمي. ولكن وراء هذا العسف لذتي وملهاتي.

تلك هي سهامي فإذ تكسرت فإن لي من سهام اللحظ ما يغنيني عنها.

قلت: وما تعني هذه التفاحة التي بيسارك؟

قالت: إن هذه إلا ذكرى المعصية.

هذا أثر من الفردوس المفقود، وتذكار شجرة معرفة الخير والشر

هذه رمز الخروج من نعيم الجهالة إلى شقاء المعرفة.

هذه تفاحة الإغراء!!

احملها لتذكرني بالزلة الأولى، ولأرى في حسنها خيالات الجنة

وبها أحيا في مملكة الوهم والخيال.

هى التي تحبب إليّ كشف غوامض الحياة، وأسرار الكون، فاقتحم في سبيلها المخاوف والأخطار.

بها أغري الرجل فيرضخ لمشيئتي ويأتمر بأمري،

بها أغراني الشيطان فعصيت الله، وبها أغريت آدم فوقع في المحظور.

وهكذا سترثها المرأة لتكون في يدها سلاحا للإغراء مدى الحياة.

قلت: فما هذا التمثال الجميل؟ وما مغزى هذا الثعبان المنقوش بالطلاسم؟

قالت: هذان من هدايا «أفروديت» ربة الجمال والحب.

أما التمثال فهو رمزها المقدس الذي يزيدني جمالا في العيون وفتنة للناظرين.

إن المرأة الجميلة الحكيمة هي تمثال «أفروديت» الحي، ورسولها المبشر أهل الأرض بدينها القويم.

أما الثعبان فهو الرمز المسحور بالطلاسم الذي أخضع بقوته الأفئدة الصلبة وأذيب بسحر القسوة والعناد.

حقا.. إن المرأة في تقلبها ولينها وخداعها وحكمتها مثل الثعبان الغريب الاطوار...

قلت: فما هذان الجناحان، وما هذا الذيل، وهذان القرنان؟

قالت: بهذين الجناحين يمكن للمرأة أن تتشبه بالملائكة فتنقل في العالم معلنة مجد الروح وعجيب صنع يديه.

وبذلك الذيل والقرنين يمكنها أن تشاطر الأبالسة تمردهم، وتقاسم الشياطين سيئآتهم فتسير في الأرض منادية بالشر والعصيان.

وإن المرأة لملاك في ثوب شيطان، وإنها لشيطان سرق حلل الملائكة.

قلت: وما هذا الطاووس المتغطرس؟

قالت: لقد أهدته إليّ الإلاهة «هيرا» ورمزت به إلى الالهة والفخار اللذين ترى فيهما المرأة شرها.

فآه! كم تعبد المرأة كاذب المظاهر وزائل الاباطيل!

كم للغرور من سلطان على قلبها الضعيف!

إنها تنظر إلى الحياة نظرة غريبة في بابها قلما يفهمها أحد سواها.

قلت: فما هذا القلب البشري المنقوع في كأس المر؟

قالت: هذا قلب الرجل الذي قدمه لي آدم عربون حبه وولائه.

لقد صنته في المر ليعيش أبدا نابضاً بهواي حافظا لعهدي وذكراي.

إن المرأة لتحب أن تمتع ناظريها برؤية القلوب المعذبة في نار هواها!

قلت: وما باقة الزنبق هذه الملقاة عند قدميك؟

قالت: هذه تقدمة «زيوس» كبير الآلهة المغرم بنساء البشر.

ولكن ما كانت المرأة لتهوى حليلا يستعبدها أو خليلا يراها أحقر منه شأنا واصغر من أن تتخذ لنفسها لقب الحاكم بأمرها.

قلت: فما هذه القيثارة الذهبية؟

قالت: هذه تقدمة عرائس الفنون

فالمرأة قيثارة الحياة ونغمة الأمل ولحن العزاء.

هى قيثارة الوجدان الرقيقة الأوتار المالئة الفضاء بالألحان والضحكات والبكاء، يسمعها الشعراء فيملأون الأرض بالقصائد والدواوين.

قلت: وما هذه الوردة النضرة؟

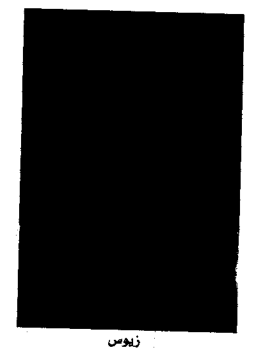
قالت: هذه هبة «فون» إله المروج قدمها إليّ قائلا:

أنت وردة الحياة النضرة ذات الاريج المتضوع في أنحاء الارض
خداك مشربان بحمرة أوراقها، وأنفاسك معطرة بحلو شذاها.
أنت وردة الانسانية ذات الشوك.
لك رونقها وبهاؤها، لك لطفها ونضارتها. ولكن شوكك يُدمي البنان!
قلت: وما هذه المائدة ذات الذهب واللبان والمر؟
قالت: هذه تقدمة معبودي «أدونيس» أرسلها إليّ يقول:
أنت مليكة الحياة المسربلة بالذهب. أنت كنز لا ينفذ معدنه.
عند قدميك ينثر الذهب ويفرش طريقك بالتبر الوهاج.
أنت كاهن هيكل الحب ومعبد الجمال.
لك يقدم لبان المباخر المقدس لأنك الوسيط بين الحب والناس.
أنت رسول عشتروت المبشر بدينها وتعاليمها الذهبية.
أنت نبيُّ الجمال الصارخ في البرية قائلا: أَعِدُّوا طريق الفن.
عندئذ يصلبك وحوش الانس على خشبة الاستعباد ويقدمون لك قصبة ملؤها المر فتشربين وتتعذبين!
فى حياتك ستذرفين الدموع وتتوجعين، وعند أفول نجمك ستدبين وحدك إلى ظلمه النسيان.
فى ربيع أيامك ستتوجين بالغار، وفي شتاء حياتك تلقين تحت الأقدام
لك يقدم الذهب واللبان والمر،
لأنك قصيدة الآلهة الشعرية ذات المعاني والرموز،
لأنك أم البشر، دوحة الأرض المثمرة.
وإذا بسحابة قد هبطت من السماء واختطفت كل ما كان أمامي وصعدت به إلى الأعالي فتلاشى كل شيء!
وفتحت عينيَّ.. وأفقت من تأملاتي واستيقظت فاذ أنا.... أنا (مؤلف هذا الكتاب).

زيوس

أيها الآله العظيم زيوس
مرحى يا أعظم الشباب يا ابن كرونوس
يا سيِّد القوى والنور
جئت على رأس أرواحك
سِرْ إلى - دكتك - للعالم وأفرح بالرقص والغناء
ترقص ونغنّي لك بالمزاهر والنايات معاً
ونغني ونحن واقفون عند مذبحك الحصين

جين الين هارسون



زيوس

زيوس

تجلّى زيوس على عرش الاوليمبوس، حيث الجلالة والقدسية والسكينة، وحيث يفوح أريج أشجار الصنوبر الكثيفة فيهبط في غلالة شفافة تكسو القمم والوديان. . إنه سيد مجلس الآلهة الكبار يطلعونه على صراعات الشعب، ويخلصون له النصح في ظل مشيئته، وهو المعز المذل صاحب القدرات والخوارق في تصريف أمور الكون.

جلس ربّ الأديان، أقوى الآلهه وحاكم الأرض والسماء، بلحيته الوقور، وفي إحدى يديه مزراق الصاعقه وبيده الأخرى صولجان الملك الكبير. إنه موزع الاقدار بغير حساب، وهو حامي حمى ناموسه، وهو أخصب الآلهه إنجابا وقدرة على تصيد اللذة، محتدمة عواطفه، وجياش شبقه. يأتي زيوس في مقدمة أرباب أوليمبوس. وكان زيوس وأخواه قد اقترعوا على الكون، فكان البحر من نصيب بوسيدون، والعالم السفلي من نصيب هاديس، وأما زيوس فأصبح الحاكم الأعلى، رب الآلهة والناس. وكان، كما يتبين من اسمه، الذي يعني السماء أو السماء الصحو، رب السماء بوصفها موطنا لكل الظواهر الجوية والطقس بوجه عام: المطر والبرق والرعد والعاصفة. ولما كان أثر هذه الظواهر يبدو جليا على قمم الجبال؛ فقد تربع زيوس على عرشها. وفي الحق أن أوليمبوس كلمة قديمة سابقة على مجيء اليونان إلى بلادهم، معناها الجبل. وجدير بالذكر أن رب الصاعقة أيضا كان هو الإله الأعلى عند الشعوب البدائية. وقد وصف زيوس بأنه جامع السحب، ومحرك الصاعقة المخيفة. وكان درعه شيئا ترهب العين أن تراه، وطائره هو النسر، وشجرته البلوط. واشتهرت بلدة دودنا في إقليم إبيروس بأنها مكان نبوءته حيث كان الإله يكشف عن إرادته

بحفيف أوراق البلوط الذي يتولى الكهنة تفسير معناه. وتعزى نشأة هذه النبوءة، إلى يمامة جاءت إلى هذا المكان طائرة من طيبة في جنوب مصر. وكانت قوة زيوس تفوق قوة الآلهة الآخرين مجتمعين. ومع هذا فإنه لم يكن إلها قادرا على كل شيء ولا يحيط علمه بكل شيء. فكان من الممكن معارضته وخداعه. وفي الالياذة يمكر به بوسيدون وتمكر به هيرا. وفي بعض الأحيان توصف تلك القوة الخفية، وهي القدر بأنها أقوى منه، فنجد هيرا تسأله مرة بشيء من الاستخفاف إن كان في نيته أن ينقذ من الموت رجلا كتب له القدر أن يموت.

وتصوره كثير من الأساطير إلها يقع في حب نساء كثيرات، بعضهن من البشر وبعضهن الآخر من الإلاهات. فيلجأ إلى شتى الحيل لإخفاء خيانته عن هيرا، زوجته الغيور. وفي رأي بعض الباحثين أن هذا المسلك المشين الذي لا يليق بأرفع الآلهة مقاما، إنما يرجع إلى أن زيوس نشأ عن ائتلاف عدة آلهة. وعندما كانت عبادته تنتشر في مدينة كان يوجد فيها من قبل إله أو حاكم مؤله، امتزج الاثنان تدريجيا في إله واحد. وعندئذ كانت زوجة الإله المحلي أو الحاكم المؤله تؤول إلى زيوس. ومن ثم نشأت هذه العلاقات النسائية الكثيرة التي لم ترق في عين إغريق العصور التالية. ومع هذا فإن زيوس يوصف في أقدم النصوص بالإله الأجل والأعظم والأكبر الذي يسكن في السماء. ولم يكن زيوس يأمر عباده بتقديم القرابين فحسب، بل بإتيان العمل الصالح أيضاً «فهو لا يعين من يكذبون أو يحنثون باليمين». لقد كانت هناك فكرتان متناقضتان عنه، إحداهما طيبة والأخرى سيئة شأنه في ذلك شأن بقية الآلهة والإلاهات. وقد ظلت كلتا الفكرتين جنبا إلى جنب فترة طويله من الزمن.

ولقد أشرنا أن زيوس كان رب الآلهة والناس. لكن ذلك لا يعني أنه خالقهن، بل يعني فقط أنه كان أباهم الروحي أو راعيهم، لأن مركزه كان أشبه بمركز رب الأسرة وحامي حاميها عند الرومان. وهذه الفكرة

الموروثة عن الشعوب الهندية – الأوربية تتضمن معنى أخلاقيا وهو المحافظة على القوانين والعرف المتوارث، كحماية اللاجئين ورعاية الغرباء، وهي صفات ارتبطت دائما بزيوس، فعرف باسم حامي المتوسلين وراعي الضيوف الأجانب، ويفسر ذلك كيف أصبح هذا الاله رب فناء المنزل الذي كان يحاط عادة بسور لوقاية سكانه من عدوان المغيرين وهجوم الحيوانات المفترسة، وأصبح رب الاسرة وحامي ممتلكاتها. ولما كانت المدينة – الدولة ترتكز أساسا على الأسرة، فقد صار زيوس – كما يتضح من أشعار هوميروس – راعيا للملك وحقوقه. وقد تصور أهل الحضارة الموكينية ربهم الأعلى والأرباب الآخرين على شاكلة ملك موكيناي والأمراء الأقل قوة في المدن الأخرى.

وكما كان هؤلاء الأمراء يدينون لملك موكيناي بقدر من الطاعة، ويتمردون عليه في بعض الأحيان، كذلك كان زيوس محاطا بأرباب مشاكسين، يجلُّونه تارة، ويسخرون منه تارة أخرى، فلم يكن زيوس يحكم بمقتضى الحق والعدالة، بقدر ما كان يحكم عنوة واقتدارا. وكان هوميروس هو الذي طبع صورة هذه الإله في أذهان الإغريق. ومع أن الملكية زالت في العصر التاريخي، إلا أن عرش زيوس ظل وطيد الأركان فأصبح هو الإله الأعلى للمدينة جنبا إلى جنبِ آثينة ربتها العليا. لأنها كانت في الأصل ربة القصر الموكيني وحامية مليكه. وكان زيوس بوصفه حاميا للحرية السياسية يدعى بالمحرر والمخلص وأنشئت له الأعياد بهذه الصفة، لكن اليونان لم ينسوا أبدا أنه حامي القانون والتقاليد والأخلاق. ويبتهل إليه الشاعر التعليمي هسيودوس بوصفه نصير العدالة ويقرنه بديكي، ربة الجزاء العادل أو الحق. ويبلغ زيوس أسمى منزلة عند الشاعر المسرحي ايسخولوس الذي يعظم من شأنه ويشيد بعدالته وتقواه وقوته الساحقة، غير أن أهمية زيوس لا تبرز أثناء العصر التاريخي في حياة الناس الدينية بقدر ما تبرز في الفن والأدب.

وأما قصة مولده فهي غريبة... إذ تقول الأساطير إن رهيا، أم زيوس، أخفته بعد ولادته في كهف بجبل إيجايون أو دكتي أو إيدا بجزيرة كريت حتى لا يبتلعه أبوه كرونوس مثلما ابتلع بقية إخوته. وهناك قامت بإرضاعه الحوريات أو الحيوانات أو الطيور أو النحل. وفي مقدمتها العنز أمالثيا، وهي أشهر مرضعاته. ورقصت حوله كائنات نصف إلهية، أشبه ما تكون بالأرواح، تعرف باسم كوريبانتيس أو كوريتيس أي الصبية، وإن عرفت أيضا باسم أصابع إيدا لأنها نبتت من أرض جبل إيدا التي ارتكزت عليها رهيا بأصابعها عندما جاءها المخاض. هذه الكائنات أو الأرواح أخذت ترقص حول زيوس بعد مولده وتضرب دروعها حتى تطغى قرقعة السلاح على صراخ الطفل حتى لا يسمعه كرونوس. وتضيف الأسطورة الكريتية أن زيوس مات ودفن بالجزيرة، وليس ثمة شك في أنها فكرة مينوية الأصل ترمز إلى روح النبات، نمائه ومواته في كل عام. وقد أطاح زيوس بعد أن اشتد عوده بعرش أبيه كرونوس وقاتل بمعاونة أرباب أولمبوس التيتانيس، وهم الآلهة جبابرة بدائيون، وقهرهم وقيدهم بالأغلال، ثم قذف بهم إلى ترتاروس، وهي مكان مظلم سحيق محاط بسور من حديد ويبعد عن سطح الأرض بعدها عن السماء.

على أن أشهر الأساطير عن زيوس هي التي تدور حول صراعه الطويل ضد خصومه قبل أن يستوي على عرش الكون. ويعود بنا هذا الصراع إلى نشأة الكون نفسه. ويروي لنا هسيودوس أنه لم يكن هناك في الأصل سوى الفراغ، وهي كلمة تعني فراغ الفم عند التثاؤب، وتعني الآن الفوضى والاضطراب. ومن بعده نشأت الأرض، الربة ذات الصدر العريض، وموطن جميع الآلهة سواء من يسكنون منهم في الأعالي فوق جبل أولمبيوس أو في أغوار الأرض. وكان هناك الحب، أجمل الآلهة الخالدين، الذي يسري في أوصال الآلهة والناس ويتحكم في قلوبهم. ومن الفراغ نشأ ظلام الأعماق وقد أنجب الليل من الظلام، نور السماء،

وضوء النهار. وأما جايا أو الأرض فكان أورانوس، إله السماء وهو أول من أنجبته كفرا لها ليكون قرينها فيحنو عليها ويغطيها تماما ويصبح منزلا أبديا للآلهة المباركين. وقد تمخضت جايا كذلك عن الجبال التي تهوى الحوريات والعرائس السكنى في تلالها كما ولدت البحر المزبد. وجميع هؤلاء قد ولدتهم الربة بدون «إيروس»، أي دون أن يمسها أحد. ولقد أنجبت جايا من أورانوس نفسه الجبابرة من ذكور وإناث. وهم آلهة قدامى بدائيون يتّسمون بالوحشية ولا يرضخون لقانون.

ومن بينهم كان إله النهر الإله أوقيانوس الذي تنبع منه كل الأنهار والينابيع والعيون بل والبحر نفسه، ويجرى باستمرار في حلقة دائرته حول الأرض ويقوم كالحد الفاصل بين العالم وما وراء العالم. ومن بينهم أيضا كانت تثيس، ربة البحر. وزوجه أوقيانوس، التي أنجبت منه ثلاثة آلاف ولد، وهم الأنهار، وعشرات من البنات، وهن عرائس النهر والبحر أو بنات أوقيانوس. وكان من بين حفيداتها ثيتس سيدة البحر الكبرى. التي لا يستبعد أن اسمها هو اسم جدتها نفسه محرفا. كما ولدت جايا من أورانوس تلك المخلوقات العجيبة المعروفة باسم الكيكاوييس التي كانت تتوسط جبهة كل منهم عين مستديرة.

وكان أورانوس، رب السماء يأتي زوجته جايا - ربة الأرض - في كل ليلة ليسترخي بجوارها. غير أنه كان يكره منذ البداية أبناءها منه. ولذلك كان يبادر بإخفائهم بعد ولادتهم مباشرة في جوف الأرض حتى لا يروا نور الدنيا. وكم كان أورانوس يبتهج بهذا العمل المرذول، بينما كانت جايا تئن أنينا موجعا من حملها الثقيل الذي كاد أن يزهق روحها. ولذلك دبرت حيلة لكي تتخلص من عذابها المتصل، وأحضرت حديدا وصنعت منه منجلا حاد الأسنان، ودعت أبناءها الستة وفي مقدمتهم أوقيانوس، ومن بينهم كرونوس الذي كان أصغرهم سنا، كما استدعت بناتها الست، ومن بينهن رهيا وثيمس وتثيس، وسردت عليهم الأم ما تعانيه من عذاب بسبب

سلوك أبيهم المشين وجرائمة البشعة، وناشدتهم أن يهبُّوا لمساعدتها في الانتقام من أبيهم وتخليصها من شروره. وما إن سمعوا القصة حتى تملكهم الخوف وخيم عليهم الصمت ولم يجسر أحد على أن يفتح فاه. وأخيرا انبرى كرونوس المخادع مظهرا استعداده للكيد لابيه والتربص به في أي كمين تنصبه. وأخفته أمه في كمين أعدته وأعطته المنجل الذي صنعته وأنهت إليه بتفاصيل المؤامرة. وجاءها أورانوس في الليل مشتاقا إلى مضاجعتها وأرخى الليل سدوله عليها وغطاها فالتحفته كعادتها في كل مساء. وعندئذ انقضّ كرونوس من مخبئه بالمنجل وخصا أباه قاذفا بعضو تناسله إلى مسافات بعيده، وقد تسرب الدم الذي نزف من أورانوس إلى رحم جايا فأنبتت ربات الغضب والانتقام، والعمالقة. وأما عضو إخصاب إله السماء، فقد سقط في البحر حيث اختلط به زبد الموج الذي انبثقت منه أفروديتي. ومنذ أن ارتكب كرونوس جريمته الدامية لم يقرب إله السماء ربة الأرض ولم يأت لمضاجعتها، واندثرت السلالة الأولى واعقبها حكم كرونوس الذي تربع على عرش الكون.

وقد تزوج كرونوس أخته رهيا وأنجب منها ستة من آلهة أولمبيوس: ثلاث ربات كبيرات هن هسيتا وديميتير وهيرا، وثلاثة أرباب كبار هم هاديس وبوسيدون وزيوس. وكما كان كرونوس أصغر أبناء أورانوس، كان زيوس أصغر أبناء كرونوس، وإن روى هوميروس رواية مخالفة لهسيودوس، مؤكداً أن زيوس كان أكبر إخوته. وقد شابه كرونوس أباه في تخوفه من أبنائه، فكان يبتلعهم بمجرد ولادتهم. ولعله لم يشأ أن يرث أحدهم ملكوته أو يخلفه في مركزه. وقد زاد من خوفه أن أبويه حذراه من أن أحد أبنائه الأقوياء سوف يطيح بعرشه. ولهذا أخذ حذره، فكان يلتهم كل مولود تنجبه له زوجته. وقد حز ذلك في صدر رهيا وجاوز ألمها حد الاحتمال، فلما اقترب ميعاد وضعها ابتهلت إلى أبويها، الأرض والسماء، وناشدتهما أن يعيناها على أن تلد الطفل الجديد خفية، وعلى أن

تثأر أيضا لابنائها الذين أخفاهم كرونوس في جوفه. واستجابت جايا وأورانوس إلى دعاء ابنتهما وكشفا لها عما خبأ القدر لزوجها وما كتبه لابنها. وأرسل الوالدان رهيا إلى جزيرة كريت حيث تولت أمها جايا حضانة الرضيع. وعندما أحضرت رهيا الطفل إلى الجزيرة في بهيم الليل أخفته في كهف بجبل إيجايون (أو دكتي أو إيدا)، وهو جبل تكسوه غابات كثيفة. ولقد ذكرنا من قبل كيف تمت حضانة زيوس الطفل وكيف تمت تربيته. وينبغي أن نضيف أن رهيا خدعت زوجها وقدمت له حجرا ملفوفا في قماط فابتلعه ظنا منه أنه الطفل نفسه، ولم يدر بخلده أن أبنه كان يترقب الوقت حتى يشبَّ عن الطوق ويشتد ساعده ليطيح به ويجرده من سلطته، ويحكم مكانه. فلما بلغ زيوس أشده واكتملت رجولته قهر بالقوة والخديعة أباه كرونوس، بل أرغمه أيضا على أن يلفظ من جوفه بقية إخوته. ولم يحرر زيوس أشقاءه فقط، بل حرر أيضا أعمامه، الذين كانوا ما يزالون يرسفون في أصفاد أورانوس. وكان في مقدمتهم الكيكلوبيس الذين اعترفوا بجميل زيوس عليهم فمنحوه الرعد والبرق، وهما شعار قوته ورمز جبروته.

وبذلك خلف زيوس أباه كرونوس على عرش العالم وأصبح سيده ومليكه. لكن ينبغي أن نذكر أن حكم كرونوس اقترن في الأذهان «بالعصر الذهبي»، فكان فترة زاهية من فترات تاريخ العالم بلغ من رخائها أن العسل كان يتدفق أثناءها من أشجار البلوط. وفي الحق أن زيوس عندما قيد كرونوس بالأغلال وحمله إلى الطرف الأقصى من الأرض، حمل معه «العصر الذهبي» الذي ما يزال قائما عند «جزر النعيم» حيث تهب نسائم نهر أوقيانوس على برج قصر كرونوس وزوجته رهيا.

على أن متاعب زيوس لم تنته بتخلصه من كرونوس، فقد كاد مرة أن يلقى مصير أبيه. ويحدثنا هوميروس كيف تآمرت هيرا وبوسيدون وأثينة على تقييده بالأغلال. غير أن ثيتس، ربة البحر الكبرى، استدعت وحشا يدعوه الآلهة باسم برياريوس ذي الأذرع المائه، ويدعوه البشر باسم

ايجايون، أكبر الظن لأنه شارك هذه الربة سلطانها على البحر الإيجي فترة من الزمن، استدعته من أعماق البحر ونصبته حارسا على ابن كرونوس.

وعندئذ خاف الآلهة الثلاثة فأقلعوا عن التآمر على زيوس وكفوا عن محاولة تكبيله بالسلاسل. والحق أن برياريوس وسن على شاكلته من الوحوش، استطاع زيوس بفضلهم أن يوطد نفوذه ويفرض سيطرته على سلالة أورانوس. لكن لم يلبث أن واجه زيوس وابناء كرونوس ورهيا خطرا شديدا من جانب التيتانيس، وهم - كما أسلفنا الآلهة القدامى البدائيون، أو الجبابرة. فقد اشتبك هؤلاء معهم في حرب مريرة زهاء عشر سنوات. وشن الجبابرة الحرب من قمة جبل أوثريس، بينما خاض زيوس وإخوته غمارها من قمة جبل أولمبيوس. وقد ظل الصراع الرهيب محتدما دون نهاية حاسمة. وأخيرا كشفت جايا للآلهة الجدد سر الانتصار.

وعمل الآلهة بنصيحتها فاستدعوا برياريوس وزميليه، ذوي الأذرع المائه، من الطرف الأقصى للأرض وأغوار اليم، وبثوا فيهم العزم والقوة بأن أشربوهم «نكتارا» واطعموهم «أميروسيا» وهما شراب الآلهة الخالدين وطعامهم. وناشدهم زيوس أن ينضموا تحت لوائه في الحرب المستعرة ضد الجبابرة. ولم يلبث أن استؤنف القتال، فاصطف الآلهة والإلاهات في مواجهة الجبابرة، ذكوراً وإناثا. ولما كان الآلهة الجدد قد كسبوا إلى جانبهم ثلاثة حلفاء لكل منهم مائة ذراع، فكان عتادهم زاد ثلاث مائة حجرة. وبهذا الوابل من الحجارة انهالوا على الجبابرة وغلبوهم على أمرهم. وقُيِّدَ التيتانيس بعد هزيمتهم بالسلاسل وقُذف بهم في ترتاروس، الذي سبق أن وصفناه بأنه مكان سحيق الغور في باطن الأرض يبعد عن سطحها بُعدَ هذا السطح عن السماء. وعلى هذا المكان كان يهوي سندان ضخم يقطع الجوزاء في تسع ليال ويبلغ الأرض في الليلة العاشرة. ثم يغوص في باطن الأرض تسع ليال أخرى ليبلغ ترتاروس في الليلة العاشرة.

وكان ترتاروس معقلا محاطا بسور من حديد، تكتنفه حجب كثيفة من

الليل البهيم. وفوقه كانت تنبت جذور الأرض والبحر، وفي داخله كان يقبع الجبابرة وسط ظلام دامس، لا يراودهم أبدا بصيص من الأمل في الفرار منه، ذلك لأن بوسيدون قد صنع أبواب المعتقل من حديد غليظ، وأقام زيوس برياريوس وزميليه حراساً عليه.

ولم يكد زيوس يفرغ من صراعه ضد التيتانيس حتى واجهه خطر أشد وأنكى. فقد أنجبت جايا ابنا يدعى تيفون، وكان تيفون هذا تنينا ضخما فاق على صغر سنه جميع أبنائها الآخرين في الضخامة والقوة. وكان ردفاه كردفي الإنسان، ولكنه كان فارعا تطاول قامته أعلى الجبال، وتنطح رأسه النجوم في كثير من الأحيان. فإذا بسط ذراعيه امتدت إحداهما إلى المغرب والأخرى إلى المشرق. وقد نبتت من كتفيه مائة رأس من رؤوس الأفاعي. وأما أسفل رِدْفَيْه فكان أشبه بثعبانين يصطرعان، وقد يشرئبان إلى ما فوق رأسه ويحومان ثم يفحان فحيحا مزعجا يدوي في الآذان. ولقد قيل إن الآلهة كانت تفهم ما يصدر من أصوات من رؤوس هذه الأفاعي المائة. غير أن تيفون كان في وسعه أيضا أن ينبح كالكلب أو يئز أزيزا ترجع الجبال صداه. وقد اكتسى كل جسمه بالأجنحة. وكثيرا ما كان شعر رأسه الأشعث ولحيته يموجان في الهواء، بينما تقدح عيناه بالشر والشرر. وقد أخذ تيفون يقذف السماء بحجارة من لهب وهو يهدر ويفح، بينما كان فمه ينفث نارا بدلاً من اللعاب. وقد ساد القلق من أن تكون لتيفون الغلبة على الآلهة والناس. غير أن زيوس ضربه بصاعقته من بعيد ثم ضربه بمنجله الحديدي من قريب، وطارده حتى جبل كاسيون. فلما رأى التنين انه قد أصيب بجرح بليغ، دنا منه ليصارعه يدا بيد. غير أن زيوس انحشر بين ثنيات التنين واستعصى عليه الحراك وكأنه وقع في شراك.

وعندئذ انتزع التنين المنجل من يده وقطع بها عصب يده وقدميه، ثم حمله على كتفه وسار عبر البحر إلى كيليكيا بآسيا الصغرى حيث تركه في كهف (الكيس الجلدي). وهناك أخفى كذلك عصبه تحت جلد دبة وأقام

التنينة دلفيني حارسة عليه. ولكن هرميس، رسول الآلهة، والإله پان استطاعا أن يسرقا عصب زيوس ويرداه إليه. واسترد زيوس قوته وظهر من السماء في عربته التي تجرها الجياد، وتعقب التنين حتى جبل نيسا. وهناك خانته ربات القدر. فقد أعطينه فاكهة ليأ كلها قائلات له إنها سترد إليه قوته، غير أن الفاكهة كانت تحمل اسم «اليوم واحد فقط». ولذلك لم يجد تيفون مناصا من الفرار إلى سلسلة جبال هيموس بإقليم طرافيا، حيث طفق يقذف حوله بالجبال ويلطخها بدمه، ومن هنا جاء اسم هذه السلسلة الجبلية. وأخيرا بلغ صقلية حيث ألقى عليه زيوس جبل إتنا كله. وما يزال هذا الجبل يقذف بالحمم التي انصبت على رأس التنين.

وأما آخر معركة خاضها زيوس وآلهة أولمبيوس فكانت ضد العمالقة. وكان العمالقة، كما أشرنا، قد نبتوا من الدم الذي نزف من أورانوس وتسرب إلى رحم جايا بعد أن خصاه ابنه كرونوس. ويظهر العمالقة في الرسوم القديمة في صورة متوحشين لابسين جلود الحيوانات يطيحون بالصخور وجذوع الشجر، أو في صورة مخلوقات ضخمة هائلة نصفها الأسفل كأفاع توائم. ومن المعتقد أنهم ظهروا على سطح الأرض في مكان معين، وهو فليجرا أي السهول الملتهبة، أو في پالليني بجنوب مقدونيا، وبينهما وقفت جايا إلى جانب آلهة أولمبيوس في حربهم ضد التيتانيس الجبابرة. فقد وقفت في هذه المرة ضدهم إلى جانب أبنائها الجيجانتيس العمالقة. وقد رُوي أيضا أن وحوش البحر ذوي الأذرع المائة، كبرياريوس وزميليه، قد وقفوا ايضاً إلى جانب العمالقة يشدون من أزرهم. وشاع أن الآلهة لن يتغلبوا على العمالقة إلا بمساعدة الإنس أو بالأحرى بمساعدة إلاهين ينحدران من صلب نساء آدميات.

ولم ينصر زيوس إخوته وأخواته فحسب، بل نصره أيضاً أبناؤه، ومن بينهم اثنان أنجبتهما له زوجتان من البشر. وهذان البطلان الإلهيان، ديونيسوس وهيراكليس، هما اللذان رجحا كفة الآلهة على العمالقة في

القتال. ولقد كان في وسع العمالقة أن يسلموا من الهزيمة لو أنهم عثروا على عشب سحري معين.

وقد حاولت جايا أن تجده لهم. غير أن زيوس منع الفجر من الطلوع ومنع الشمس والقمر من الظهور حتى وجد العشب السحري بنفسه. وقد حفلت هذه المعركة، التي شغف بها الشعراء والرسامون، بالحيل والخطط الكثيرة.

وكان بين العمالقة واحد لا سبيل إلى قهره طالما كان مقيما في موطنه. هذا العملاق حمله هيراكليس، بعد أن جرحه بسهمه، عبر حدود باللليني، إلى مكان بعيد حيث هلك. وهاجم عملاق كلا من هيرا وهيراكليس في وقت واحد، فأشعل زيوس في صدره نار الشهوة فانقض على الربة يمزق ثيابها، وعندئذ أنزل زيوس عليه صاعقته وصوب إليه هيراكليس سهمه. وعملاق آخر فقأ أبوللون عينه اليسرى بسهمه، وفقأ هيراكليس اليمنى بنفس السلاح، وأما بلاس فقد انتزع جلد عملاق يحمل نفس اسمه، واستخدمه كدرع يتقي به الضربات. وأما الربة آثينه ففعلت بعملاق ما فعله أبوها من قبل بالتنين تيفون.

وبذلك تم انتصار زيوس وآلهة أولمبيوس، لكن حدث بعد سقوط الجبابرة والعمالقة أن احتدم النزاع بين الآلهة والبشر الذين تبنى بروميثيوس قضيتهم ضد زيوس رب الأرباب.



زواج «زيوس» من «هيرا»

هيرا

ومعناه باليونانية - السيدة وقد جعل الإغريق منها أختا لزيوس وزوجة شرعية، فحلت بذلك مكان ديوني، أقدم مكان لعبادة زيوس على ما يرجح. ويبدو أن أرجوس كانت أقدم بلد عبدت فيه هيرا حتى أنها لقبت بالأرجية. كما عبدت أيضاً في ساموس منذ زمن مبكر، وإن زعم أهل أركاديا أنها نشأت في بلادهم.

وقد اشتهرت هيرا بعداوتها لطروادة والطرواديين، من بينهم أينياس، بطل ملحمة فرجيل، وبمناصرتها ياسون، بطل ملاحي السفينة «أرجو» التي أبحرت إلى كولخيس لاسترداد الفروة الذهبية. ولكن كراهيتها للطرواديين ترجع إلى القصة المشهورة باسم «قضاء باريس» التى قيل إنها السبب الأصلي للحرب الطروادية. لأن باريس بن برياموس ملك طروادة، حكم «بالتفاحة الذهبية» لأفروديتي دون أثينة وهيرا، مثيرا على بلده غضب كبير الآلهة.

وتظهر هيرا في أغلب الأساطير في صورة الرقيبة على حركات زيوس وسكناته. ذلك أن زيوس كبير الآلهة لم يكن على جلال قدره زوجا مخلصا، فكان يتحايل بشتى الطرق للاتصال بغيرها من الآلهات وغير الآلهات. ولذلك انحصر جهد هيرا في تعقبه لكشف خدعه والإيقاع به والانتقام من عشيقاته مهما انتحلن من أعذار لتبرير مسلكهن. وليت الأمر وقف عند هذا الحد. فقد كان زيوس مزواجاً، الأمر الذي أثار الغيرة الشديدة في قلب زوجته، فأنفقت معظم وقتها في الكيد لزوجاته الأخريات وأبنائهن منه. بل إن هيرا كانت تغار حتى من الأبناء الذين أنجبهم زيوس دون الاتصال بغيرها من الآلهات. حدث ذلك مثلا عندما أنجب زيوس

أثينة من رأسه على نحو ماروينا. فقد حقدت عليه هيرا لأنه أنجب أثينة دون الاتصال بها، وهي زوجته الشرعية. واستبد بها الغضب فسعت هي الأخرى إلى انجاب الأبناء دون معاونته، وإن لم تحاول أبدا تدنيس فراش الزوجية، فقد كانت ربة الزواج المقدس، وبخاصة الزواج من امرأة واحدة. فلما بلغ هيرا نبأ ميلاد أثينة العجيب، صاحت في مجمع الآلهة غاضبة: «أنصتوا إليَّ، أيها الآلهة وأيتها الآلهات جميعاً. وانظروا كيف يجلب لي زيوس العار والمهانة، وهو أول من يفعل هذا العمل المشين بعد أن صرت زوجته. لقد أنجب وحده أثينة التي هي قرة عين الآلهة الخالدين، بينما ابني هيفايستوس الذي أنجبته، ولد مشوها ضئيلا فأصبح وصمة في جبين أولمبيوس. ولا أخفي عليكم أنني ألقيت به في البحر. ولكن ثيتس، ابنة تريوس، تلقفته وعنيت به هي وأخواتها، وليتها أدت لنا خدمة أخرى! أي زيوس، أيها الوحش المخادع، كيف أجترأت على أن تلد أثينة؟ أوَلَمْ يكن في وسعي أن أنجب لك طفلاً؟ أوَلَسْتُ أنا زوجتك؟ إني سأعمل من الآن على أن أنجب ابنا ليكون درة بين الآلهة. وسأفعل ذلك دون أن أدنس فراشك أو فراشي ولكني لن أتصل بك. لسوف أهجرك».

وانتبذت هيرا مكانا قصيا عن سائر الآلهة، ثم ابتهلت ضاربة الأرض براحة يدها قائلة: «أي جايا وأوارنوس (الأرض والسماء) استمعا إليَّ من عليائكما. وأنتم أيها التيتانيس الجبابرة، استمعوا إليَّ، يا من تسكنون تحت الأرض في تاتاروس، أنتم يا أجداد الآلهة والناس، أعيروني آذانكم جميعاً، وهبوني ابنا لا يكون أضعف من زيوس نفسه. وكما كان زيوس أشد بأسا من أبيه كرونوس، اجعلوا ابني أشد بأسا منه». وضربت الأرض بيدها القوية، فسرت رعدة في أوصال جايا، مصدر الحياة، وانشرح قلب هيرا لأنها أدركت أن جايا استجابت لها وحققت أمنيتها. ومنذ ذلك الحين لم تضاجع هيرا زيوس عاما بأكمله، ولم تجلس إلى جانبه حيث اعتادت أن تجلس وتشاوره الأمر. وأقامت هيرا في المعابد تستمتع بما يقدم لها من

قرابين. وبعد أن مر عام جاءها المخاض فولدت مخلوقا لا يشبه الآلهة أو الناس، وكان هذا المخلوق هو تيفان، التنين الرهيب الذي كان وبالا على البشر. وحملته هيرا إلى دلفي حيث عهدت به إلى التنينة بيثون، تلك الأفعى الهائلة التي صرعها أبوللون بسهمه الذي لا يطيش.

ولعل قصص التشاحن المستمر بين الزوجين الإلهيين هي صدى ذكريات خافتة عن الوقت الذي لم يكن التوفيق قد تم بين عبادتيهما. وعلى أي حال فقد اشتهرت هيرا دائماً بأنها حافظت على رباط الزواج المقدس كما عرفت أيضاً، كأرتميس وهكاتي وابنتها إيليثيا، بمساعدة النساء عند الوضع، وبحضانة الاطفال وتربيتهم، لقد كانت هيرا ربة للنساء وربة للزواج وبخاصة في شؤون حياتهن الجنسية. فلقد لقبت في بلدة مثل استيمفالوس في إقليم أركاديا بالفتاة والزوج والأرمل، فإن هذا لا يعني - كما أسلفنا - سوى أن النساء جميعاً، على اختلاف أوضاعهن، كن يتهلن إليها ويسألنها العون في ساعة الشدة.

وثمة قصة أخرى عن هيرا. فقد أحست هيرا بالخزي من ابنها هيفايستوس الذي ولد قبل الأوان فجاء مشوهاً قبيحاً، ولذلك نبذته منكرة أنها أمه. وأثار ذلك حقده الدفين عليها. وقد وكلت إلى هيفايستوس بوصفه أمهر الصناع، صناعة عروش الأرباب. ولم يلبث أن أرسل عرشا جميلاً إلى هيرا، واغتبطت هيرا بالهدية وجلست على العرش ولكنها سرعان ما وجدت نفسها مقيدة بسلاسل خفية. ولم يلبث العرش نفسه أن ارتفع بها وهي مصفدة عليه بالأغلال في أعلى الفضاء. ولم يستطع أحد أن يفك إسارها، فساد الذعر بين الآلهة. وقد أدركوا جميعا أن الحيلة من صنع هيفايستوس فبعثوا إليه برسالة يرجونه فيها ضرورة الحضور لإطلاق سراح أمه. ولكنه أجابهم في عناد بإنه ليس له أم. وانعقد مجلس الآلهة وخيم الصمت على الجميع، ولم يدروا كيف يحملون هيفايستوس على الحضور إلى أولمبيوس. وانبرى أريس، رب الحرب، ليضطلع بالمهمة.

غير أنه ارتد على أعقابه خاسرا، بعد معركة عنيفة بالمزاريق والحراب، أمام اللهب الذي قذفه به رب النار والبراكين، وعاد بخُفَّيْ حنين منهزما محسورا. ولكن ديونيسوس، إله النبيذ، وابن زيوس وسميلي هو الذي استطاع أن يحضر هيفايستوس إلى منزل الآلهة، فقد احتال عليه بأن قدم له نبيذا أثمله وأفقده وعيه. وعندئذ أركبه ديونيسوس بغلا ورافقه إلى أولمبيوس كأنه يسوقه في موكب من مواكب النصر. ولا مراء في أن الآلهة قد ضجوا بالضحك عندما شاهدوا الصانع الماهر وهو يترنح مخموراً. ولكنه لم يكن ثملا إلى الحد الذي جعله يطلق سراح أمه دون مقابل. فقد أصر أن يحظى بأفروديتي زوجة له، أو بربة أخرى. غير أن هيفايستوس الأعرج لم ينل أبداً الحظوة لدى الإلهات. وعلى أي حال فقد أخلى سبيل هيرا بعد تحطيم الأغلال.





هرميس
(اللص الصغير)

هرميس هو ابن الاله زيوس رب الأرباب، وقد أنجبه من حورية جميلة تدعى مايا. وكان إلها رشيق الحركة، سريع الخطى، تعينه على الطيران أجنحة في نعليه، وفوق قبعته العريضة وحول عصاه السحرية. ولذلك اشتهر هرميس بأنه رسول الآلهة ورسول زيوس بالذات الذي كان يوكل إليه بالمهمة فينجزها على أسرع وجه، إن لم يكن في لمح البصر. وكان هرميس أكثر الآلهة فطنة ودهاء ومكراً. وليس ثمة تَجَنٍّ إن وصفناه بالرياء والخداع والخبث. وإذا شئت الحق، فقد وصف بأنه «اللص الأول» الذي مارس السرقة قبل أن يناهز اليوم الأول من عمره. فقد ولد مع الفجر، ولكنه استطاع أن يسرق بقر أبوللون قبل أن يرخي الليل سدوله. ولما كان اسمه فيما يرجح، مشتقا من كلمة بمعنى كوم الحجارة الذي تتقمصه روح سحرية أو الحجرة الملقاة على جانب الطريق بقصد السحر، فإن تماثيله الدينية كانت تنحت من قديم الزمن على شكل عضو إخصاب منحوت من الحجر أو على شكل عمود من الحجر مستطيل الشكل يعلوه رأس إنسان يتوسطه عضو الإخصاب.

وفي الحق أن الأخير كان رمزاً لهذا الإله الذي كان معنيا بالإخصاب، مما يفسر اقترانه أحيانا بربات لهن دخل بهذا الأمر، مثل أفروديتي، وكان على هرميس بوصفه رسولا للآلهة أن يبلغ رسالته في وضوح أو أن يدافع أحياناً عن وجهة نظر من أرسلوه. ومن ثم نشأ ارتباطه بالخطابة. ولما كان هو الذي ابتدع القيثارة فلم يكن من العسير أن يصبح بمرور الزمن راعيا للآداب. ولا يتضح لنا السبب الذي من أجله اعتبر هرميس في العصر

الكلاسيكي (الذهبي) راعيا للشباب وتدريباتهم الرياضية، أو لِمَ كان هو نفسه يصور في شكل شاب؟ وليس ثمة من تفسير لذلك سوى أن نفترض أن الإخصاب يقترن بالحظ وأن الحظ السعيد أمر لازم للمتبارين في الألعاب، وأن الأخيرة هي ميدان الشباب الذين كانت تدريباتهم الرياضية عنصرا جوهرياً من عناصر التربية في كل الدويلات اليونانية. وثمة وظيفة أخرى كان يمارسها هرميس بوصفه رسولا. فقد كان مرشد الأرواح في طريقها إلى مقرها الأخير في عالم الموتى. وهنا تبرز أهمية عصاه السحرية التي هي أداة لا غناء عنها للساحر الذي يخاطب الأموات، وإن كان بعض الباحثين يفرقون بين هذه العصا الذهبية ذات الأوراق الثلاث التي تمنح الثراء، وبين عصاه كرسول للآلهة والتي يلتف حولها ثعبانان. وكان هرميس فوق ذلك إله التجارة والأسواق والحدود راعيا لعابري السبيل ومرتادي الطرق ومن بينهم اللصوص.

ولقد اكتسب هرميس لقب أمير اللصوص عن جدارة فلم يكد يخرج من بطن أمه حتى بدأ يمل مهده المقدس. فقام من فوره وأخذ يروح ويغدو أمام مدخل الكهف الذي ولد فيه باحثا عن قطيع من البقر كان يملكه أخوه أبوللون. وقد التقى عند خروجه من الكهف بسلحفاة تجر قدميها في بطء شديد، فرحب بها قائلا: «كم أنا سعيد برؤيتك أيتها الراقصة الجميلة! لقد أتيت في الوقت المناسب. لكن هل لك أن تخبريني من أين لك هذه الدمية اللطيفة، تلك الصدفة البراقة التي تقي ظهرك وأنت من سكان الجبال؟ لسوف آخذك إلى بيتي لأنتفع بك». وحمل هرميس السلحفاة إلى داخل الكهف وقطعها بيديه وصنع من صدفها قيثارة. وقد فعل ذلك بأن ربط الصدفة إلى بوصتين وشدها كلها بأوتار جلدية من أحشاء الغنم، وشرع يعزف عليها عزفا جميلا بلغ مسامع الآلهة. وقد تغنى بزيوس وأمه مايا منشدا قصة غرامهما مشيدا بمولده.

غير أن هرميس سرح بفكره إلى شيء آخر. فقد هفت نفسه إلى اللحم،

ولذلك ألقى بالقيثارة في المهد وغادر الكهف وأخذ يجول خفية باحثاً عن فريسة مثلما يفعل اللصوص تحت جنح الظلام. وكان هليوس يهبط من السماء بعربته ذات الجياد فأذنت الشمس بالمغيب عندما وصل هرميس إلى بيريا على مقربة من الجبل الظليل حيث كانت ترعى أيضاً قطعان لأرباب وسط الأعشاب النضرة أو تقبع في حظائرها الفسيحة.

وسرق هرميس خمسين بقرة من القطيع وساقها معكوسة الوضع، بحيث كانت حوافرها الأمامية إلى الخلف وحوافرها الخلفية إلى الإمام. ودفع هرميس بغنيمته إلى أرض رملية. وقد ابتكر لنفسه نعلين كبيرين ليس في وسع غيره أن يبتكر مثلهما، قد صنعهما من أغصان الشجر، وربطهما في أسفل قدميه. وغادر المكان على عجل لأنه كان لايزال أمامه طريق طويل. وشاء سوء حظه أن يراه رجل عجوز كان يفلح بستان كرومه في بوياتيا بالقرب من أونخيستوس بعد أن قطع النصف من رحلته. وقال هرميس: «أيها العجوز، لسوف يأتيك محصول وفير من العنب، لكن عليك أن تلزم الصمت، وكأنك لم تر ما رأيت ولم تسمع ما سمعت! وإني لأنذرك بسوء العاقبة إن نبست ببنت شفة!».

وحث هرميس الماشية على السير فوق الجبال والوديان والمروج الزاهرة، وانقضى الليل، حليف اللصوص. ولاحت تباشير الفجر. وجدَّ الإله في السير طوال النهار. وعندما ظهرت سيلينى، ابنة بلاس، ربة القمر، في كبد السماء، كان هرميس قد بلغ ضفاف نهر الفيوس، أكبر أنهار البلوبونيز، ودفع هرميس بماشية أبوللون المسروقة إلى فناء الكهف حيث أخذت تأكل من الأعشاب الهشة الناعمة. وجمع الإله خشبا من أشجار الغار وأضرم نارا هائلة في حفرة فبدت كأنها أتون يتصاعد منه لهب مستعر. وأحضر بقرتين وطرحهما أرضا، ثم كسر عظمهما وقطع اللحم والشحم وشواهما جميعاً على أسياخ خشبية، وأما الجلد فوضعه على صخرة ليجف في الشمس. ثم قطع اللحم إلى اثنتي عشرة قطعة لآلهة أوليمبيوس الاثني

عشر، محتفظاً بقطعة لنفسه. وإذا كانت نفس أحد الآلهة قد هفت إلى لحم القرابين وسال لعابه عندما شم رائحتها الشهية، فقد قاوم شهوته ولم يضع أي قطعة من اللحم في فمه لأن الآلهة التي تقدم لهم القرابين لا يأكلون في الواقع من لحم الاضاحي. وكدس هرميس اللحم في فناء الكهف كنصب تذكاري لأول سرقة من سرقاته.

ولما فرغ الإله من عمله ألقى بنعليه في النهر وأطفأ النار وذر الرماد الاسود في الهواء. ومضت ليلة ثم مضت أخرى وهرميس ما يزال متغيباً عن بيته. وأخيرا عاد مع الصباح المبكر إلى جبل كيلليني ولم يقابله أحد في رحلته الطويلة، لا إله ولا بشر ولم ينبح في وجهه كلب. وتسلل هرميس إلى الكهف من ثقب باب كما تتسلل منها نسمة من نسائم الخريف. ودلف في خفة دون أن يشعر به أحد، واستلقى على مهده وجذب قماطة حول كتفيه. وبدأ يلهو كالطفل الرضيع بالملاءة التي تحيط بردفيه. وتناول واضعاً قيثارته تحت ذراعه اليسرى. غير أن أمه، الربة مايا، رأت كل شيء، وقالت لابنها الإله: «من أين جئت، أيها الولد الماكر، وأين كنت تمضي الليل، أيها اللعين؟ لشد ما أخشى من أن يجرك أبوللون بن ليتو عبر هذا الباب بعد أن يقيد جسمك بالأغلال. أتريد أن تنفق حياتك، كما يفعل اللصوص، قابعاً في الشقوق؟ فلتعد إلى حيث كنت! وكأن أباك لم ينجبك إلا لتثير المتاعب في وجه الآلهة والناس». وأجاب هرميس: «لماذا، يا أماه، توجهين إليَّ هذا الكلام القارص كأنك تخاطبين طفلا لا يعرف عن الشر إلا القليل، وترتعد فرائصه عندما تؤنبه أمه؟ أما أنا فقد اخترت هذه الحرفة الماهرة التي ستكفل لي ولك أوفر الرزق. أتريدين أن نجلس بين الآلهة دون هدايا ودون صلوات، كما هو شأنك؟ إنني أعتزم أن أحظى بنفس التوقير ونفس التقديس الذي يحظى به أبوللون. فإذا لم يُعطنيه أبي، فلن تعوزني الجرأة لكي أصبح أميرا للصوص. ولئن طاردني ابن ليتو لأنزلن به ضرراً أفدح من سابقه. فلسوف أذهب إلى بيثو وأسرق منزله الذي

يزخر بالمقاعد المثلثة القوائم والأحواض والذهب والحديد ومختلف الثياب. ولسوف ترين، إن شئت، ما سوف أفعله».

وعندما انبلج الصباح من أوقيانوس، كان أبوللون قد بلغ أونخيستوس ودخل غابة بوسيدون المقدسة. وهناك التقى بالرجل العجوز الذي كان يفلح بستان الكروم على جانب الطريق. وبادره أبوللون بالسؤال عن بقراته ذوات القرون المغضنة، لأن اللص لم يترك له سوى الثور والكلاب، سارقا جميع البقر. وسأل أبوللون الرجل العجوز إن كان قد رأى أحدا يسوق ماشيته. فأجاب العجوز: «يا صاحبي، أنه لمن العسير أن يتذكر المرء كل ما تراه عيناه. فكثير من الناس يمرون بهذا الطريق، وبعضهم طيب وبعضهم الآخر خبيث. فكيف يستطيع المرء أن يحكم عليهم جميعا. وفضلا عن ذلك فإنني كنت هنا في بستاني طيلة النهار حتى مغيب الشمس. غير أنه يبدو لي أنني رأيت غلاما صغيرا - وإن لم أكن متيقنا - رأيته يمر ومعه قطيع من البقر وكان ممسكا في يده بعصا. وكان يسير خلف القطيع متلفتاً وراءه في حذر». فلما سمع أبوللون هذا الكلام أسرع الخطى، وما لبث أن رأى طائراً باسطا جناحيه فأدرك على الفور أن السارق هو أحد أبناء زيوس. وفي وثبة واحدة بلغ بيلوس مدثرا في رداء من الضباب الأسود. ورأى أبوللون بعينيه أثر الأقدام، فقال لنفسه: «إنه لأمر غريب، فهذه أقدام ماشية، ولكنه يسير في الاتجاه المضاد الذي ينتهي عند مرج الزنبق. غير أنه ليس أثرا لأقدام رجل أو أمرأة أو ذئاب أو دببة أو أسود. ومن المستحيل أن تترك قدما الكنتاوروس نفسه مثل هذا الأثر الضخم. إنه لأمر غريب يزيد من حيرتي».

وهرع أبوللون إلى جبل كيلليني على مقربة من المخبأ الصخري الذي ولدت فيه الحورية الخالدة مايا ابنها هرميس من الإله زيوس. واقتحم الكهف وهو يتلفت يمنة ويسرة. فلما رأى هرميس الشرر يتطاير من عين أبوللون أخفى نفسه في قماطة مثلما تختفي جذوة من النار تحت الرماد،

وانكمش واضعا رأسه بين ساقيه كمن يلتمس الدفء بعد الاستحمام أو من يداعب الكرى عينيه. لكن هرميس كان يقظان متنبها وقيثارته تحت إبطه. وأجال أبوللون بصره في جميع أركان الكهف، وفتح بمفتاحه المعدني ثلاث حجرات خفية كلها مليئة بالنكتار والأمبروسيا، وتفيض بالذهب والفضة والثياب القرمزية والأرجوانية الزاهية، كتلك الثياب التي تزخر بها منازل الآلهة المباركين، وبعد أن نقب أبوللون في كل أركان الكهف، التفت إلى هرميس قائلا: «أيها الطفل هنالك، أنت يا من تسترخي في المهد! قل لي بربك أين البقرات؟ ولخير لك أن تبادر بالرد، وإلا فإننا لن نفترق في سلام، وألقي بك في ظلام ترتاروس الحالك الذي لا خلاص منه». عندئذ أجاب هرميس في خبث: «أي كلمات نابية هذه التي تتفوه بها يا ابن ليتو؟ أي بقرات هذه التي تبحث عنها؟ إنني لم أر شيئاً منها ولم أسمع عنها أبداً. وليس لدي أي معلومات أدلي بها أليك فأفوز بمكافاة المخبرين أو الوشاة، أو أبدو كرجل قوى يستطيع أن يسرق البقر؟ إن هذا ليس عملي، بل هو أبعد ما يكون عن عملي. إن عملي هو النوم والرضاعة من ثدي أمي والاستلقاء بين لفائفي أو في حمام دافئ. ألا فلتحذر إذن أن يعلم أحد سبب غضبك عليَّ وتعنيفك إياي! لسوف يذهل الناس عندما يقال لهم إن طفلا حديث الولادة ترك مهده وخرج ليبحث عن البقر! لقد ولدت يا أبوللون، بالأمس فقط، وما تزال قدماي ناعمتين بينما الأرض خشنة. لكن إذا شئت، فإني أقسم لك برأس أبي أنني غير مذنب، ولم أر أي شخص آخر يسرق بقراتك. فهذه أول مرة أسمع فيها عن هذه البقرات».

وابتسم أبوللون وقال: «أي طفلي المدلل، أنت ماكر مخادع تتكلم كما يتكلم لص عريق! كم سيعاني منك الرعاة في الجبال عندما تهفو نفسك إلى اللحم فتنقضُّ على قطعانهم. لكن إذا أردت أن لا يكون نومك هو الأخير، فلتهب من فراشك يا رفيق الليل الحالك! ولسوف تشتهر أبداً بين الآلهة بأنك أمير اللصوص».

وأمسك به أبوللون يهم بحمله بين ذراعيه، ولكن الطفل احتال عليه حتى أخلى سبيله، ثم وثب وثبة قوية وأخذ يعدو أمامه ملوحاً بيديه ونادباً حظه ولاعناً كل البقر، ولم يكف عن الصياح مؤكدا براءته ومحذرا أبوللون من غضب زيوس.

وانتقل الأخوان إلى أولمبيوس ليعرض كل منهما شكواه على أبيهما رب الأرباب. وقد عامل زيوس هرميس معاملة الغريب، فسأل أبوللون أين وجد ذلك الطفل اللطيف الذي يشبه الرسل، وسأله إن كان من اللائق أن يطرح مثل هذا النزاع على مجلس الآلهة. وعندئذ روى أبوللون لأبيه أعمال اللص الصغير وكيف سرق منه بقراته وضلَّله بلبس النعلين الضخمين في قدميه، وكيف ضبطه آخر الأمر في أحلك ركن من الكهف المظلم حيث لا يستطيع النسر نفسه أن يراه. واستطرد يروي لكبير الآلهة سلسلة أكاذيب أخيه.

عندئذ مد هرميس أصبعه نحو زيوس وقال: «أي زيوس الأب، لسوف أقول لك الحق لأنني صادق ولا استطيع أن أكذب. لقد أتى أبوللون إلى بيتنا في فجر هذا الصباح يبحث عن بقراته ولم يحضر معه شهودا شاهدوا ما حدث حتى يستطيعوا الإدلاء بأقوالهم أمام الآلهة. وقد حاول أن يرغمني بالقوة على الاعتراف، وهدد بإلقائي في ترتاروس لأنه فتى قوي في أوج شبابه، في حين أنني وليد الأمس فقط، كما يعلم هو نفسه. ولا مراء في أن أبي سوف يصدق كلامي، فأنا أعلم سوء العاقبة إن لم أقل الصدق. وإني لأخجل من الكذب في حضرة هليوس، إله الشمس، وسائر الآلهة. ولقد أقسمت مرة من قبلُ برأس زيوس، ولكن في هذه المرة أقسم بين يدي زيوس عند مدخل قصر الآلهة الخالدين، وجدير بزيوس أن ينصر الصغار المستضعفين».

أغرق زيوس بالضحك وناشد الأخوين التصافي والوئام، وأمر هرميس أن يدل أخاه على المكان الذي أخفى فيه البقر. وعندما تكلم زيوس أوماً

إليه برأسه تلك الإيماءة التي لا يستطيع أن يعصاها هرميس نفسه أو غيره من الآلهة. وأسرع الأخوان الخطى إلى بيلوس حيث أخرج هرميس البقر من الحظيرة التي أخفاها في كهف بجوار نهر الفيوس بأركاديا.

شاهد أبوللون من بعيد جلود بقراته مطروحة على الصخرة الضخمة. وتعجب من قوه أخيه الطفل الذي استطاع أن يطرح اثنتين منها أرضا وينحرهما بيديه. وقد أنجز هرميس عملا عجيبا آخر: فعندما حاول أبوللون أن يوثقه والبقر بالعساليج، جعل هرميس جذور العساليج تنغرس ثانية في الأرض ثم تنمو فوق البقرات من جديد بحيث تعذر عليها الحراك. ولكنه هدأ من ثائرة أخيه بلحن القيثاره الشجي، فانشرح صدر أبوللون وضحك ضحكة عالية. فقد نفذ النغم العجيب إلى فؤاده ومس شغاف قلبه واستبد به الشوق إلى سماعه بكل جوارحه. ووقف هرميس يعزف بقيثارته ويغني بصوت رخيم مترنما بالإلهة الخالدين وفي مقدمتهم منيموسينى، ربة الذكرى أو الذاكرة، ولم يعد في وسع أبوللون مقاومة رغبته في اقتناء القيثارة. ولم ينكر أن هذه الآله الموسيقية تعدل بقراته الخمسين، وهنأ أخاه على ابتكارها. وقد أعجبه فيها أن نغمها الذي يبعث البهجة في النفس، ويثير الحب في القلب وُيغري العين بالنوم. وقال لأخيه هرميس إنه كان إلى اليوم رفيقاً لربات الفنون، ولكنه سيحرز منذ الآن الشهرة من الآلهة. واضاف بإنه مستعد لأن يعده بأي شيء في مقابل القيثارة. واستجاب له أخوه فأعطاه إيَّاها.

وتلقى هرميس من أبوللون أول هدية وهي عصاه، ثم مركزه كراع للماشية له مكانته. وبديهي أن يُقسِم لاخيه أنه لن يسرق منه القيثارة أو القوس. عندئذ أعطاه أبوللون هدية أخرى وهي تلك العصا التي تمنح حاملها الثروة، وهي غير عصا هرميس المشهورة التي كان يحملها بوصفه رسولا يلتف حولها ثعبانان، وكان الشيء الوحيد الذي لم يستطع أبوللون أن يتنازل عنه لأخيه الصغير، هو المقدرة على التنبؤ أو العرافة لأن أبوللون

هو الذي كان وحده يعلم الغيب ويعرف مشيئة زيوس. ولكنه تنازل له عن سيطرته على الوحش، وبوأه منصب «مرشد الأرواح» على الطريق المؤدي إلى قصر هاديس.

وقد سبق أن ذكرنا كيف كانت تماثيل هرميس الدينية تصنع في شكل عضو إخصاب منحوت من الحجر أو في صورة عمود حجري مستطيل له رأس إنسان وفي منتصفه عضو تذكير. هذا الشكل من تماثيله نشأ أول ما نشأ في إقليم ثساليا حيث تقع بحيرة بويبس التي سلفت الإشارة إليها عند الكلام عن مولد اسكليبيوس ابن أبوللون. وقد أصبحت شواطئ هذه البحيرة مسرحاً لقصة حب كان هرميس أحد طرفيها. ويختلف الرواة فيمن كان الطرف الآخر. فمن قائل إنها كانت برسيفوني، ربة عالم الموتى أو بريمو أي الربة القوية، أو أرتميس نفسها، ربة الصيد العذراء.

غير أن الرواية الرائجة تقول إن هذه الربة التي اتصل بها هرميس كانت أفروديتي نفسها، ربة الحب والجمال وكان هرميس وأفروديتي، وفقاً لهذه القصة، أخوين أنجبهما أورانوس، رب سماء الليل، من هيمرا ربة ضوء النهار. ولا بد من أنهما كانا توأمين لأن عيد ميلادهما واحد، وهو اليوم الرابع من الشهر القمري. وقد أنجب هرميس وأفروديتي ابنا يدعى إيروس، أو لعله ابن يدعى باسم آخر. وعلى أي حال فإن أفروديتي عهدت بابنها هذا إلى حوريات جبل «إيدا» بجزيرة كريت حيث نما وترعرع في أحد الكهوف، وكان الابن الجميل يحمل الكثير من سمات أبويه وملامحهما. فلما بلغ الخامسة عشرة من عمره غادر موطنه الجبلي وطاف في جميع أنحاء آسيا الصغرى حيث أعجب بالأنهار والينابيع والعيون التي صادفها في طريقه. وأخيرا بلغ إقليم أركاديا حيث نزل على مقربة من ينبوع الحورية سلماكيس. ولم تكن سلماكيس إحدى رفيقات أرتميس، لأنها لم تهو الصيد أبداً، بل كانت تقضي الوقت في تصفيف شعرها والنظر في الماء إعجابا بصورة وجهها المنعكسة على صفحته. وعندما رأت الغلام الجميل - الذي لا

يستبعد أنه كان إيروس - تدلهت في حبه، ولكنها لم تستطع إغواءه. لكن الفتى الوسيم، وإن كان قد قابلها بالصد والإعراض وقاوم إغراءها، فإنه لم يستطع مقاومة إغراء الماء. ولم يلبث أن قذف بنفسه في الينبوع. عندئذ أقبلت عليه سلماكيس واحتضنته وحققت الإلاهة رغبتها فيه، واتحدت الحورية اتحاداً تاما مع هرميس وأفروديتي، وأصبحت ذلك الابن الذي عرف باسم هرمافروديتوس، أي أصحبت غلاما أنثى، وإن لم يفقد كل رجولته مثلما فقدها آتيس. ومن المؤكد أن هذه الرواية ليست قديمة، لكن ينبغي أن نتذكر أن أفروديتي نفسها عبدت في أماثوس بجزيرة قبرص باسم أفروديتوس. وهكذا نجد أيضاً في تلك الجزيرة هذا الاتحاد بين الذكر والأنثى في كائن واحد، وهو ما حققته الحورية سلماكيس، وما نعبر عنه اليوم بكلمة الجنس الثالث.



تمثال .هيرميس.

بوسيدون
(اله البحر)

وأما بوسيدون فهو كما يبدو يوناني النشأة، وكان في أول الأمر، ربا للزلازل والماء لأن الإغريق وفدوا أصلا من منطقة مائية، ولكنه أصبح فيما بعد إلها للبحر. وبديهي أنه كان على جانب كبير من الأهمية في نظر شعب كالإغريق يعيشون على البحر وترتبط حياتهم به كل الارتباط. وفي الحق أن بوسيدون كان يلي زيوس مباشرة في جلال القدر والرفعة. وقد اختلف الباحثون في تفسير اسمه. إذ يرى فريق منهم أن المقطعين الأولين منه يتضمنان معنى الشراب أو الماء. ولعل لقب «مزلزل الأرض» - وهو من أهم القاب هذا الإله - يرمز إلى فكرة بدائية قديمة نشأت لتعليل ظاهرة الزلازل الطبيعية، وهي تتجاوب والنظرية القائلة بأن للماء دخلا بالهزات الأرضية.

تقول الأساطير إن بوسيدون كان أحد أبناء كرونوس الثلاثة، أي كان شقيقاً لزيوس وهاديس. ويقترن مولد هذا الإله بحيوانين هما الكبش والحصان. وقد ظهرت الآلهة في بلاد اليونان، وفي غيرها من أقطار البحر المتوسط، في صورة الكبش قبل أن تظهر في صورة الحصان بحقبة طويلة. ويروى أن رهيا أخفت بوسيدون بعد ولادته بين قطيع من الخراف عند ينبوع يسمى أرني، أي ينبوع الخراف، وأنها خدعت أباه كرونوس الذي أراد أن يلتهم الطفل الرضيع - كما فعل بسائر إخوته - بإعطائه جواداً صغيرا - مهرا بدلاً منه مثلما خدعته من قبل بإعطائه حجرا التهمه بدلاً من الطفل زيوس. وفي رواية أخرى أن حورية الينبوع التي عهدت إليها رهيا بالطفل بوسيدون لتقوم بحضانته كانت تحمل اسما مختلفا في ذلك الحين، ولم تكتسب اسم

أرني إلا بعد ما طالبها كرونوس برد ابنه إليه فأنكرت وجوده. فكأن الاسم لا صلة له بالخراف، بل مشتق من فعل متشابه النطق، بمعنى الإنكار. غير أن هذه الرواية فضلا عن أنها متأخرة لا يمكن أن تكون حقيقية.

وثمة أسطورة أخرى يتزوج فيها بوسيدون وهو في صورة الكبش. فقد هام بثيوفاني، وهي ابنة ملك لمقدونيا تنحدر من صلب الشمس والأرض. وكانت فتاة رائعة الحسن فاتنه الجمال تهافت الشبان عليها وتنافسوا في طلب يدها. ولكن بوسيدون اختطفها إلى جزيرة تعرف باسم «جزيرة الكبش». وعلى أي حال فإن القصة تمضي قائلة إن بوسيدون مسخ عروسه نعجة ومسخ نفسه كبشاً، وكذلك فعل بسائر سكان الجزيرة. فلما تعقب الخطاب أثرهما استعصت عليهم معرفتها.

وأتم بوسيدون زواجه من ثيوفاني وأنجب منها كبشا، وهو نفس الكبش الذي حمل فريكسوس إلى كولخيس، وأدى إلى قيام ملاحي السفينة «أرجو» برحلتهم المشهورة لاسترداد فروته الذهبية. وفي رواية أخرى أن رهيا نقلت طفلها الرضيع بوسيدون إلى مكان أمين عند قوم من الصناع المهره يدعون بالتلخينيس وهم سكان جزيرة رودس في العالم الآخر (السفلي). وكانوا سحرة أشرارا يحرصون على أسرار صناعتهم كل الحرص، وقد صنعوا أول تماثيل للآلهة، وصحبوا رهيا إلى كريت حيث ساهموا في تربية زيوس الطفل. غير أنهم اشتهروا كمربين لبوسيدون. وقد عاونتهم في ذلك المرضع كافيرا، ابنة أوقيانوس. وكان التلخينيس هم الذين صنعوا لبوسيدون حربةً مثلثة الشعاب، التي كان يهز بها ما يشاء ويحطم ما يشاء.

وقد ورد في هذه القصة ذكر لأخت لهم تدعى هاليا أي ساكنة البحر. فلما اكتملت رجولة بوسيدون وقع في حب هاليا وأنجب منها ستة أبناء، وابنة تدعى رودس، وهي التي سميت باسمها الجزيرة المعروفة. وقد حدث ذلك عندما انبثق العمالقة في الجزء الشرقي من الجزيرة وفرغ زيوس

من القضاء على التيتانيس. وكانت أفروديتي قد نبتت هي الأخرى من زبد الموج على مقربة من كيثيرا، واتخذت طريقها إلى قبرص. غير أن أبناء بوسيدون بما جبلوا عليه من قحة وتجبر، منعوها من النزول بالجزيرة. ولذلك اقتصت الربة منهم فأصابتهم بجنون زين لهم أن يضاجعوا أمهم. ولم يقترفوا هذا المنكر فقط بل عاثوا في الجزيرة فسادا وأرهقوا سكانها بأفعالهم المشينة. فلما نمى ذلك إلى علم بوسيدون انتقم من أبنائه لما ألحقوه بأمهم من وصمة وما ارتكبوه من إثم، فواراهم في باطن الأرض إلى الأبد حيث عرفوا منذ ذلك الحين «بأرواح الشرق». وأما هاليا فقد ألقت بنفسها في البحر وعرفت بعدئذ باسم ليوكوثيا أي «الربة البيضاء»، وعبدها سكان الجزر بوصفها ربة خالدة. وجدير بالذكر أن ابنتها رودس هي نفسها رودي، التي قيل إنها ابنة أفروديتي أو أمفيتريتي.

ولبوسيدون مغامرة مع ديميتيرا. لقد كان الاسم دا – اسما قديما للربة جا أو جايا. ومن المحتمل أن ديميتير أو داميتيرا اكتسبت هذا الاسم بوصفها ربة الأرض، وبهذه الصفة تزوجت بوسيدون. لقد جمع بين الإلهين ارتباطهما بالمزارع أو بالأحرى ارتباطهما بالعوامل التي تنظم شكلا معينا من أشكال الحياة الزراعية، فاقترنت ديميترا بالقمح، بينما اقترن بوسيدون بالحصان منذ دخلت تربية الخيول بلاد اليونان. وعندما ارتبطت دميتيرا مع زيوس برباط الزوجية، كانت في حقيقة الأمر صورة أخرى أو صنوّا لرهيا، الربة وكأنها الأم، فكأنها عندما أنجبت برسيفوني أنجبتها من ابنها نفسه، وكأنها تمخضت عن ذات نفسها من جديد وهو سر ديني لم يصل منه إلى مسامع الناس، ولكنها عندما ارتبطت ببوسيدون إذ تزوجته بوصفها «الأرض» التي تنبت الزرع والحيوان، فكان في وسعها أن تتحول شكل سنبلة من القمح أو فرسٍ من الفراس. ولقد رُوي أن بوسيدون عندما شرع يطارد ديميتيرا ويطارحها الغرام، كانت الربة مشغوله عنه بالبحث عن ابنتها برسيفوني التي اختطفها بلوتون. لم يسع ديميتيرا إلا أن

تتقمص صورة فرس وتختلط بالخيول التي ترعى في مزرعة أحد الملوك. غير أن حياتها لم تنطل على بوسيدون الذي كشف خدعتها وعاشرها بعد أن تمثل لها في شكل حصان. وقد أثار ذلك حنق ديميترا فتحولت إلى ربة من ربات الغضب. وظلت تحمل هذا الاسم حتى انفثأ غضبها بالاغتسال في نهر لادون، فعرفت باسم ديميتيرا. أي «المغتسلة». وقد أنجبت من بوسيدون ابنة لا ينبغي أن يباح باسمها خارج قاعة الاسرار الدينية. كما أنجبت في الوقت نفسه أريون ذا العرف الأسود، وهو عرف ورثه عن أبيه كما ورد في أقدم الروايات. وقد تزوج بوسيدون أيضاً ميدوسا الجورجون المتوحشة وأصبح عرفه الأسود حينئذ جدائل سوداء. وعند قطع برسيوس رأس ميدوسا، وهو رأس له وجه ربة من ربات الغضب، نبت من عنقها الجواد الشهير بجاسوس، وهو جواد سحري ذو جناحين كان يحمل صاعقة زيوس ويرتبط بمدينة كورنثة كل الارتباط.

وقد تمثلت ديميتيرا – كما رأينا في صورة ابنة لا ينبغي لأحد أن يبوح باسمها. وهنا نقف على طرف من قصص الديانات السرية، التي راجت في بلاد اليونان. كذلك تمثَّل بوسيدون في صورة جواد. ومن أشهر القصص المعروفة قصة الحصان الأول الذي خلقه بوسيدون عندما تنازع وأثينة على ملكية أتيكا؛ فقد انبثق هذا الحصان من أرض أتيكا الصخرية على إثر ضربة من ضربات حربته مثلثة الشعب. وفي رواية أخرى أن الإله غلبه النعاس على صخرة في بلدة كولونوس بأتيكا، فسال ماء لقاحه على الصخرة، فأنبتت الحصان الأول الذي عرف باسم الملتوي أو وليد الصخرة.

كما اقترن بوسيدون بأمفيتريتي، وهي زوجته الشرعية التي أصبح بزواجه منها سيد البحر. على أنه لم يكن لأي إله حُكم البحر من قبله أي صلة بالجياد، فلا برياروس ذو الأذرع المائة، ولا نيريوس أو بروتيوس أو فوركيس، «إله البحر القديم» ظهر في أي صورة أو تحت أي اسم مرتبط بشكل الحصان. وقبل أن يكون هناك كائن كفرس البحر، اعتاد إله في

شكل الثور أن يجر خلفه عربة عبر الأمواج، وقد اتخذ بوسيدون نفسه شكل الثور، وكانت الثيران تنحر قربانا له بعد أن أصبح ربا للبحر. ذلك أن الثور أيضا ظهر على شواطئ البحر المتوسط قبل ظهور الحصان بحقبة طويلة. ولم تظهر أفراس البحر المشابهة للخيول ووحوشه الأخرى التي كان جسمها الحيواني الأسفل يجمع بين شكل الحصان وشكل السمكة، وكذلك بنات أوقيانوس وبنات نيرموس ممن يحملون أسماءهم تنم عن طبيعتهن المشابهة لطبيعة الأفراس، مثل هيبو، جميع أولئك لم يظهروا في البحر إلا بعد أن تربع بوسيدون على عرشه، وقد تحقق له ذلك عن طريق زواجه من أمفيتريتي. وكانت أمفيتريتي تعدُّ سيدة البحر، وتملك زمام أمواجه وتسيطر على وحوشه. ولقد رُوي أن بوسيدون أبصر بالربة وهي ترقص مع عرائس البحر، من بنات نيريوس، في جزيرة ناكسوس، فاغتصبها عنوة. ولم تلبث أمفيتريتي أن فرت منه إلى الطرف الأقصى إلى غرب البحر، إما إلى أطلس أو إلى قصر أوقيانوس. وقد اقتفى بوسيدون أثرها طويلا، وأخيرا دلته الحيتان على مكان اختفائها. وفي الحقيقة أن حوتا هو الذي قادها إلى فراشه. وقد كوفئ الحوت إذ وضع بين الكواكب فأصبح برج الحوت.

ولقد أصبح بوسيدون بعد زواجه أمفرتيتي سيد البحر. وبذلك حل مكان نيريوس وهو إله قديم للبحر، اشتهر بصدقه ونزاهته ووقاره وقدرته على التنبؤ ومهارته في تغيير شكله، شأنه في ذلك شأن بروتيوس. وقد ظهرت هذه المهارة أثناء صراعه مع هراكليس الذي استطاع في النهاية تقييده بالأغلال لكي يدله على مكان التفاحات الذهبية. وقد أنجب نيريوس هذا سن دوريس خمسين عروسا من عرائس البحر كن يعشن معه في أعماق اليم، وسن بينهن كانت ثيتس التي تزوجت بليوس، بعد أن صارعته، وأنجبت منه أخيليوس، بطل الإلياذة. ومع أن بوسيدون شاد لنفسه قصرا فاخرا في أغوار اليم، إلا أنه غالبا ما كان يقيم مع إخوانه من الآلهة، على قمة جبل أولمبيوس. وبإذنه كانت تهب العواصف، وبإذنه كانت تسكن.

فإذا ساق عجلته الذهبية على وجه الماء، هدأ هدير الموج وانكسرت شوكة الرياح الصرصر، وأصبح سطح الماء كالصفحة الملساء. وكان الزوجان بوسيدون وأمفيرتيتي يشبهان زيوس وهيرا من وجوه كثيرة. فكما كان زيوس يدعى أحيانا «بزوج هيرا» كذلك كان بوسيدون ينادى بـ «زوج أمفيتريتي ذات المغزل الذهبي» وقد نظم موكب عرسها على غرار موكب ديونيسوس وأريادني. وفي هذا الموكب لم تظهر الخيول والثيران والكباش فحسب، بل ظهرت أيضا الوعول والضباع والأسود والنمور كوحوش بحرية تمتطي صهوتها عرائس البحر من بنات نيريوس. ولقد قيل إن بوسيدون اشترك مع أبوللون في بناء أسوار طروادة للملك لاوميدون، وإن ورد في الالياذة أنه بناها وحده، بينما رعى أبوللون لهذا الملك ماشيته، وعندما غشه لاوميدون وأبى إعطاءه أجره، انتقم منه بأن أرسل وحشا من وحوش البحر عاث في أرضه فساداً.

وقد كان لبوسيدون الذي لم يتزوج أمفيتريتي وحدها كثيرا من عرائس البحر وحوريات الينابيع والجنيات والبطلات، أبناء كثيرون قاموا بأدوار في الأساطير. ولم يكن من بينهم أبطال فحسب، بل كان بينهم مخلوقات متوحشة قهرها الأبطال، كبوليفيموس الكيكلوبس الذي فقأ أوديسيوس عينه الوحيدة مثيرا بذلك غضب بوسيدون عليه وانتقامه منه حتى أنه وضع العراقيل في وجهه أثناء عودته بحرا إلى وطنه إيثاكا حيث كانت تنتظره المتاعب. وحسبنا أن نتكلم هنا عن أبناء بوسيدون من أمفيتريتي أو عن اثنين من أكثرهم شهرة: تريتون ورودس ربة الجزر.

أما الأول فيسميه هسيودوس بذي القوة العريضة، ويصفه بإنه إله عظيم يقطن في قصر ذهبي بقاع البحر مع أبويه. ويمضي الشاعر يقول إنه كان إلها رهيباً، وإن انهزم على يد هراكليس في حضرة «رب البحر القديم» الذي يبدو أن تريتون لم يبرع مثله في تغيير شكله، وكان مخلوقا نصفه إنسان ونصفه الآخر سمكه أو حوت. وفي الإمكان مقارنته بأحد الساتيروى أو

السيلينوى وهم أرواح الغاب التي تصورها اليونان على أنها مخلوقات بشرية ضئيلة الجسم، مشوهة الشكل، بعضها في هيئة الجدي، جامح الشهوة شديد الإيذاء، وبعضها الآخر له أذنان مدببتان وحافر وذيل حصان وأنف أفطس وطبع متمرد. وتشاهد هذه المخلوقات أحيانا وهي ترقص مع الحوريات أو في صحبة ديونيسوس، إله النبيذ أو بان إله الرعاة أو غيرهما من كبار الآلهة. وكان تريتون كأي سيلينوس أو سانيروس جامح الشهوة، مغتصباً للنساء، بل مغتصبا للغلمان، في وسعه أن يثير الذعر في قلوب الناس ويضللهم ببوقه المصنوع من الصدف أو المحار. وسرعان ما تعدد تريتون وأصبح يوجد مثله كثيرون ذكور وإناث. وكان الذكور يشاهدون عادة في صحبة عرائس البحر من بنات نيريوس وهن يسبحن في مواكب الزفاف وسط الأمواج، احتفالا بزواج بوسيدون وأمفيتريتي، الذي أشرنا اليه، أو ميلاد أفروديتي أو بتلك الطقوس الدينية التي قيل إن عرائس البحر أبحن بأسرارها للإنسان.

لقد اشتهر بوسيدون في الديانة اليونانية كإله للبحر، وعُبد دائماً مرتبطا بالبحر والملاحة. كما عُبد أحيانا كإله للماء العذب، وأحيانا أخرى كرب للزلازل. وقد شيد له أهل رودس معبدا في جزيرة ثيرا البركانية حيث عُبد باسم اسفاليون أي مثبت الأرض وواقيها سن الهزات. وسن الطبيعى جدا أن يصبح بوسيدون بوصفه إلها للماء ربا للنبات وأن يُعبد أحياناً على هذا النحو في انحاء كثيرة من بلاد اليونان.



عملة إغريقية قديمة عليها صورة بوسيدون

حواء والتفاحة الذهبية

كانت لاله البحر «بوسيدون» حورية تدعى «ثيتيس»، وقعت عليها عين «زيوس» كبير الآلهة، فأعجبته. . لكنه علم من «الاقدار» أن الحورية سوف تلد ابنا يصير أعظم من أبيه. فأبى أن يكون هو ذلك الأب!. . ومن ثم قرر أن لا يضيفها إلى قائمة عشيقاته العديدات، بل يزوجها إلى ملك بلد مجاور. . ولكي يضفي على الزواج رونقا وبهاء، رأى أن يحضر بنفسه حفلة العرس، مصحوبا بزوجته «هيرا» إلاهة الزواج، وغيرهما من آلهة جبل الأوليمب.

وكان إله البحر - والد العروس - قد تعمَّد أن يتناسى دعوة إلاهة الفراق الكريهة الى عرس ابنته، لكن اللعينة ذهبت إلى ذلك الحفل متطفلة، وهناك القت وسط المدعوين الصاخبين «تفاحة» كتبت عليها هذا الإهداء الماكر: الى «أجمل» الحاضرات!. . فتنازعت عليها ثلاث منهن «هيرا»، إلاهة الزواج، وابنتها «أثينا» إلاهة الفكر، ثم «افروديت» إلاهة الحب. . كل تزعم أنها أحق بها من سواها!. . وانحاز لكل ربة من الثلاث فريق من أنصارها والمعجبين بها، حتى كاد العرس يتحول إلى ميدان قتال. . لولا أن استقر رأي الحاضرين على أن يحتكموا في النزاع إلى راع وسيم الطلعة يدعى «باريس»، يرعى قطيع ماشيته على سفح جبل «ايدا» القريب.

ورغم أن الراعي الشاب «باريس» كان يكسب عيشه من هذه الحرفة المتواضعة، فإنه كان سليل ملكين من أعظم ملوك ذلك الزمان هما: «بريام» ملك طروادة، و«هيكوبا» ملكتها!. . وكان عراف قد تنبأ له في طفولته بأنه سوف يجلب الخراب والكوارث على وطنه، فآثر والداه أن يضحيا به في سبيل طروادة، فتركاه على سفح تلٍّ ليموت. . . لكن الاقدار

هيأت له راعيا فقيرا عثر عليه فأنقذه، وتبناه!. . وشب «باريس» فاتن الطلعة رائع الجمال، إلى حد أوقع جميع الحوريات والراعيات في هواه. . أما هو فوقع في هوى حورية تدعى «أوينون»، وعاش الاثنان في سفوح جبل إيدا حياة مترعة بالسعادة.

وذات يوم. . جاءته الربات الثلاث المتنازعات على تفاحة الجمال الذهبية: أفروديت، وهيرا، وأثينا. . فألقين بالتفاحة الذهبية بين يديه، وسألنه أن يحكم بينهن بالعدل، فيمنحها لمن يراها أحقهن بها!

ثم شرعت كل واحدة تحاول أن ترشوه - بغير استحياء - كي ينحاز الى صفها. . فوعدته «هيرا» بالسلطان والثراء. . ومنته «أثينا» بالشهرة والمجد الحربي. أما «أفروديت» فقد عرضت عليه أن تزوجه من أجمل نساء الأرض.

وراقت له الأمنية الأخيرة أكثر من سابقتيها، فمنح تفاحة «الجمال» الذهبية لإلاهة الحب!

ولم تمض أيام حتى هجر «باريس» زوجته. . وماشيته. . وأبحر في ركاب أفروديت. . الى شواطئ اليونان.

في تلك الايام كان لملك «أسبرطة» زوجة تدعى «ليدا» راقت في عيني كبير الآلهة «زيوس»، فأنجبت منه طفلا وطفلة من الآلهة، بعد أن أنجبت من زوجها طفلا وطفلة من البشر. . فلما كبر الأربعة زوجت الابنة «البشرية» من أجاممنون ملك «مسينا»، فجلبت عليه الكوارث كما سنرى. أما الطفلة الإلهية وكانت تدعى «هيلين» فقد خطبها شقيقه «مينيلاوس» فظفر بها وصار وريثا لعرش أسبرطة في آن واحد.

وكان ملك اسبرطة الشيخ قد أدرك بفطنته، أن هيلين - التي كانت تعتبر أجمل نساء الأرض قاطبة! - لا بد أن يتعرض بسبب جمالها لكثير من الأخطار والأحقاد. .

فاقترح على جميع خاطبي ود هيلين - قبل أن يزوجها من أحدهم - أن

يقسم كل منهم قسما لا حنث فيه على أن يرضخ لحكمه فلا يحاول التعرض لها فيما لو صارت من نصيب سواه، بل وان يخفَّ لمساعدة الزوج الذي يظفر بها على استردادها، فيما لو خطفها عاشق حسود..

وسنرى أن ذلك القسم كان السبب في نشوب حرب طروادة.

وتم زواج هيلين من «مينيلاوس»، الذي صار الآن ملكا لاسبرطة، وعاش الزوجان أعواما سعيدين.. وذات يوم نزل ضيفا عليهما في قصرهما أمير شاب من أمراء طرواده، ولم يكن الأمير سوى الراعي الوسيم «باريس» الذي منح أفروديت تفاحة «الجمال» الذهبية فوعدته بأن تمنحه بدورها أجمل نساء الأرض. وتنفيذا لوعدها نصحته بأن يعود إلى قصر أبيه ملك طروادة فيعرفه بنفسه ويحصل منه على السفن اللازمة كي يقوم برحلة بحرية إلى بلاد اليونان حيث تقيم هيلين «أجمل نساء الأرض». فقد كان من سوء المصادفة أن الفاتنة التي وعدته بها أفروديت كانت زوجة لسواه!.. لكن عقبه «تافهة» كهذه ما كانت لتعوق الإلاهة عن الوفاء بوعد قطعته على نفسها!.. وهكذا بتأثير وتحريض ربة الحب والجمال، انتهز الشاب «باريس» فرصة غياب مضيفه مينلاوس عن القصر. فاختطف زوجته «هيلين» وفر بها إلى طروادة.

وكانت خيانة وضيعة من جانب الضيف، فإن مضيفه كان قد استقبله بكل مظاهر الترحيب اللائق بالامير الشاب، وأكرم وفادته كأعظم ما يكون الاكرام! فلما عاد من غيبته ووقف على نبأ فرار زوجته مع ضيفهما، بادر فأرسل رسله على عجل إلى جميع طالبي يد «هيلين» السابقين، مذكرا إياهم بقسمهم القديم على نجدته في مثل هذا الظرف بالذات!

وهرع الجميع من فورهم اليه.. ودعى رؤساء العشائر لإبداء رأيهم في الموقف الصعب الذي قد يتطور اليه النزاع.. فوقع اختيار المجتمعين على «أجا ممنون» - زوج شقيقة هيلين، وشقيق زوجها - كي يكون قائدا لهم في حربهم المقبلة... وبفضل دهاء أحد الحاضرين - وهو«أوديسيوس» ملك

أحد الاقاليم المجاورة - ضم إلى صفوفهم البطل الصنديد «أخيل» ابن الحورية «ثيتس»، التى حضرنا زفافها في بداية القصة.. وهو الذي كانت الاقدار قد تنبأت له بأنه سوف يصير أعظم من أبيه!

وتقول الأساطير إن «الأقدار» حين حضرت زفاف أبويه، تنبأت لهما بأن ابنهما الذي سيرزقان به سوف يحارب مملكة طروادة، فيتساقط أبناؤها تحت ضربات سلاحه الفاتك البتار، كما تتساقط سنابل الحنطة تحت ضربات منجل الحصَّاد!.. وأن حصون المدينة سوف تتداعى أخيرا أمام هجماته، فيدخلها دخول الفاتحين، لكنه سيفقد حياته آخر الامر عند أسوارها.

ورسخت هذه النبوءه المفجعة في ذهن الحورية العروس «ثيتيس»، فلما رزقت بابنها «أخيل» جعلت همها الأوحد أن تحميه بكل وسيلة من عدوان الاقدار، وتكفل له الخلود على قيد الحياة.. فلما شب عن الطوق.. وكبر حملته إلى نهر «ستيكس» المقدس، الذي يكسب ماؤه كل جسم يبلله مناعة أبدية ضد الموت!.. وهناك أمسكت بالصبي من عَقِبِ - كعب - قدمه وألقت به تحت الماء.. فاكتسب جسمه تلك المناعة ضد جميع قوى الفناء ولم يبق للموت منفذ اليه إلا عن طريق عقب قدمه الذي لم يبلله ماء النهر!

وحين كبر الفتى تولى أحد العمالقة تدريبه على القتال، وصار يغذيه بنخاع أقوى الأسود المفترسة! لكن ذلك كله لم يضعف من مخاوف الأم، التي ما فتئ يقض مضجعها القلق على ابنها الحبيب من مخاطر حرب طروادة، العتيدة أن تنشب يوما فتقضي على حياته!.. وبتأثير هذا القلق ألبسته أمه ثياب النساء وألحقته بسلك «وصيفات» البلاط الملكي!.. لكن تنكره هذا لم يخف على عين الملك الماكر «أوديسيوس»، فتنكر بدوره في زي بائع متجول وذهب يعرض على وصيفات القصر بضاعته من الأساور والأقراط. بعد أن دس بينها سيفا وخنجرا.. فلم يكد بصر الشاب المتنكر «أخيل» يقع على الاسلحة حتى بدرت منه حركة نمت عن خبرته بفنون

القتال! وهكذا انكشف أمره، فأخذه أوديسيوس معه ليشترك في مقاتلة أهل طروادة بغية استرداد ملكة أسبرطة - «هيلين» - من أسرهم، والاقتصاص لها من آسريها..!

وهكذا التأم شمل جيش الاغريق، بقيادة «أجاممنون»، وأخذ أهبته للابحار على شاطئ آسيا الصغرى - حيث تقع طروادة - لمهاجمتها وكسر شوكتها.. ولكن في اللحظة الأخيرة هبت رياح مضادة عاقت تحرك السفن التي تحمل الجيش المهاجم.. واستمر هبوب تلك الرياح أياما طويلة، بحيث لجأ القوم آخر الأمر إلى استشارة عراف في صدد ما ينبغي فعله لارضاء الآلهة التي تصب عليهم جام غضبها على هذا النحو!.. فأفتى العراف بأن لا سبيل إلى إرضاء الآلهة غير التضحية بابنة أجاممنون الكبرى على مذبح الفداء لوطنها! ولم يكن بد من الرضوخ لحكم الأقدار، فأرسل الأب التعس إلى زوجته يطلب حضورها وبصحبتها ابنتهما الكبرى، دون أن يصارحها بالسبب!

وحضرت الاثنتان.. وكانت الابنة مخطوبة للبطل الشاب «أخيل»، فلما علم بفتوى العراف حاول عبثا إنقاذ خطيبته من مصيرها المفجع.. لكن القوم هاجوا عليه، وفي مقدمتهم أخلص أنصاره، واتهموه بخيانه وطنه!.. وكادت تنشب في صفوفهم فتنة عمياء.. لولا أن حسمت الفتاة الموقف، هاتفة بأمها: «أماه، لقد أمعنت الفكر في الامر. أصغي إليَّ: إني سأختار الموت، وسأختاره راضية، فلقد محوت الخوف من قلبي محوا.. إن الآلهة تطلب حياتي، فهل أملك لطلبها رفضا؟.. إذن فلتكن حياتي فداء لوطني.. ولتنطلقوا لغزو طروادة!».

ثم تمضي العذراء إلى حتفها!

وبتغير اتجاه الريح، فتنطلق «الألف سفينة» التي تحمل جيش الاغريق نحو غايتها، تمخر عباب بحر قاتم، أكسبت الظلمة ماءه لون النبيذ..!

وبذلك تبدأ حرب طروادة المشهورة.

لقاء العمالقة

تَغَنَّيْ أيتها الربة بغضب «أخيل» بن بيليوس ذلك الغضب المدمر الذي نكب الآخيين بآلامٍ لا تُحصى، وبعث إلى هاديس بكثير من أرواح المحاربين الباسلة، وجعلها غنيمة للكلاب وشتى أنواع الطير، وبذا تحققت مشيئة زوس. وَلْتَبْدَئي الغناء بقصة العراك الذي اشتبك فيه ابن أتريوس ملك البشر، مع أخيل الطيب.

مَنْ أذِنَ من الآلهة دَفْعَ هذين الفريقَيْن إلى العراك؟ ابن ليتو وزوس، بسبب غضبه على الملك نشر في الجيش وباء وبيلا، وكان القوم يهلكون، لان ابن أتريوس جلب العار على كاهنه «خروسيس» الذي جاء الى سفن الآخيين السريعة ليحرر ابنته، وكان يحمل معه فدية تفوق الحصر، ويمسك في يديه قوس أبولو الذي يصيب عن بُعد، فوق عصا ذهبية، وتضرع إلى جميع الآخيين، وبخاصة الى ابني أتريوس قائدي الجيش، قائلا: «أي ولدي أتريوس، ويا أيها الأخيون الآخرون، المدرَّعون جيدا، لعل الآلهة الساكنة في بيوت فوق أوليمبوس تمنحكم أن تغزوا مدينة الملك «بريام» وتعودوا سالمين إلى بيوتكم، إن اطلقتم سراح ابنتي العزيزة، وقبلتم الفدية، احتراما ومهابة لابن زوس، أبولو، الذي يضرب من بعيد».

عندئذ صاح جميع الآخيين الباقين بالموافقة، آمرين باحترام الكاهن وقبول الفدية الثمينة، غير أن الامر لم يسر قلب أجاممنون ابن أتريوس فطرده شر طردة، وأصدر اليه أمرا صارما قائلا: «دعني لا أجدك، أيها العجوز، تتلكأ الآن بجانب السفن الخاوية، أو تعود بعد ذلك. وإلا فلن تحميك عصاك ولا قوس الرب. أما ابنتك فلن أطلق سراحها قبل أن توافيها الشيخوخة في بيتنا، في أرجوس بلاد الاغريق، بعيدا عن وطنها،

وهي تمارس عملها أمام «النول» وتشاطرني مخدعي. . كلا، إليك عني، لا تغضبني، حتى تستطيع الذهاب آمنا»

وإذ قال هذا، استولى الذعر على الرجل العجوز، فأطاع قوله، وانصرف صامتا يسير على شاطئ البحر الصاخب. وما إن ابتعد، حتى راح يصلي ويبتهل ضارعا الى الامير أبولو، الذي أنجبته ليتو ذات الشعر الجميل، قائلا: «استمع إليَّ، يا صاحب القوس الفضية، يا مَنْ تقف فوق «خروسي» و«كيلا»[1] المقدستين، وتحكم «تينيدوس» بسطوة. أيها الإله أبولو، اذا كنت قد أنحنيتُ فوق محرابي لإرضائك، أو إذا كنتُ قد أحرقتُ لك قطعا دسمة من أفخاذ الثيران أو الماعز، فحقق لي هذا الرجاء. دع الدانيين يدفعون ثمن دموعي بسهامك».

هكذا قال في صلاته، وسمعه الإله «أبولو» فهبط بخطى واسعة من فوق قمم أوليمبوس بقلب حانق يحمل فوق كتفيه قوسه وجعبته المغطاة. وكانت السهام تصلصل فوق كتفي الرب الغاضب، وهو يتحرك، متسللا في مجيئه كالليل. ثم جلس بعيدا عن السفن وأطلق سهما. . وكان دويُّ القوس الفضية فظيعا. هاجم أولاً البغال والكلاب السريعة، ولكنه بعد ذلك اطلق سهامه الحادة على الرجال أنفسهم، وأعمل فيهم الضرب، فاذا بأكوام حطب تشتعل فيها النيران كثيفة.

ظلت قذائف الرب تنطلق في كل مكان وسط الجيش، ولكن أخيل وجه نداءه الى القوم، في اليوم العاشر، أن يجتمعوا في السوق العامة، كما أوحت إلى قلبه بذلك الربة «هيرا» البيضاء الذراعين، حيث إنها أشفقت على «الدانيين»، لأنها أبصرتهم يموتون. ومن ثم، فلما اجتمعوا والتقوا سويا، قام من بينهم أخيل السريع القدمين، وقال: «يا ابن اتريوس الآن أعتقد أننا سنتقهقر، ونعود بخيبة الامل - إذا استطعنا أن نفر من الموت! -

(1) مدينتان يقع بهما معبد أبوللو.

مادامت الحرب والطاعون قد تحالفا معا ضد الآخيين. كلا، تعال، دعنا نسأل عرافا أو كاهنا ما، نعم، أو بعض مفسِّري الاحلام، لأن الحلم كذلك قد يكون رسالة من عند زوس، فقد يستطيع أن يخبرنا عن السبب الذي أثار حنق زوس، فقد يستطيع أن يخبرنا عن السبب الذي أثار حنق الإله أبولو: هل ذلك بسبب نذر يعنفنا عليه، أو من أجل ذبيحة مائة ثور مجتمعة؟ وهل يرغب - كي يبعد الطاعون عنا - في أن يحظى بمذاق الحملان والماعز الطاهرة؟».

وما إن قال هذا حتى جلس، وقام في وسطهم «كالخاس» أبن «ثيستور» الذي يفوق أبرع العرافين، ويعرف كل الاشياء الموجودة، والتي ستكون، والتي كانت من قبل. . وهو الذي قاد سفن الآخيين الى طروادة بقوة العرافة التي منحه إياها الاله «أبولو». وبنية حسنه خاطب حشدهم، وقال في وسطهم: «أي أخيل، يا حبيب زوس، إنك تأمرني بأن أعلن سبب غضب أبولو، الذي يضرب من بعيد. وعلى ذلك سأتكلم، ولكن هل لك أن تفكر، وتقسم بأنك مستعد بقلبك أن تحميني بالكلام وبقوة اليد، لأنني أعتقد أنني سوف أغضب رجلا يحكم ببأس على جميع سكان أرجوس، ويطيعه «الآخيون». لأن الملك يصبح أشد بطشا عندما يغضب من رجل أشد ضعة. ولو حدث أنه رجع عن غضبه يوما واحدا، فإنه سيكظم غيظه في قلبه حتى ينفذ كل شيء. إذن فكر، إذا كنت ستحميني».

فأجابه أخيل، السريع القدمين، قائلا: «تشجع، وأفصح بما تعرفه من نبوءة مهما كانت، لأنه، وعمر أبولو، حبيب زوس، الذي تصلي إليه يا «كالخاس»، وتعلن النبوءات على جيش الدانيين، حتى ولو كنت تعني أجاممنون، الذي يعلن الآن أنه يفوق أفضل الآخيين».

عندئذ تشجع العراف البريء وتكلم قائلا: «إذن، فليس الامر من جراء نذر يوبخنا عليه، ولا ذبيحة مائة ثور، ولكن بسبب الكاهن الذي أهانه أجاممنون، والذي لم يطلق سراح ابنته ولم يقبل الفدية. لذلك السبب،

فان الرب الذي يضرب من بعيد، قد صب عليكم ويلاته، وسيظل يصبها، ولن يوقف الطاعون المقيت عن الدانيين الا إذا رددنا الفتاة البراقة العينين الى أبيها، دون ثمن، ولا فدية، وقدمنا ذبيحة مقدسة من مائه ثور الى خروسي.. عندئذ يمكننا أن نهدئ من غضبه ونرضيه».

وجلس العراف بعد أن قال هذا، فنهض في وسطهم المحارب ابن أتريوس، أجاممنون الواسع السلطان، يتميز غيظا، ويفيض قلبه الاسود حنقا، وتتقد عيناه كالنار المتأججة، وبادر موجِّهًا كلامه الى «كالخاس»، وكانت ملامحه تنذر بالخطر، فقال: «يا عراف السوء، لم يحدث قط أن أخبرتني بشيء حسن، فالتنبؤ بالشر دائما حبيب الى قلبك، ولم يسبق أبدا أن نطقت بكلمة طيبة، ولا قمت بتنفيذها. والآن وسط حشد الدانيين تنطلق بنبوءاتك، وتعلن مؤكدا أنه لهذا السبب يصب الرب الذي يضرب من بعيد ويلاته عليهم، ولهذا فلن أقبل الفدية العظيمة من أجل الفتاة، ابنة خروسيس، وأنا أشدُّ إصرارا على الاحتفاظ بها في بيتي، لأنني، كما تعلم، أفضلها على «كلوتمنسترا» زوجتي الشرعية، حيث إنها لا تقلُّ عنها في شيء، لا في الشكل ولا في القوام، ولا في العقل، ولا بأية حال في الاعمال اليدوية. ولكني، بالرغم من ذلك، سأعيدها، إذا كان الخير في ذلك، فإني أؤثر سلامة القوم على هلاكهم. ولكن هل لك أن تعد لي فورا غنيمة أخرى بدلا منها، حتى لا أكون الوحيد بين أهل أرجوس بدون غنيمة، حيث إنه لا يليق، وأنتم جميعا ترون هذا، أن تؤخذ غنيمتي مني؟».

وردًّا على ذلك، قال أخيل العظيم السريع القدمين: «يا ابن أتريوس الامجد، يا من تفوق جميع الناس جشعا، كيف يعطيك الأخيون الطيبو الروح غنيمة.؟ ليست هذه ثروة موجودة في الخزانه العامة، ولكن كل ما أخذناه بالسلب من المدن قد قسم الى أنصبة، ولا يليق استردادها ثانية من القوم إطلاقا. فهل لك أن تعيد الفتاة بأمر الرب، ولسوف نعوضك عنها،

نحن الآخيين، ثلاثة أضعاف وأربعة، إذا منحنا زوس أن نظفر بأسلاب مدينة طروادة المتينة الاسوار»؟

عندئذ تكلم أجاممنون للرد عليه، فقال: «ليس بهذه الطريقة، رغم شجاعتك، يا أخيل يا شبيه الإله، تسعى الى خداعي بفطنتك، لأنك لن تضطرني ولن تحثني. ألأنك تريد أن تحتفظ بغنيمتك، وتود أن أظل محتاجا، تأمرني بردها؟ كلا، إلا إذا أعطاني الآخيون ذوو النفوس الطيبة غنيمة يقنع بها ضميري، ويعدها عقلي معادلة! أما إذا لم يعطوني إياها، فسأحضر بنفسي وآخذ غنيمتك أو غنيمة «أياس» أو غنيمة «أوديسيوس»، وأحملها بعيدا. وسوف يحل الغضب على من أذهب اليه. وعلى أية حال، فلنفكر في هذه الاشياء فيما بعد، ودعونا الآن نسير سفينة سوداء في البحر اللامع، ونجمع فيها العدد اللازم من المجذفين، ونضع على ظهرها ذبيحة من مائة ثور، ونشيِّع فيها ابنة خروسيس الجميلة الخدين نفسها. وليتولى القيادة رجل ذو مشورة، مثل «أياس» أو«ادومينيوس»، «أوديسيوس» العظيم، أو أنت، يا ابن بيليوس، يا أشد الرجال قوة، حتى يمكنك أن تقدم الذبيحة وتسترضي ذلك الذي يرمي بالسهام من بعيد».

عندئذ حدجه أخيل بنظرة غاضبة من تحت حاجبيه وخاطبه قائلا: «يا لي منك أيها المتدثر بعدم الحياء، يا ذا العقل الداهية، كيف يمكن لأي رجل من الآخيين أن يطيع أمرك بصدر رحب، سواء في القيام بالرحلة أو في مقاتلة الأعداء بحمية؟ أنا مثلا لم آت الى هنا بدافع البغض للطرواديين فإنهم لم يخطئوا معي قط. لم يسبق لهم بأية حال من الاحوال أن سلبوني أبقاري أو جيادى، كما لم يسبق لهم في فثيا البلد العميقة التربة، مهد الرجال، أن بددوا المحصول، إذ تفصل بيننا حوائل كثيرة - جبال شامخة وبحر صاخب. أما أنت، يا من لا تستحي، فقد تبعناك إلى هنا لكي تكون مسرورا، وتسعى إلى كسب النصر لمنيلاوس ولنفسك، يا وجه الكلب، والثأر من الطرواديين، لكنك لا تعمل لهذا حسابا، ولا تفكر فيه إطلاقا

ومع ذلك فإنك تهدد بأن تأخذ بنفسك الغنيمة التي تعبت أنا من أجلها كثيرا والتي أعطانيها أبناء الآخيين! إني لم أحصل قط على غنيمتي كغنيمتك، عندما كان الأخيون ينهبون حصنا طرواديا مزدحمًا بالسكان. كلا، وإن يديَّ قد حملتا عبء الحرب الطاحنة حتى إذا ما جاء وقت تقسيم الغنائم، كانت غنيمتك أعظم بكثير، بينما أعود أنا إلى سفني بشيء يسير، ولكنه يصبح مُلكا لي بحق، عندما أملُّ القتال. والآن سأرجع إلى فثيا، إذ أرى من الخير أن أعود بسفني العزيزة إلى الوطن. فأنا لم أقصد المجيء إلى هنا لينالني العار، بأن أشبع جشعك بالبضائع والاموال»!

عندئذ أجاب ملك البشر، أجاممنون:

«إذن، فاهرب، إن كان قلبك يأمرك، فلست أنا الذي يناشدك البقاء إكراما لخاطري. فإن معي آخرين سيشرفوننى، وفوق كل شيء «زوس»، سيد المشورة. إنك في نظري أبغض الملوك جميعا، يا من نشأ على منوال زوس، لانك دائما ميال إلى المشاحنات والحروب والقتال. ومهما بلغت قوتك وشجاعتك، فإني أعتقد أن الالهة هي التي منحتك هذه الصفات، فاذهب إلى وطنك مع سفنك ورجالك، وسيطر على جماعتك من المقاتلين، فلست أهتم بك، ولن أكترث لغضبك، وليكن هذا وعيدي لك: مادام الاله «أبولو» يأخذ مني ابنة خروسيس، فإني سأعيدها في سفينة من سفني ومع رجال من رجالي، بيد أنني سأحضر بنفسي إلى كوخك وآخذ «بريسيس» الفاتنة الوجنتين، غنيمتك، حتى تعرف تماما أني أشدُّ منك بأسا، ويحجم غيرك فلا يعلن أنه ند لي ويشبه نفسه في مواجهتي»!

هكذا تكلم أجاممنون، فاستولى الحزن على ابن بيليوس – أخيل – وفي قرارة صدره الاشعث انقسم فؤاده إلى رأيين: أيستلُّ حسامه البتار من غمده، ويقتحم الجمع ويقتل بنفسه ابن اتريوس، أم يملك زمام غضبه ويكبح جماح نفسه؟ وبينما هو يفكر في ذلك بعقله وقلبه، ويستل سيفه العظيم من غمده، هبطت الربة «أثينا» من السماء، موفدة من لدن الربة

«هيرا» البيضاء الذارعين، التي كانت في قلبها تحب كلا من أخيل وأجاممنون على السواء وترعاهما بعنايتها. فاتخذت موقفها وراء ابن بيليوس وأمسكته من شعره الذهبي، وتجلَّت له وحده، فلم يرها أحد من الباقين. فامتلأ أخيل بالزهو، وما إن استدار حتى عرف أثينا على الفور، وكانت عيناها تتألقان بشكل مخيف. عندئذ تحدث إليها بكلمات خافتة فقال: «لِمَ أتيت الآن ثانية، يا ابنه زوس، يا حاملة الدرع؟ ألكي تري وقاحة أجاممنون، ابن أتريوس؟ دعيني أخبرك ما أعتقد أنه سيحدث فعلا: فبسبب كبريائة المتعاظمة، سيفقد حياته الآن»!

عندئذ أجابت الربة أثينا ذات العينين البراقتين: «جئت من السماء كي أهدئ من غضبك، لو أصغيت إليَّ، وقد أرسلتني الربة «هيرا» البيضاء الذراعين، لأن حبكما في قلبها سواء، وهي تهتم بأمركما. هيا، تعال، وكُفَّ عن نزاعك، ولا تدع يدك تستل السيف. فلك أن تعنفه بالألفاظ، وتواجهه بالواقع، لأنني هكذا سأتكلم، وهذا الشيء سيتم حقا: ستأتيك الهدايا الرائعة، فيما بعد، ثلاثة وأربعة أضعاف، من جراء هذا النزاع. فاضبط زمام نفسك اذن واستمع الينا».

بعد ذلك تكلم أخيل، السريع القدمين، ردا على كلامها: «على المرء، أيتها الربة، أن يتأمل في كلامك مرتين مهما كان في قلبه من غضب، فهذا أفضل. وكل مَنْ يطيع الآلهة يحظى منهم بآذان صاغية عن طيب خاطر».

تكلم ورفع يده الثقيلة من على المقبض الفضي وأعاد الحسام العظيم ثانية إلى غمده، ولم يعص كلمة أثينا التي كانت قد صعدت في الحال إلى أوليمبوس، إلى قصر «زوس» الذي يحمل الدرع، لتنضم إلى الآلهة الآخرين.

ولكن «أخيل» عاد يخاطب أجاممنون بلهجة شديدة، ولم يكف بأية حال عن غضبه فقال: أيها المثقل بالخمر، يا من له وجه الكلب وقلب الغزال، لم يسبق أن واتتك الشجاعة قط لتسلح نفسك للقتال مع قومك، أو الذهاب

إلى كمين مع رؤساء الآخيين. كنت تخشى ذلك خشية الموت. وإن أردت الحق، فمن الافضل أن تمر بجميع أرجاء معسكر الآخيين الفسيح، وتستولي على غنيمة من يتكلم ضدك. أيها الملك الملتهم حقوق قومه، أرى أنه لا يطيعك غير رجال من سقط المتاع، وإلا لما استخدمت سفاهتك الآن، للمرة الاخيرة. بيد أنني سأعلن اليك كلمتي، وسوف أقسم عليها قسمًا لا حنث فيه: بحق هذا الصولجان الذي لن يورق أو ينبت براعم بعد ذلك، لأنه انفصل عن جذعه في الغابة منذ مدة، كما أنه لن يعاود خضرته بأية حال، لأن النصل البرونزي قد جرده من أوراقه ولحائه، والآن يحمله أبناء الآخيين في أيديهم أولئك الذين يصدرون الأحكام ويسهرون على الحقوق والتقاليد بأمر زوس.. بحق ذلك كله سيشتاق أبناء الآخيين، واحدا واحدا، ذات يوم، إلى أخيل، وعندئذ لن تستطيع بأية حال من الاحوال أن تساعدهم، وسوف تحزن أعمق الحزن، عندما يخر الكثيرون موتى أمام هكتور قاتل البشر، سوف تقضم قلبك في داخلك، حزنا على عدم تقديرك لأقدر محارب بين الآخيين على الاطلاق»!

هكذا تكلم» أخيل»، وألقى بالصولجان المرصع بالمسامير الذهبية إلى الأرض، ثم استوى جالسا، بينما راح أجاممنون يصب عليه جام غضبه، ثم قام من وسط الجميع نسطور العذب الحديث، الخطيب الواضح النبرات بين رجال بولوس الذي يتدفق الكلام من لسانه أحلى من الشهد، الذي شهد جيلين من البشر يندثران، وقد ولد منذ زمن بعيد وترعرع في «بولوس» المقدسة، وكان ملك الجيل الثالث. فخاطب جمعهم بنية سليمة وقال في وسطهم: «ويحكم! الحق، أن الحزن العظيم قد حل بأرض أخيا. ما من شك في أن الملك بريام سوف يغتبط، وكذلك سوف تمتلئ قلوب أبناء بريام وبقية الطرواديين بالفرح لو سمعوا كل هذه القصة عن النزاع القائم بينكما، يا رئيسي جميع الدانيين وأرجحهم رأيا، وأعظمهم في القتال. لا يصح هذا، اصغيا إليَّ، فكلاكما أصغر مني. لقد اشتركت قبل الآن مع محاربين كانوا أفضل منكما، ولم يحدث قط أن احتقروني. ولم أر حتى لا

أمثال هؤلاء المحاربين، ولن أرى، أمثال «بايريثوس» و«دروآس» راعي الجيش، و«كاينيوس» و«اكساديوس» وشبيه الآلهة «بولوفيموس» و«ثيسيوس»، ابن «ايجيوس» نظير الخالدين. كان هؤلاء أعتى جميع الرجال الذين نشؤوا على وجه البسيطة، كانوا الأعتى وتقاتلوا مع الأعتى، حتى مع متوحشي القنطور الذين جعلوا عرائنهم وسط الجبال، وأبادوهم بطريقة رائعة. كنت زميلا لهولاء الرجال، يوم أن جئت من بولوس، من بلاد نائية قصية، لأنهم استدعوني من تلقاء أنفسهم. فقمت بدوري في القتال كمحارب مستقل، وما كان في مقدور أحد من جميع البشر الموجودين على الأرض حاليا أن يتقاتل معهم. ومع ذلك، كانوا يستمعون إلى مشورتي ويعيرون كلامي آذانا صاغية. وكذلك أنتما يجب أن تصغيا، ومن الخير أن تصغيا: يجب عليك يا ابن أتريوس، رغم قوتك، ألا تسعى لتأخذ منه الفتاة، ولكن اتركها له غنيمة، كما أعطاه إياها أبناء الآخيين. وإياك، يا ابن بيليوس، أن تبيت العزم على النزاع مع ملك، قوة ضد قوة، لأن المجد الذي يهبه زوس لملك ذي صولجان ليس مجدا عاديا. فالبرغم من شجاعتك، ومن أن أمًّا من الربات قد ولدتك، فإنه هو الأقوى، حيث إنه يملك على عدد أكبر. وأنت يا ابن اتريوس، اكبح جماح غضبك، لا يصح هذا، إنني أتوسل اليك أن تصرف عنك غضبك على أخيل، الذي هو لجميع الآخيين ملاذ قوى من الحرب الشريرة».

عندئذ نهض للرد عليه أجاممنون فقال: «نعم، حقا، أيها السيد العجوز، إن كل ما قلته يتفق مع الصواب. ولكن هذا الرجل يعقد النية على أن يكون فوق جميع الآخرين، إنه يعتزم أن يتولى قيادة الجميع ويصبح ملكا على الجميع ويصدر أوامره للجميع، في حين أن هناك واحدا، على ما اعتقد، لن يطيعه. فإذا كانت الآلهة هي التي جعلته محاربا إلى الابد، فهل تدفعه إلى التفوه بالسباب؟».

عند ذلك قاطعة أخيل العظيم قائلا: «نعم، لأنني سوف أحمل لقب الجبان، غير النافع، لو كنت أرضخ لك في كل أمر تأمرني به. أصدر

أوامرك هذه لغيري، ولكن لا توجه إلى أي أمر، لأنني أعتقد أنني لن أطيعك بعد الآن. وسأخبرك بشيء آخر، وعليك أن تحتفظ به في قلبك: لن أتعارك بقوة الأيدي من أجل الفتاة، معك أو مع أي شخص آخر، فإني لا أراك إلا آخذا ما سبق أن أعطيت. ولكنك لن تأخذ شيئا آخر مما أملك في سفينتي السريعة السوداء، ولن تحمله بعيدا بالرغم مني. حقا، تعال وجرب، حتى يعرف هؤلاء أيضا أن دمك القاتم سوف يسيل في الحال حول رمحي!».

ولما انتهى الخصمان من تشاحنهما بالألفاظ العنيفة، نهضا وفضا الحشد المجتمع بجوار سفن الآخيين. فذهب ابن بيليوس - أخيل - في طريقه إلى خيامه والى سفنه الجميلة يصحبه ابن «مينويتيوس» كما يصحبه رجاله، أما ابن أتريوس - أجاممنون - فأنزل إلى البحر سفينة سريعة واختار لها عشرين مجذفا، وساق إلى ظهرها ذبيحة الإله من مائه ثور، وأحضر ابنة خروسيس الفاتنة الخدين ووضعها في السفينة، وصعد على ظهرها «أوديسيوس» الكثير الحيل ليتولى قيادتها.

وهكذا اعتلى هولاء ظهر السفينة وابحروا عبر المسالك المائية، ولكن ابن اريوس أمر القوم بتطهير أنفسهم. فطهروا أنفسهم، وألقوا بالرجس في البحر، وقدموا لابولو ذبائح مقبولة من مئات الثيران والماعز، بجوار شاطئ البحر المضطرب، فارتفعت نكهتها صاعدة خلال الدخان.



أخيل يحارب.

الحرب من أجل هيلين الجميلة

اصطف الجنود كل فرقة مع قائدها، تقدم الطرواديون بصخبهم يصيحون كالطيور، كما تعلو صيحات الكراكي - حتى تبلغ عنان السماء - وهي تفر أمام زوابع الشتاء والأمطار الغزيرة، ثم تطير صارخة صوب مجاري الاوقيانوس، حاملة الفتك والموت لرجال «البجميس»، وعند مطلع الفجر الباكر تقوم بمعركة رهيبة.

أما الآخيون - من الجهة الأخرى - فقد أقبلوا في صمت، يتنفسون البسالة، وقد عقدوا العزم في قلوبهم على التعاون ومساعدة كل رجل لزميله. الريح الجنوبية الضباب فوق قمم الجبل، ذلك الضباب الذي لا يحبه الراعي، ويعده اللص خيرا من الليل، اذ لا يستطيع المرء أن يرى فيه إلا بالقدر الذي يمسك به حجرا، هكذا كانت كثافة سحب الغبار التي أثارتها أقدامهم وهم يسيرون، وقد انطلقوا يعبرون السهل بأقصى سرعة.

وعندما اقتربوا، وتقدم كل جيش في مواجهة الآخر، نهض من بين الطرواديين بطل يشبه الإله، هو «باريس»، يحمل فوق كتفيه جلد نمر أرقط، وقوسه المعقوفة وحسامه، ولوح برمحين لهما سنان من البرونز، وتحدى خيرة الآخيين أن يقاتلوه وجها لوجه في عراك دموي.

بيد أنه عندما رآه «مينيلاوس»، العزيز لدى «آريس»، وهو يتقدم أمام الجميع بخطوات واسعة، انتابته فرحة الضرغام الذي عثر على جثة ضخمة، أو ظفر بقطامي ذي قرون، أو عنزة وحشية، وكان الجوع قد قضم أحشاءه، فانقض يلتهمها في نهم، مهما انبرت له الكلاب السريعة والشباب الجامح. هكذا كان سرور «مينيلاوس» حين وقعت عيناه على «الكساندر» شبيه الإله، إذ اعتقد أن تتاح له فرصة الانتقام من غريمه. وفي الحال، وثب من عربته إلى الأرض وهو في حلته الحربية.

وما إن أبصر به «باريس» المجيد، عندما برز وسط الابطال، حتى أصيب في قلبه، وعاد أدراجه وسط حشد زملائه، اجتنابا للموت! وكما يجفل المرء متراجعا مذعورا حين يرى ثعبانا بين أخاديد جبل، وترتعد فرائصه وأعضاؤه فيعود من حيث أتى، ويمتقع لون خديه، هكذا تراجع الكساندر المجيد، خوفا من ابن أتريوس، وعاد أدراجه إلى جموع الطرواديين الأمجاد.

ولكن «هكتور» شاهده، فزجره بعبارات الخزي قائلا: «أيها الشرير باريس، يا أجبن من تقع عليه العيون، أيها السادر في مطاردة النساء، أيها المخادع، ليتك لم تولد قط، ومتَّ دون زواج. نعم، كنت أتمنى ذلك، فهذا خير بكثير من أن تكون هكذا مجلبة للعار، ينظر اليك الرجال بازدراء! حقيقة، أعتقد أن الآخيين ذوي الشعر المسترسل سوف يقهقهون عاليا، وهم يظنون أن بطلنا أمير، اخترناه بسبب جمال خلقته، بينما لا توجد ذرة من القوة أو الشجاعة في قلبه! أبمثل هذه القوة سافرت عبر البحر في سفنك الماخرة، يوم أن جمعت الثقاة من زملائك، حتى إذا ما بلغت قوما غرباء، عدت حاملا غادة فاتنة من بلاد نائية، هي ابنة محاربين يجيدون استخدام الرمح، لتكون لأبيك ولمدينتك ولكل الشعب مجلبة للدمار المحزن.. ومسرة لاعدائك، ومشنقة لرأسك أنت نفسك؟ حقا، إنك لن تواجه «مينيلاوس»، العزيز لدى «أريس»، على الأقل كي تعلم أي نوع من المحاربين ذاك الذي اقتنيت زوجته الحسناء؟ إن قيثارتك لن تنفعك، ولا حتى هدايا أفروديت، ولا جدائل شعرك، ولا جمالك، عندما تفترش الثرى صريعا. حقيقة، إن الطرواديين لجبناء أيَّ جبنٍ، وإلا لألبسوك منذ زمن بعيد ثوبا من الأحجار بسبب ما جنيته من آثام»!

فرد عليه الكساندر المجيد قائلا: «أي هكتور، ما أراك إلا تؤنبني بما أستحق، ولم تقل شيئاً أكثر مما أستحق. إن قلبك لا تلين قناته أبدا، كالفأس التي غرست في جذع شجرة بيد رجل ماهر في تشكيل الأخشاب

لصنع السفن، تزداد قوة ضربته باضطراد. وهكذا أيضاً حال القلب الذي في صدرك القوي. فلا تقذف في وجهي بالهدايا الجميلة التي منحتها أفروديت الذهبية. حذار، فإن هدايا الآلهة الرائعة ليست مما يلقى جانبا. وخاصة ما تهبه من تلقاء نفسها، حتى ولو لم يكن في مقدور أحد أن يحصل عليها مختارا. أما الآن، فإن كنت تصر على أن أحارب وأقاتل، فدع الطرواديين الآخرين يجلسون هم وجميع الآخيين، واجعلني في الوسط مع مينيلاوس، العزيز لدى «أريس»، لنتعارك من أجل «هيلين» وكل ممتلكاتها. وأينا يغلب، ويبرهن على تفوقه، فإنه يستولي على المرأة والثروة جميعا، ويحملها إلى منزله. أما أنتم، فلتقسموا على الصداقة وفروض الاخلاص بذبيحة، وهكذا تستطيعون الإقامة في بلاد طروادة العميقة التربة. ودعهم هم يعودون إلى أرجوس، مرعى الخيول، والى آخيا أرض الحسان الفاتنات».

وإذ قال هذا، سر هكتور سرورا بالغا حين سمع قوله فتقدم إلى الوسط، وأمسك رمحه من منتصفه، وأرجع به فرق الطرواديين إلى الوراء، فجلس الجميع. غير أن الآخيين ذوي الشعر المسترسل حاولوا عندئذ أن يصوبوا اليه سهامهم، ويضربوه، ويقذفوه بالأحجار. ولكن أجاممنون، ملك البشر، صاح عاليا: «كفوا يا أهل أرجوس، ولا تقذفوا السهام يا شباب الآخيين، لانه يبدو أن لدى هكتور، ذي الخوذة البراقة، شيئاً ما يريد أن يقوله».

وإذ قال ذلك، أمسكوا عن القتال، ولزموا الصمت في الحال. ثم تكلم هكتور بين الجيشين، فقال: «اسمعوا مني أيها الطرواديون والآخيون المدرعون جيدا، ما قاله باريس الذي من أجله قام النزاع على قدم وساق. لقد أمر غيره من الطرواديين وجميع الآخيين، بأن يخلعوا عنهم عدتهم الحربية ويضعوها فوق الأرض الفسيحة، وسيقف هو نفسه في الوسط، مع مينيلاوس، العزيز لدى أريس، ليشتبكا في عراك من أجل «هيلين» وما

تملك. وأيهما ينتصر ويثبت تفوقه، سيأخذ المرأة والثروة جميعا، ويحملهما إلى منزله. أما نحن الآخرين، فهيا نقسم على الصداقة وفروض الإخلاص بذبيحة».

وخيم السكوت عليهم أجمعين، ومن وسطهم نهض مينيلاوس، الماهر في صيحة الحرب، وقال: «اصغوا الآن إليَّ أنا أيضا، فقد تملَّك الحزن قلبي من دونكم جميعا. وإني لارى أنه لم يعد مفر من أن يفترق أهل أرجوس والطرواديون، بعدما رأيته من تكبدهم للمحن الكثيرة بسبب النزاع القائم بيني وبين باريس الذي بدأه. يجب أن يموت أحدنا - لقد كتب القضاء له الموت - فعلا - وبعد ذلك سرعان ما سيعم السلام بينكم. فلتحضروا كبشين: كبشا أبيض للشمس، ونعجة سوداء للارض، وسوف نحضر واحدا لزوس.. وليحضر إلى هنا بريام القوي، حتى يبرم العهود بنفسه، لا بواسطة أبنائه المتعجرفين المستهترين، فنحن لا نريد أن نرى معاهدة مقدسة لزوس تنفصم بالخيانة. إن الشباب غالبا ما يكون متسرعا، ولكن عندما يتولى شيخ أمثال هذه الامور، فإنه يعمل حسابا للمستقبل والماضي حتى يكون قراره في صالح الطرفين».

وإذ قال ذلك، شعر الآخيون والطرواديون بالغبطة، لاعتقادهم أنه قد كفاهم شر القتال المقيت، وعلى ذلك تركوا عرباتهم في صفوف، وهبطوا منها، ثم خلعوا عنهم ملابسهم الحربية فوضعوها على الأرض، كلا منها بجانب الاخرى لا تفصلها عنها سوى مسافة بسيطة. ثم أرسل هكتور رسولين إلى المدينة، يجدَّان في السير لاحضار الحملان واستدعاء بريام، كما أرسل الملك أجاممنون «تالثوبيوس» إلى السفن العميقة القاع، لاحضار حمل، فلم يتردد في إطاعة أجاممنون العظيم.

بيد أن «إيريس» ذهبت إلى «هيلين» البيضاء الذراعين، كرسول، متخذة هيئة شقيقة زوجها، تلك التي اتخذها الملك «هيليكاون» ابن أنتينور، زوجة له، وكانت تدعى «لاوديكي»، وتعتبر أجمل بنات بريام.. فوجدت هيلين

في البهو تنسج نسجا أرجوانيا كبيرا ذا عرضين، وقد وشته بصور معارك كثيرة للطرواديين، مستأنسي الجياد، والآخيين ذوي الحلل البرونزية، أولئك الذين قاسوا الاهوال من أجلها على أيدي «ايريس». عندئذ اقتربت منها إيريس، السريعة القدمين، وتحدثت اليها قائلة: «تعالي هنا، يا سيدتي العزيزية، لتري روائع أعمال الطرواديين مستأنسي الخيول، والآخيين ذوي الحلل البرونزية. فمنذ زمن وجيز، كان يهدد بعضهم البعض بحرب طاحنة في السهل، كأنما يعتزمون القتال حتى الموت. أما الآن، فقد كفوا عن القتال، وهم يجلسون في هدوء، متكئين على تروسهم، ورماحهم الطويلة مغروسة من أطرافها إلى جوارهم. ولكن باريس ومينيلاوس الجبار، العزيز لدى أريس، يجب أن يتقاتلا، من أجلك، برماحهما الطويلة، ومن ينتصر منهما تكونين زوجة له»!

هكذا تكلمت الربة، فأحيت في قلب محدثتها الشوق العذب نحو زوجها السابق، ووطنها، وأبويها.. وفي الحال حجبت هيلين نفسها بكتان أبيض براق، وخرجت من غرفتها، والدموع تنهمر من مآقيها. ولم تكن وحدها، بل كانت معها وصيفتان: «أثيرا»، ابنة «بيتثيوس»، و«كلوميني» ذات عيون المها. وسرعان ما بلغن مكان أبواب سكاي.

ومن كانوا يجلسون حول «بريام» و«بانثوس» و«ثومريتيس» و«لامبوس» و«كلوتيوس» و«هيكيتاون»، نسل آريس، و«أوكاليجون» و«انتينور»، الحازمين، جلسوا عند أبواب سكاي، ككبار القوم. وبسبب شيخوختهم لم يشتركوا في القتال، بيد أنهم كانوا يتحدثون بفصاحة وطلاقة. ومثل «حشرات النطاط» الجالسة في الغابة فوق شجرة، ترسل صوتها المقبول، هكذا جلس قادة الطرواديين على الحائط. فلما أبصروا بهيلين مقبلة بمحاذاة الحائط، راحوا يتهامسون بكلمات مجنحة قائلين: «لا لوم على الطرواديين والآخيين المدرعين تماما، أن يعانوا الآلام مدة طويلة من أجل مثل هذه المرأة! من العجب أنها تبدو للناظرين وكأنها إحدى الربات

الخالدات! ومع ذلك، فالبرغم من كل ما هي عليه من فتنة، دعوها ترحل على ظهر السفن، ولا تترك ههنا لتكون عارا علينا وعلى أطفالنا من بعدنا»!

هكذا قالوا، غير أن بريام استدعى هيلين اليه، قائلا: «تعالي إلى هنا، يا طفلتي العزيزة، واجلسي أمامي، لكي تري زوجك السابق وأقاربك وشعبك. فإني أرى أن لا لوم عليك بأية حال من الأحوال، ولكني أرى أن الملوم هم الآلهة، الذين أشعلوا حرب الآخيين المفجعة ضدي. تعالي، لعلك تستطيعين أن تخبريني من يكون هذا المقاتل الضخم، ذلك الآخي البطل الصنديد، الفارع الطول؟! حقيقة، هناك آخرون أطول منه بقدر الرأس، ولكن عينَيَّ لم تريا بعدُ رجلا في مثل هذا الجمال، ولا بمثل هذه المهابة. إنه أشبه ما يكون بملك». فأجابته هيلين، الفاتنة بين النساء، قائلة: «مبجل أنت في عيني، يا والد زوجي العزيز، ومهيب. ليت الموت الشرير كان نصيبي يوم تبعت ابنك إلى هنا، وتركت حجرة عرسي وأقاربي وابنتي العزيزة، ورفيقات صباي الجميلات. غير أنه قدر لهذا ألا يكون، ولذلك تجدني أذوي من البكاء. ومع ذلك، فسأخبرك عمن تسألني: ذلك الرجل هو ابن أتريوس، أجاممنون الحاكم المطلق، وهو ملك نبيل، ورماح مقدام وكان في يوم ما شقيق زوجي، أنا التي طرحت عنها الحياء إذا كان كل هذا قد حدث حقا. إني لأرتاب في ذلك»!

قالت ذلك، فتملك العجب الرجل العجوز، وقال: «يا لك من سعيد يا ابن أتريوس، محظوظًا من الآلهة والاقدار! أرى الكثير من شبان الآخيين قد خضعوا لك الآن. أقول هذا لأني سافرت إلى بلاد فروجيا، الكثيرة الكروم، وأبصرت المقاتلين الفروجيين هناك في جموع غفيرة، أولئك الفرسان البواسل أتباع «أوتريوس» وشبيه الإله «موجدون»، الذين كانوا يعسكرون بمحاذاة شواطئ سنجاريوس. ولما كنت أنا حليفهم، فقد حاربت في صفوفهم يوم هجمت المحاربات الامازنيات نظيرات الرجال. ومع ذلك فإن «الفروجيين» أنفسهم لم يكونوا في كثرة الآخيين ذوي العيون البراقة!».

وبعد ذلك أبصر الرجل العجوز «أوديسيوس» فسألها: «والآن، أخبريني كذلك عن هذا الرجل، يا طفلتي العزيزة، من هو؟ إنه أقصر من أجاممنون بقدر رأس، ولكنه أعرض منه أكتافا وصدرا. إن عدته الحربية موضوعة على الأرض الواسعة، ولكنه يصول ويجول، ككبش القطيع، في صفوف المحاربين. إنه ليبدو لي أشبه بالكبش الكث الفراء، يجول خلال قطيع ضخم من النعاج البيضاوات»!

فردت عليه هيلين، المنحدرة من زوس، قائلة: «هذا أيضاً ابن لايرتيس، «أوديسيوس» الكثير الحيل، الذي شب وترعرع في أرض إيثاكا رغم وعورتها، وهو يعرف كل شيء عن الدهاء والخطط الماكرة»!

فقام «أنتينور» العاقل، يسألها: «سيدتي، لقد تكلمت بالصدق، اذ حدث فيما مضى أن جاء «أوديسيوس» العظيم إلى هنا، موفدا بشأنك، يرافقه مينيلاوس، العزيز لدى «أريس»، وكنت أنا الذي استقبلتهما ورحبت بهما في بيتي، فاستطعت أن أعرف شكل وحجم كل منهما وأساليبهما الماكرة. والآن عندما اختلطا بالطرواديين، وهم مجتمعون سويا، ما إن وقف الرجال حتى علا مينيلاوس بمكنبيه العريضين ومع ذلك، فلما جلس كلاهما كان أوديسيوس أكثر جلالا، بيد أنهما عندما شرعا يحيكان نسيج الكلام في حضرة الجميع راح مينيلاوس يتكلم بطلاقة، بألفاظ قليلة، ولكنها تامة الوضوح، لانه لم يكن بالرجل المحب للحديث المطول ولا المرواغة، ولو أنه كان في الحقيقة أصغر سنا. ولكن عندما نهض أوديسيوس، الكثير الحيل، كان يقف خافضا بصره إلى الارض، لا يحرك عصاه إلى الخلف أو الامام، بل يمسك بها بشدة، كما لو كان رجلا لا إدراك له، فكنت تظنه رجلا من سقط المتاع، بل وأحمق. بيد أنه إذا مال انطلقت الكلمات من شفتيه، وخرج صوته العظيم من صدره، كانت الالفاظ تتساقط كالزوابع الثلجية فلا يستطيع أحد من البشر أن يباري أوديسيوس، وعندئذ لم نتعجب من رؤية طلعة أوديسيوس».

ثم رأى الملك العجوز أياس، فسأل قائلا: «ومن إذن، هذا المحارب الآخي، الشجاع الفارع الطول، الذي يعلو أهل أرجوس برأسه وكتفيه العريضتين»؟

فردت عليه هيلين ذات الثوب الطويل، الفاتنة بين النساء: «هذا أياس الضخم، حصن الآخيين. وهناك يقف أمامه أيدومينيوس، في وسط أهل كريت، أشبه بإله، ويجتمع حوله قادة الكريتيين. وكثيرا ما كان يتوقف مينيلاوس، العزيز لدى أريس، إلى تكريمه في بيتنا كلما جاء من كريت. والآن، أرى باقي الآخيين المتألقي العيون، الذين أستطيع أن أميزهم بوضوح، وأذكر أسماءهم، ولكن هناك اثنين من قواد الجيش لا يمكنني أن أتبينهما: كاستور، مستأنس الخيول، والملاكم العظيم، بولودكيس، وهما أخواي اللذان أنجبتهما نفس الام. فإما أنهما لم يتبعا الجيش من لاكيدايمون الجميلة، وإما أنهما قدما إلى هنا في سفنهما ماخرة البحار، ولكنهما لم يجسرا على خوض غمار معركة المحاربين، خوفا من الالفاظ المخزية، وكلمات العار التي يرميني الشعب بها». هكذا قالت، لكن الرجلين اللذين تعنيهما كانت الارض واهبة الحياة قد احتضنتهما – قبل ذلك – في لاكيدايمون، في وطنهما العزيز.

وفي ذلك الوقت، كان الرسل يحملون الذبائح خلال المدينة لاجل نذور الآلهة المقدسة، وهي حملان، وزقّ من جلد الماعز، مملوء خمرا من ثمرة الارض، تدخل السرور على القلب، وكان الرسول «ايدايوس» يحمل طاسا لامعا وكؤوسا ذهبية، فجاء إلى جوار الملك وأيقظه قائلا: «انهض، يا ابن لاوميدون، فإن رؤساء الطرواديين، مستأنسي الخيول، والآخيين المدثرين بالبرونز، يستدعونك لتنزل إلى السهل كي تقسم بإيمان الثقة بالذبائح. لأن باريس ومينيلاوس، العزيز لدى أريس، سيتبارزان بالرماح الطويلة، من أجل تلك السيدة. ومن ينتصر منهما، تتبعه المرأة وكنوزها! أما نحن، فسنقسم على الصداقة وأيمان الثقة بالذبائح، ونعيش

في طروادة العميقة الخصب، أما هما فسيرحلان إلى أرجوس، مرعى الخيول، وآخيا، أرض النساء الفاتنات».

وإذ قال هذا، ارتعد الرجل العجوز، ورغم ذلك فقد أمر رفقاءه أن يضعوا النير فوق الجياد، فأطاعوا لتوهم. ثم صعد بريام، وسحب الأعنَّة إلى الخلف، كما صعد «أنتينور» إلى جانبه في العربة الفاخرة، وساق كلاهما الخيول عبر أبواب سكاي إلى السهل.

بيد أنهما ما إن وصلا إلى الطرواديين والآخيين، حتى نزلا من العربة إلى الأرض الفسيحة، وذهبا إلى وسط الطرواديين والآخيين. عندئذ قام أجاممنون، ملك البشر، وأوديسيوس الكثير الحيل، وجمع الرسل الملكيون الذبائح للأيمان المقدسة للآلهة، ومزجوا الخمر في الطاس، وسكبوا الماء على أيدي الملوك، واستل ابن أتريوس السكين المعلقة باستمرار إلى جانب غمد حسامه العظيم، ونزع الشعر من رأسي الحملين، فوزعه الرسل على رؤساء الطرواديين والآخيين. ثم قام أجاممنون في وسطهم، ورفع يديه يصلي بصوت مرتفع، قائلا: «أبانا زوس، يا من تحكم من إيدا، أيها الأمجد، أيها الأعظم، ويا أيتها الشمس التي ترى كل شيء وتسمع كل شيء، وأنت أيتها الانهار، ويا أيتها الارض، وانت يا من تنتقم في العالم السفلي من البشر الذين انتهوا من الحياة، وكل من أقسم حانثا، كونوا شاهدين، وراقبوا بايمان الثقة. فلو قتل الكساندر مينيلاوس، فدعوه يأخذ هيلين وكل أموالها، أما نحن فسنرسل في سفننا الماخرة. وإذا قتل مينيلاوس الجميل الشعر، الكساندر، فدعوا الطرواديين يردون هيلين وسائر أموالها، ويدفعون تعويضا مناسبا لاهل أرجوس حتى تستطيع الاجيال القادمة أن تتذكره. أما إذا لم يعتزم «بريام» وأبناؤه دفع التعويض لي، عندما يخفق باريس فإنني سأمضي في القتال حتى أحصل على التعويض، وأظل هنا إلى أن أضع حدا للحرب».

وبعد أن قال هذا، ذبح الحملين بسكينه البرونزية عديمة الرحمة، ثم

تركهما فوق الارض، يلهثان ويتنفسان بصعوبة، لأن السكين سلبتهما القوة. ثم صب القوم الخمر من الطاس في الكؤوس، وسكبوها على الأرض، وصلوا للآلهة الخالدة. فأخذ كل من الآخيين والطرواديين يردد: «أي زوس، أيها الأمجد، أيها الأعظم، ويا أيتها الآلهة الآخرى الخالدة. أيُّ الجيشين يبدأ بالعدوان حانثا في الأيمان، فلتسكب أمخاخ جنوده – هم وأطفالهم – فوق الارض انسكاب هذه الخمر، ولتصبح زوجاتهم جواري وإماء للاخرين».

هكذا قالوا، ولكن الوقت لم يكن قد حان بعد لابن كرونوس كي يحقق لهم دعاءهم. ثم قام بريام وسط الجموع، بريام ابن زوس، وقال: «أصغوا إليَّ أيها الطرواديون والآخيون المدرعون جيدا، الحق، إنني سأعود ثانية إلى طروادة الكثيرة الزوابع، اذ لا يمكنني بأية حال أن أحتمل أن تشهد عيناي ابني العزيز يتقاتل مع مينيلاوس، العزيز لدى أريس. ولكن هذا، على ما أعتقد، يعرفه زوس والآلهة الآخرون الخالدون، ويعرفون أيهما كتب له الموت».

هكذا تكلم الرجل الشبيه بالإله، ثم وضع الحملين في عربته، وصعد هو نفسه وجذب أعنة الخيل، وركب انتينور القائد العظيم الحكيم العربة الفاخرة إلى جواره، وانصرف كلاهما عائدين إلى طروادة.

وحين وصلا، لم يلبث هكتور بن بريام، وأوديسيوس العظيم، أن قاسا المسافة أولاً، ثم تناولا قطعة معدنية كقرعة وأخذا يهزانها في خوذة من البرونز، ليعرفا أيّ المتبارزين يبدأ بقذف رمحه البرونزي. وصلى الناس ورفعوا أيديهم إلى الآلهة، فارتفعت أصوات الآخيين والطرواديين ضارعين: «أبانا زوس، يا من تحكم من إيدا، أيها الأمجد، أيها الأعظم، من كان من هذين سببا في جلب المتاعب لكلا الشعبين، فاحكم عليه بالموت والدخول إلى بيت هاديس، بينما دعنا نحن نرتع في الصداقة ومواثيق الاخلاص».

وجعل هكتور العظيم، ذو الخوذة البراقة، يهز الخوذة وهو ينظر خلفه لفترة من الوقت، وسرعان ما وثب «باريس» خارجا. عندئذ اصطف القوم جلوسا، كل واحد حيث يوجد حصانه الواسع الخطى، وحيث توجد درعه المطعمة. وارتدى باريس العظيم، زوج هيلين ذات الشعر الجميل، دروعه الفاخرة حول منكبيه، ثم غطى ساقيه بدرعيهما الجميلتين المطعمتين بقطع من الفضة عند الركبتين. وبعد ذلك ارتدى درع شقيقه «لو كاون» حول صدره، وثبتها جيدا، وألقى حسامه البرونزي المطعم بالفضة على كتفه، ثم درعه الكبيرة المتينة، ووضع فوق رأسة خوذة قوية الصنع ذات خصلة من ذيل حصان – فكانت الخصلة تطل من الامام بشكل مخيف – ثم تناول رمحا صلبا ملائما لقبضته. وبنفس هذه الطريقة لبس «مينيلاوس» الجسور ملابس الحرب.

وبعد أن سلحا نفسيهما، على جانبي الحشد، سارا نحو الساحه الفاصلة بين الطرواديين والآخيين، والشرر يتطاير من أعينهما، فاستولت الدهشة على الناظرين من الطرواديين مستأنسي الخيول، والآخيين المدرعين جيدا، ثم اتخذ كل منهما وقفته متقاربين في المسافة، يلوحان برمحيهما كلٌ إلى الآخر في غضب. فقذف الكساندر برمحه أولا، مصوِّبا ضربة إلى درع ابن أتريوس، تلك الدرع المستديرة المتزنة من كل جانب، فلم يخترقها الرمح الطويل، ولكن طرفه انثنى فوق الترس القوي. وإذ ذاك هجم ابن أتريوس، مينيلاوس، برمحه، وهو يصلي لأبيه زوس قائلا: «أي زوس، مليكنا، هب لي أن أنتقم منه جزاء ما اقترفت يداه في حقي، أنتقم من باريس العظيم.. وأن تخضعه تحت قبضة يدي، كي ترتجف الاجيال القادمة لمجرد التفكير في الاساءة إلى المضيف الذي أظهر للضيف صداقته».

وما إن تكلم، وأصلح من اتزان رمحه الطويل الظل، حتى قذف به مصوبا الضربة إلى ترس ابن بريام المتزن جيدا من كل جانب. فنفذ الرمح

من الترس اللامع، ثم خلال درع صدره المرصعة بالاحجار الثمينة، ومرق إلى عباءته المدرعة عند جانبه، ولكنه انتحى مسرعا إلى جنب، فنجا من المصير الاسود! عندئذ شهر ابن أتريوس سيفه المرصع بالفضة، ورفع نفسه إلى فوق، كي يضرب حافة خوذته، غير أن السيف تحطم فوقها إلى ثلاث قطع، لا، بل أربع، ثم سقط من يده. وإذ ذاك، صاح ابن أتريوس صيحة مريرة ناظرا إلى السماء المنبسطة إلى بعيد، قائلا: «أبي زوس! ليس هناك إله آخر أشد منك إيذاء. حقا، لقد خيل إليَّ أنني انتقمت لنفسي من باريس بسبب فجوره، ولكن ها هو سيفي يتحطم الآن في يدي، وقد طار من قبضتي دون جدوى دون أن أجهز عليه»!

وما إن قال هذا، حتى وثب عليه وأمسك به من خوذته ذات خصلة شعر الخيل الغليظة، وألقى به إلى الأرض وشرع يجره صوب الآخيين المدرعين جيدا، فاختنق باريس بواسطة سير الخوذة الفاخر التطريز، المربوط بإحكام أسفل ذقنه الناعمة، والملتف حول عنقه البض. وكاد مينيلاوس يسحبه بعيدا، ويحظى بانتصار لا يوصف، لولا أن أفروديت ابنة زوس، أبصرت به في الحال. ولكي تنقذ باريس، قطعت السير المصنوع من جلد الثور إلى نصفين، فبقيت الخوذة خاوية في يد «مينيلاوس» القوية، وعندئذ طوح بها إلى جموع الآخيين المدرعين جيدا، فالتقطها زملاؤه المخلصون.

أما هو نفسه فقفز إلى الوراء من جديد، تواقا إلى قتل عدوه بالرمح البرونزي. ولكن أفروديت اختطفته بسرعة بقدرة الربة، وأخفته في غمامة كثيفة من الضباب، ثم وضعته في غرفته المعطرة، ذات القبو.

وذهبت أفروديت بنفسها لتستدعي هيلين. فألفتها فوق الحائط المرتفع، ومن حولها نساء طروادة جماعات. فأمسكت الربة بثوبها العبق، وجذبته، وتكلمت اليها متخذة صورة امراة عجوز ممن يغزلن الصوف كانت تهيئ لها الصوف الناعم أبان وجودها في لاكيدايمون، وكانت تحبها حبا جما. وفي صورتها تكلمت أفروديت الفاتنة، فقالت: «تعالي إلى هنا، إن باريس

يدعوك لتذهبي إلى بيتك. إنه هناك في غرفته مستلقيا فوق سريره المطعم، يتألق جمالا وبهاء. لم تكوني لتصدقي أنه سيعود بحال ما من قتال عدوه، ولكنك سوف تجدينه كما لو كان ذاهبا إلى المرقص، أو عائدا لتوه بعد أن كف عن الرقص».

وإذ قالت هذا، حركت قلب هيلين في صدرها، فلما أبصرت جيد الربة، وصدرها الجميل، وعينيها البراقتين، استولى عليها الذعر، فخاطبتها بقولها: «أيتها الربة الغريبة الاطوار، لماذا عولت على خداعي بهذه الكيفية؟ إنك - بعد أن رأيت كيف هزم مينيلاوس باريس العظيم، واعتزم أن يصحبني، أنا البغيضة، إلى بيته - لن تترددي في أن تقوديني إلى مكان بعيد بإحدى المدن المكتظة بالسكان، في فروجيا أو مايونيا الجميلة، لو وجدتِ لي هناك عاشقا عزيزا عليك من البشر! لهذا جئتِ الآن بنية سيئة! فاذهبي إذن. اجلسي إلى جوار باريس، واتركي طريق الآلهة، ولا تجعلي قدميك تحملانك بعد الآن إلى أوليمبوس بل احملي الهموم من أجل باريس، واحرسيه، إلى أن يتخذك زوجته، أو ربما جاريته. ولكني لن أذهب إلى هناك، فقد كان من العار أن أرتب فراش ذلك الرجل، ولسوف تنحي نساء طروادة جميعا عليَّ باللائمة، فضلا عن أن آلام قلبي لا حد لها!».

ثارت ثائرة أفروديت، فقالت: «لا تستفزيني، أيتها المرأة الطائشة، لئلا يتملكني الغضب فأهجرك، وأبغضك بقدر فرط حبي لك الآن، أو أدبر الكراهية المحزنة بين الطرواديين والدانيين على السواء، وعندئذ تلاقين شر ميتة تعسة!».

واذ قالت هذا، استبد الخوف بهيلين المنحدرة من زوس، فمضت صامتة وراء الربة، وقد التفت بعباءتها اللامعه المتألقة، فلم تبصرها النساء الطرواديات والربة تقودها إلى الطريق.

وعندما بلغتا قصر باريس الجميل، انهكمت الخادمات فورا في

أعمالهن. أما هي، الغادة الحسناء، فصعدت إلى الحجرة ذات السقف المرتفع، حيث أحضرت لها الربة أفروديت، المحبة للضحك، مقعدا ووضعته تجاه باريس. فجلست هيلين، ابنه زوس حامل الترس، ونظرت اليه شزرا بعينيها، وأنبت زوجها قائلة: «لقد عدت من الحرب! ليتك هلكت هناك، وصرعك الرجل الشجاع، الذي كان سيدي السابق. إنك كنت تزهو فيما مضى بأنك أفضل من مينيلاوس، العزيز لدى أريس، بقوة يديك وبرمحك. ولكن أتجرؤ الآن على الذهاب، لتتحدى من جديد مينيلاوس، العزيز لدى أريس، كي يشتبك معك في قتال، رجلا لرجل؟... لا، إنني، من تلقاء نفسي، آمرك بالإحجام، وألا تتعجل بمحاربة مينيلاوس الجميل الشعر، ولا تتقاتل معه بحماقتك، خشية أن تلقى حتفك سريعا برمحه»!

عندئذ تحدث اليها باريس، قائلا: «سيدتي، رفقا بقلبي من التأنيب بكلماتك القاسية، فلقد هزمني مينيلاوس، بمساعدة أثينا، ولكني سوف أقضي عليه في فرصة أخرى، لأن هناك آلهة تقف إلى جانبي. تعالي، هيا نأخذ حظنا من المتعة، فنضطجع معا ونرتوي من لذات الحب. فلم يسبق لي أن اجتاحتني مثل هذه الرغبة.. كلا، ولا حتى عندما خطفتك أولاً من لاكيدايمون الجميلة، في سفني ماخرة البحار.. وفي جزيرة كرانكاي نعمت بمقاسمتك فراش الحب.. والآن، تتملكني نفس الرغبة الجامحة والغرام الجارف»!

وإذ قال ذلك، سار أمامها إلى الفراش،فتبعته... وهكذا اضطجع كلاهما فوق الفراش المصنوع من الحبال، بينما كان ابن أتريوس يجوس خلال الجموع كوحش ضار، يود أن يقع بصره على باريس الجميل في أي مكان! ولكن ما من أحد من الطرواديين أو حلفائهم المشهورين استطاع أن يدل مينيلاوس، العزيز لدى أريس، على مكان باريس - والحق أنهم لم يرغبوا في إخفائه لو استطاع أحدهم أن يراه، لان الجميع كانوا يمقتونه

مقتهم للموت الأسود!. وعندئذ تكلم أجاممنون، ملك البشر، وسط حشدهم، قائلا: «اسمعوا ما أقول أيها الطرواديون، والدردانيون، ويا أيها الحلفاء: إنما النصر الآن من نصيب مينيلاوس، دون شك. فهل لكم إذن أن تسلموا هيلين الارجوسية، وما معها من أموال، وتدفعوا التعويض المناسب، بالقدر الذي لن تنساه الاجيال المقبلة»؟!

هكذا تكلم ابن أتريوس، فصاح جميع الآخيين مؤمنين على قوله.

وتم الصلح بين الطرفين

وعادت هيلين الجميلة.. أصل هذا البلاء.. الدمية التي أترعت بالمفاتن، وفاضت عيناها بسحر الهوى. عادت هيلين التي كان جمالها يخطف الأبصار، وتتقدم فتخطف القلوب، تود لو تغمرها لمحة من جمالها النضر وشبابها الساحر.

عادت الساحرة الجميلة.. إلى بلادها وزوجها بعد غيبة عشر سنوات مليئة بالأحداث والأحزان.



.هيلين الجميلة.

هستيا
(فستا)

إنها شقيقة زيوس وبنت كرونوس، كانت مثل أرتميس وأثينا، ربة عذراء. وحدث، بعد أن أطاح زيوس بعرش أبيه كرونوس، أن تنافس في طلب يدها كل من بوسيدون وأبوللون، وهي قصة لم تنشأ إلا لأنها عُبدت مع هذين الإلهين في دلفي. غير أن هستيا رفضت كل عروض الزواج التي تقدم بها الآلهة والبشر، وأقسمت برأس زيوس أن تظل عذراء إلى الأبد. وقد حاول بريايوس مرة أن يغتصبها. لكن ينبغي قبل أن أمضي في سرد القصة أن أبين من هو بريايوس.

لقد قيل عنه إنه كان ابن هرميس. وقيل عنه أيضا إنه كان أباه. وليس من المستبعد أن يكون «هما مفروديتوس»، أو أن يكون ابنا أنجبته أفروديتي من ديونيسوس أو أدونيس أو زيوس نفسه. وقد ولد مشوهاً مثل هفايستوس وفظيع الخلقة مثل بان، فكان طويل اللسان منتفخ البطن، جامح الشهوة إلى حد أن أمه تخلت عنه ونبذته وأنكرته إنكارا تاما. وفي الحق إنه كان أحد آلهة بلدة بريايوس، وهي ما نعرفها اليوم باسم بلدة الدردنيل. هذا الاله الغريب الشكل حاول مرة أن يغتصب الربة هستيا في حفل ريفي دُعي إليه الآلهة. ويبدو أن الآلهة شربوا وأكثروا من الشراب، فلعبت الخمر برؤوسهم وغلبهم النعاس وما لبثوا أن غطوا في نوم عميق. وانتهز بريايوس الفرصة فتسلل إلى مكان هستيا، ولكنها هبّت من نومها مذعورة على نهيق حمار، وصرخت بأعلى صوتها، فأطلق بريايوس ساقيه للريح دون أن يحقق بغيته. ألا فليحذر من يحاول انتهاك حرمة الضيوف من النساء اللاتي يكن تحت حماية الموقد المقدس. ويبدو أن الناس لم ينسوا هذه الحادثة فظلت الحمير تنحر قربانا لبريايوس في أماكن عبادته.

ولم تكن العذرية وحدها هي موضع افتخار هستيا، فقد كانت دون سائر آلهه أولمبيوس هي الوحيدة التي لم تشترك أبداً في حروب أو منازعات. ولهذا السبب استجاب زيوس إلى رغبتها في أن تكون الذبيحة الأولى من نصيبها في أي حفل عام للقرابين، وأن تحتل في أي منزل مكانه الأوسط، وبذلك أصبحت هستيا - كما يتبين من اسمها - ربة الموقد، رمز الحياة العائلية، وما يسودها من سلام وتضامن وهناء. لقد كان إضرام النار في العصور القديمة عملية شاقة تستغرق وقتا طويلا، لذلك أصبح إبقاؤها مشتعلة أمرا مرغوبا فيها. ويبدو أن موقد الزعيم أو الملك كان على جانب كبير من الأهمية بين الجماعات الأولى سواء في بلاد اليونان أو في إيطاليا إما لفائدته العملية أو لأسباب تتصل بالديانة والسحر. لقد كانت النار ترادف الحياة تقريبا. ومن ثم أصبحت عبادة الموقد الجماعي أو الموقد المقدس عادة شاملة. غير أن ربته لم تتخذ، كغيرها من الآلهة، أشكالا أخرى بشرية أو حيوانية، ولهذا لم تنشأ حولها أساطير تقريبا، ولم يرد لها ذكر عند هوميروس. وإنما كانت هستيا تبسط حمايتها على من يستجيرون بالموقد المقدس سواء في منزل خاص أم في مكان عام. وحول هذا الموقد كان يطاف بالمولود الجديد في اليوم الخامس من ولادته، وهو يوم الاحتفال بتسميته حتى يُعترف به عضوا في الاسرة.

وفضلا عن ذلك فإن كل وجبة من وجبات الطعام كانت تبدأ وتنتهي بتقديم القرابين إليها وكان اسمها أول ما يذكر عند الصلاة وأول ما ينطق به غالبا عند القسم.

وكما كان في كل بيت موقد لهستيا كان لكل مدينة موقد عام موقوف على الربة في قاعة البريتانيوم، وهي بمثابة دار الرياسة، حيث كان يستقبل الضيوف والأجانب. ولما كان لهستيا أيضاً موقد مقدس في معظم قاعات مجلس الشورى فإنها كثيرا ما نوديت باسم بوليا. وعند تأسيس أي مستعمرة يونانية كان المهاجرون يحملون معهم قطعاً من فحم موقد المدينة الأم لكي

يشعلوا به نار موقد المستعمرة الجديدة. ولقد رُوي أن كومة الفحم المتخلف تحولت في دلفي إلى صخرة مقدسة اشتهرت باسم «السرة» وهي التي توهم اليونان أنها مركز العالم. وتشاهد كثيرا في زخارف الأواني الخزفية.

ولقد عرف الرومان هستيا باسم فستا ربة النار المقدسة، وأقاموا لها معبدا خاصا في روما. وكان يقوم على خدمتها فيه ست عشرة فتاة عذراء يخترن من بين الأسر العريقة، ويبقين كذلك ثلاثين عاما. وكان الكاهن الأعظم هو الذي يتولى أمرهن يوقع عليهن الجزاء في حالة إهمالهن النار أو انحرافهن عن سواء السبيل. وحدث أن فرطت إحداهن في عفتها فكان جزاؤها أن دفنت حية.



هستيا.

آريس
(مارس)

كان آريس، ابن زيوس وهيرا، إله الحرب. ويحدثنا هوميروس بأن أبويه كانا يكرهانه، ويصوره إلها بغيضا حتى في الالياذة، مع أنها ملحمة تتغنى بالطعن والنزال. وقد يبتهج الأبطال أحيانا بخوضه المعركة، غير أنهم غالبا ما يبتهجون بنجاتهم من غضبه. فقد كان إلها قاسيا متحجر القلب لا يرحم. ويندد به هوميروس فيصفه بالقاتل، الملطخ بالدماء، وأنه لعنة على البشر. ومن الغريب أيضاً أن يصفه بالإله الجبان الذي يصرخ من الألم عندما يصاب بجراح. غير أن آريس كان له دائماً حفنة من الأتباع في ميدان القتال تعمل على بث الشجاعة في نفوس المحاربين. وتظهر ايريس ربة الشقاق، أختًا له في الالياذة، وتمشي ربة الحرب إنيو إلى جانبه في معظم الأحيان، وفي ركابها يمشي «الرعب» و«الارتجاف» و«الفزع» وفي أعقابها تتصاعد أنات المجندلين وتسيل الدماء في الأرض كالأنهار.

وقد أحب الرومان آريس الذي عرفوه باسم مارس أكثر مما أحبه اليونان. ولم يكن مارس عندهم ذلك الإله الهزيل الرعديد الذي يصوره هوميروس، بل كان إلها مهيبا لامع الدرع، براق السلاح، رهيبا لا يقهر. ونجد المحاربين في الانيادة - ملحمة الرومان الكبرى - يطربون لسقوطهم في ميدان مارس، أي في حومة الوغى، مجال الشهرة الأبدية، ويندفعون إلى الردى ليحرزوا المجد، كما كانوا يستعذبون الموت في المعركة.

ولم تنسج حول آريس سوى قليل من الأساطير. وأطرفها جميعا تلك التي تروي أن آريس هام حبا بأفروديتي، وأن الربة بادلته هذا الحب. وقد حدث ذلك في قصر زوجها هيفايستوس، وراء ظهره. وبذل آريس قصارى

جهده حتى نال منها بغيته. ورأى هليوس، إله الشمس، العشيقين في خلوتهما، فأخبر من فوره هيفايستوس، إله النار والحدادة. وقد حز الخبر في صدره، فأسرع إلى مصنعه حيث جالت بخاطره أفكار سوداء. وأعد سندانه الضخم، وصنع سلاسل من الحديد يستحيل تحطيمها أو فكها. على أن هذه السلاسل كانت على متانتها أشبة بشبكة دقيقة النسيج حتى لا تكاد تراها العين وكأنها خيوط العنكبوت. وعلقها هيفايستوس فوق قوائم سريره، وارتحل أو هكذا زعم، إلى لمنوس، جزيرته المفضلة. وبذلك تهيأت الفرصة التي طالما ترقبها العاشق الولهان. ودخل آريس قصر أخيه الغائب وهو يتحرق شوقا إلى لقاء أفروديتي الجميلة التي كانت قد عادت من زيارة أبيها زيوس منذ لحظات. وأمسك آريس بيدها فسرت في أوصاله نار الشهوة الجامحة، ودعاها إلى مضاجعته. ولم تتمنع أفروديتي عليه لأنها لم تكن أقل منه رغبة. وضمَّهما فراش أثيم وأسكرتهما النشوة فاستسلما للنوم العميق. وسرعان ما أطبقت عليهما الشبكة الحديدية التي صنعها هيفايستوس، فاستحالت عليهما الحركة ووجدا نفسيهما مقيدين بأغلال لا يستطيعان منها فكاكًا وأدركا من فورهما أنهما قد وقعا في شراك متين.

وفاجأ هيفايستوس العشيقين متلبسين بالجريمة، لأن هليوس، إله الشمس، الذي كان يراقبهما من بعيد، فضح سرهما للزوج المسكين. ووقف هيفايستوس عند باب الغرفة يرغي ويزبد، ثم نادى بصوت رهيب جميع الآلهة قائلا: «أي زيوس، أيها الأرباب، تعالوا اشهدوا أي مهزلة تجري في رحاب هذا المنزل، تعالوا اشهدوا كيف تلحق بي أفروديتي، ابنة زيوس، العار دائما لأنني رجل مشوه. إنها تحب آريس الملك، لأنه وسيم، وساقاه سليمتان، بينما أنا أعرج. لكن والدَيَّ هما الملومان على ذلك، فما كان ينبغي أن ينجباني ويا ليتني ما ولدت! انظروا كيف يستلقي في فراشي هذان العاشقان اللذان أسكرتهما خمرة الحب! إنهما ليؤذيان بصري أشد الإيذاء. ويبدو لي أنهما معا سيظلان كذلك فترة طويلة لأنهما

يحبان أحدهما الآخر حبا قويا. لكن سرعان ما سوف يزهدان في الرقاد، عندما يحسان أن السلاسل التي تقيدهما محكمة كل الإحكام، ولن أخلي سبيلهما حتى يرد لي زيوس ما قدمته له من هدايا من أجل ابنته الوقحة المبتذلة. إنني لا أنكر أنها جميلة، ولكنها أبعد الإلهات عن الطهر والعفة».

وتجمَّع الآلهة في قصره ذي المدخل النحاسي. وقد حضر إليه بوسيدون وهرميس وأبوللون. وأما الإلاهات فقد منعهن الحياء من الحضور فلزمن بيوتهن. ووقف الآلهة عند باب الغرفة، وأغرقوا في الضحك عندما رأوا ما دبره هيفايستوس من حيلة ماكرة للإيقاع بالعشيقين. وقال أحدهم للآخر: «لا خير في الفحشاء ولا جدوى من المكر. لقد أمسك البطيء بالسريع. إن من يزني لا بد له من التكفير عن خطيئته». ثم سأل أبوللون هرميس: «أتحب يا هرميس أن ترقد مقيدا بالأغلال إلى جانب أفروديتي الذهبية؟». فأجابه هرميس: «آه أستطيع ذلك، وإن قيدت بسلاسل أقوى من هذه ثلاث مرات، وإن حضرتم جميعا أيها الآلهة لتروني، فكم أتمنى أن أسترخي بجانب أفروديتي الذهبية». وضج الآلهة بالضحك، ما عدا بوسيدون الذي توسل إلى رب الصناع أن يطلق سراح آريس، واعدا إياه باسم جميع الآلهة أن يكفر له آريس عن خطيئته. ووافق هيفايستوس بعد تمنُّع، وفكَّ قيد العشيقين اللذين انطلقا خارج القصر. وقد رحل آريس إلى طراقيا، ورحلت أفروديتي إلى معبدها في بافوس بجزيرة قبرص حيث استقبلتها ربات البهاء في ترحاب وقدنها إلى الحمام حيث اغتسلت. ثم مسحن جسمها اللدن بذلك الزيت الخالد الذي يفوح شذاه دائما من الآلهة، ثم دثرنها ثانية في ردائها الزاهي البهيج وكأن شيئا لم يكن.



أرتميس
(ديانا)

كانت ربة مينوية الأصل، وتظهر في أشعار هوميروس كابنة لزيوس وليتو، وشقيقة توأم لأبوللون. ولم تتزوج أرتميس أبدًا فظلت كأثينة وهستيا، ربة عذراء. ولما كانت ربة المناطق غير المنزرعة كالجبال والغابات والمروج البرية حيث تكثر الوحوش كالأسود والدببة والحيوانات غير المستأنسة كالظباء والأيائل، فقد اشتهرت أرتميس التي انتشرت عبادتها انتشارا واسعا بأنها ربة الصيد. وفي المناطق كانت الربة تمضي الوقت لاهية في القنص والرقص مع رفيقاتها العذارى من الحوريات والعرائس. وشد ما كان يبتهج قلبها برقصات فتيات قرية كرياي الشهيرة بأشجار الجوز، هؤلاء الفتيات اللائي كن يرقصن تحت ضوء القمر في نشوة بالغة رقصا دائريا حاملات فوق رؤوسهن سلالا من البوص، كأنهن أشجار راقصة، فلا عجب أن لقبت أرتميس باسم هذه القرية.

وبما أنها كانت عذراء فقد كانت صويحباتها عذارى مثلها، ويا ويل للرجل الذي يحاول أن يراها خلسة وهي تستحم في جدول أو ينبوع! فعندما اجترأ سيرويتيس الكريتي على رؤيتها وهي عارية، حولته الربة إلى امرأة! وكثير منا يعرفون قصة أكتايون وهي قصة مفجعة، رويت بأشكال مختلفة وأكثر هذه الروايات تداولا ما تقول إن أكتايون الذي رباه خيرون ودربه على الصيد، فاجأ أرتميس مرة وهي تستحم فاقتصت منه الربة بأن مسخته أيلا، وهو حيوان محبب لدى أرتميس، ولكنه راح ضحيتها في هذه المرة. ذلك أن كلاب أكتايون انقضت على سيدها بعد أن صار أيلا ومزقته إربا. واضطلعت أمه أوتونوي بمهمة جمع عظامه المتناثرة، وهي مهمة

محزنة ثقيلة على قلوب الأمهات. وفي رواية أقدم أن أكتايون تنكر في جلد الأيل، وتودد إلى أرتميس في هذه الصورة، وحاول اغتصابها، فلقى جزاءه الرهيب.

وثمة قصة محزنة أخرى عن أرتميس كانت بطلتها كالسيتو، وهي إحدى رفيقاتها. وهذا الاسم مشتق من صفة بمعنى «الأجمل» أو المتناهية في الجمال، وعرفت به أيضا أرتميس نفسها. ولقد رُوي أن كالسيتو كانت حورية صائدة ترتدي نفس الزي الذي ترتديه الربة. ويختلف اسم أبيها باختلاف الروايات، كما يختلف اسمها نفسه من قصة لأخرى. وعلى أي حال فان زيوس أغواها بعد أن تمثل لها في صورة أرتميس نفسها وفقا لما ورد عند كاتب هزلي. وقد كان لأرتميس في القصص القديمة شكل الدبة، وجامع زيوس كالسيتو وهو في شكل الدب. واكتشفت الربة ذات يوم وهي تستحم في ينبوع أن إحدى رفيقاتها حامل. فمسختها في سورة غضبها دبة. ومع هذا فقد ظهرت كالسيتو في السماء آخر الأمر كنجمة تحمل اسم «الدب الأكبر» بعدما أنجبت من زيوس ابنا أصبح الجد الأول لسكان أركاديا في البلوپونيز. ويرتبط اسمه أركاس بلفظ أركتوس أي الدب. وقيل أيضا إن كالسيتو حملت توأمين: أركاس وپان، إله غابات أركاديا الذي كان نصفه الأسفل في شكل جدي، وتتفق طبيعة أركاديا المقفرة وطباع سكانها البدائية مع أمثال هؤلاء الآلهة والأجداد كل الاتفاق.

وتقترن قصة بريتومارتيس أيضاً بالربة أرتميس. وبهذا الاسم كان سكان كريت يبتهلون إلى عذراء الإلهية حبيبة إلى قلب أرتميس. ولعل اسم بريتومارتيس يعني في الكريتية «العذراء الحلوة». وقد عرفت أيضاً في أجزاء من جزيرة كريت الكبيرة باسم «ربة جبل دكتي» وهو اسم يتضمن معنى الشبكة. وفي الواقع أن الشبكة لها دور في القصة. فقد رُوي أن بريتومارتيس كانت ابنة أنجبها زيوس في كريت. ولما شبت عن الطوق أصبحت حورية تهوى الصيد. وقد تدله مينوس بن زيوس في حبها، فتعقبها

في جبال الجزيرة. وأخفت الحورية نفسها تارة وسط غابات البلوط، وتارة أخرى في المروج المنبسطة. وظل مينوس يطاردها تسعة أشهر دون أن يكلّ من المطاردة. وكاد مرة أن يظفر بها عند سفح منحدر على جبل دكتي عندما اشتبك ثوبها في فرع شجرة من أشجار الآس. ولكنها قفزت من أعلى الشجرة إلى البحر حيث تلقتها شبكة أحد الصيَّادين. وعندئذ رفعتها أرتميس إلى مصاف الربات. وأما سكان جزيرة إيجينا فيروون أن بريتومارتيس جاءت إلى جزيرتهم في زورق صياد يدعى أنروميديس، وأن هذا الصياد حاول اغتصابها، ولكن الربة اختفت في تلك الغابة التي كانت تكسو حينئذ الجبل الذي يقوم عنده معبدها. على أنها لم تعرف في إيجينا باسم بريتومارتيس، بل باسم أفيا لأنها اختفت فجأة عن الأنظار.

وكانت أرتميس فوق ذلك كله تحمي مواليد الحيوان والإنس وتقوم بحضانتهم وتُعنى بصحتهم. ولعل ذلك يفسر كيف أصبحت تعين النساء في ساعة الوضع، وأصبحت نظرا لأهميتها عند الأمهات، ربة مدنية أي من ربات المدينة، مثلها في ذلك مثل إيليثيا الربة القابلة. ومن ثم جاء الخلط بين أرتميس وهكاتي التي كانت هي الأخرى تقوم بتربية الأطفال. وكذلك الخلط بين سليني، ربة القمر، وبينهما بوصفها شقيقة أبوللون الذي خلط بينه وبين هليوس، إله الشمس. ومع حرصها على الصغار ورعايتها إلا أنها حالت دون إبحار الأسطول الإغريقي إلى طروادة قبل أن يضحّي لها بصبية عذراء. ويكشف هذا السلوك عن جانب مناقض لصفاتها المعروفة، ولا يعدو أن يكون إحدى المتناقضات التي تزخر بها الأساطير ولا نعرف لها تفسيرا. ولما كانت أرتميس ماهرة، كأخيها أبوللون، في رمي السهام، فقد كان يعزى إليها موت النساء فجأة دون ألم.



بيجماليون

أيها الحب.. أنت إله
أيتها الرغبة.. أنت ربة
أيها الحب.. سهمك النافذ أصاب أعماق قلبي
أيتها الرغبة سهامك الدافئة انتشرت في كل جسدي
لن أقاومك أيها الحب فأنت قادر
لن أتحداكِ ايتها الرغبة فانت قادرة
قادر، تصنع من الجمر الصلب قلبا نابضا
قادرة، تجعلين من الحجر الصلب جسدا حيا
قادر، تصيب بسهمك النافذ كل قلب
قادرة، تنشرين سهامك الدافئة في كل جسد
ولا يسعد القلب النابض الا بقلب نابض مثله
ولا ينعم الجسد الدافئ الا بجسد دافئ مثله

بيجماليون
في تضرعاته



بيجماليون

سئم بيجماليون حياته مع النساء الفاجرات.. العاهرات، سئم حياة الرذيلة والعشق مع نساء البشر.. لقد وجد فيهن المكر والخداع في سبيل الحصول على شهوة وقتية زائلة.. كان يرى نفسه وهو الفنان البارع أنه عبد لتلك المرأة التي يضاجعها. ثم يضاجعها غيره أو قبله.. لقد كره هذه الحياة الحيوانية التي يعيشها.. وارتضى لنفسه أن يعيش حياة العزوبية بعيدا عن النساء. غير أنه استطاع أن يقضي وقته كله في نحت تمثال عاجي في بياض الثلج، وصاغه في أجمل صورة لامرأة جميلة حسناء يفوق جمالها نساء الأرض أجمعين.

وكان كل يوم يقضي الوقت الطويل في تأمل هذا التمثال الرائع.. وفي الحقيقة، كان التمثال يفيض حيوية حتى ليخيل إلى المرء أنه يوشك أن يتحرك أو ينطق..

لقد انبهر بيجماليون بما صنعت يداه، وما كان يظن أنه استطاع أن يصنع هذا التمثال الذي يكاد أن يكون حقيقة... امرأة حقيقية من لحم ودم.

وأخذ قلبه يولع شيئا فشيئا بهذه المحاكاة لجسد المرأة، فهام بالتمثال وعشقه عشقا مبرحا. وقد راح يتحسسه ويمر بأنامله عليه في لمسات رقيقة حالمة وهو لا يكاد يصدق أنه صانع التمثال.. وأنه من العاج

وكان يقبِّل التمثال بحرارة ويمر بشفتيه عليه كأنما يقبل امراة حقيقية.

وكان يقف أمامه الساعات الطوال يحدثه ويبثه لواعج حبه والتمثال أمامه صامت لا يتحرك ولا يتكلم. وكان يحمل اليه الهدايا من كل صنف ونوع.. طعام وشراب.. ذهب.. أقراط.. زهور وورود. وكان يلف عنقه بعقود من لؤلؤ، ويضع في أذنيه أقراطا من لالئ، ويلفه بغلالات شفافة رقيقة تبرزه في أجمل صورة.. صورة المرأة الحسناء الجميلة..

وإذا ما أقبل الليل.. كان يُرقده فوق فراش من ريش النعام ويضع رأسه فوق وسادة من زغب البجع.

لقد هام بيجماليون بالتمثال وعشقه كما يعشق الرجل المرأة.. وأصبح مهووسا لا يفارقه لحظة واحدة، كأنما يخشى عليه أن يعشقه رجل آخر غيره.

وجاءت أعياد فينوس التي تقام في أنحاء قبرص محاطة بالمرح والسرور والإجلال، وأقيمت الولائم والحفلات، ونحرت العجول، وقدمت على المذابح، وبدأ البخور يتصاعد في كل مكان، وراح المنشدون ينشدون الاغاني الجميلة ويرتلون بأعذاب الألحان..

وجاء بيجماليون يقدم قربانه ويصلي خاشعا إلى جوار المذبح وهو يتمتم بصوت خفيض لا يسمعه أحد:

إلاهتي الجميلة...

إذا كان في قدرتك، أيتها الإلاهة، أن تهيِّئي كل شيء فهَيِّئي لي القدرة على الصراحة اليك.. وامنحينى ايتها الإلاهة المقدسة زوجة على غرار العذراء التي صنعتها بيدي. تقبلي دعائي ولا تخيبي رجائي، وإني لك من الشاكرين أيتها الإلاهة المقدسة.

واستجابت الإلاهة.. ربة الحب والجمال... فينوس.. لتضرعات بيجماليون وارتفعت ألسنة اللهب في الهواء واشتعلت ثلاث مرات. وهذه علامة الاستجابة.

وأحس بيجماليون أن دعواته قد استجابت.. وراح يحث الخطى نحو داره. وما كاد يخطو نحو التمثال الذي صنعه بيده ويميل عليه ويقبله كعادته حتى أحس بدفء الحياه يدب فيها.. ومد يده يتحسس صدرها فإذا العاج طريٌّ ليِّن.. وإذا بشرتها تلين للمسات أصابعه كما يلين الشمع من حرارة الشمس.. لقد تأكد أنه يتحسس لحما ودما. جسدا بشريا.. امرأة حقيقية

وليس تمثالا منحوتا من العاج الأبيض. لقد دبت الحياة في الجماد وأصبح بشرا حيا يفيض حيوية ونشاطا.

وما إن استوثق بيجماليون، الفنان الرائع، أن التمثال عاد حيا حتى لهج بالشكر لفينوس وراح يمتص بشفتيه تلكما الشفتين اللتين أخذتا تنبضان بالحياة.

وأحست العذراء بحرارة قبلاته فاحمر وجهها خجلا، ورنت اليه في رِقَّةٍ وأنوثة، واختلست النظر اليه فإذا هي ترى لأول مرة في حياتها صفحة وجهه مع بياض النهار في وقت واحد.

وأقامت لهما فينوس عرسا رائعا تحت رعايتها حضره الآلهه والبشر في بهجة ومرح وجمال يفوق الوصف والخيال.

ومضت الايام والشهور والعروسان في سعادة وهناء.

وانجبت العروس طفلة رائعة الجمال اسمتها بافوس. وبهذا الاسم سميت الجزيرة التي يعيشان فيها بهذا الاسم الذي لا ينسى أبدا.



.بيجماليون. مع .غلاطيه.

خيانة زوجة مينوس البشعة

مينوس هو ابن الإلاهه أوروبا التي أنجبته من الإله زفس الذي أصبح ملكا على جزيرة كريت. وقد تزوج مينوس من فتاة جميلة تدعى بازيفاني، أنجبت له طفلا سمَّاه أندروجي وطفلة سمتها أريان. وقد لعبت أريان دوراً كبير في الأحداث التي وقعت في مملكة والدها. لقد كان مينوس من أقوى ملوك عصره، وقد حاول السيطرة على مملكة اليونان. لذا وقعت بينه وبين البلاد اليونانية، خاصة أثينا، حروب عديدة، كان النصر دائما حليفه.

وفي إحدى هذه الحروب، ترك مينوس جزيرة كريت، وهاجم على رأس جيشه مدينة ميجارا، بسبب خلاف وقع بينه وبين ملكها العجوز نيزوس. وحاصر مينوس ميجارا بضع سنوات دون أن يتمكن من غزوها لأنها كانت محمية بشعرة سحرية، أرجوانية اللون، تنبت في رأس ملكها نيزوس، ولا يقوى أحد على احتلال المدينة والقضاء على ملكها إلا إذا حصل على تلك الشعرة السحرية.

ويحيط مدينة ميجارا سور هائل، يُعتقد أن أبولون، إله النور والفنون، وضع عليه يوما قيثارته، فصارت حجارته تردد نغماتها. وكان للملك نيزوس فتاة تدعى سيلا، تذهب كل يوم إلى السور، وتلهو برشقه بالحصى الصغيرة، فتردد حينئذ حجارته نغمات قيثارة أبولون. وأثناء هذه الحرب، جاءت الفتاة يوما كعادتها إلى السور، وصعدت إلى أحد أبراجه، وأشرفت على السهول المحيطة بالمدينة حيث تدور المعارك. واتفق أن مر الملك مينوس على حصانه بقرب البرج الذي تقف عليه الفتاة الجميلة فشاهدته يقف بأسلحته البراقه وثوبه الأرجواني، وأعجبت به دون أن تعرفه. وكأنه قرأ في نظراتها إعجابها، فأوقف حصانه أمامها ورفع خوذته عن رأسه تحية

لها، وكشف عن وجهه الرائع، ثم همز حصانه فراح يعدو مبتعدا كالبرق الخاطف. فعرفت سيلا للحال أنه الملك مينوس، ووذت لو تلقى بنفسها من أعلى البرج لتسقط بين يديه.

ورجعت الفتاة إلى بيت والدها وفي نفسها شعوران من هذه الحرب: شعور بالحزن لأنها جعلت من مينوس خصما لوالدها، وشعور بعرفان الجميل لأن لولاها لما رأت هذا الشاب الفاتن ولا عرفته.

وقضت الليل شاردة تفكر في حيلة تنهي بها هذه الحرب وتقربها من الشاب الذي أحبته. وكانت تحدث نفسها قائلة: «لماذا تستمر هذه الحرب، وتقضي على أبناء وطني دون مبرر؟ لماذا أتركهم يعانون الحرمان والشقاء من حصار لن ينتهي إلا بسقوط المدينة في يد من تعلق به قلبي؟ أليس من الأفضل أن أضع حدا لهذه المأساه؟ فَلْأُسرعْ إلى مينوس وأُضَحِّ بنفسي مقابل أن يكف عن القتال، ويعود إلى بلاده. ولكن كيف العمل للوصول اليه والأبواب مغلقة؟». وقطبت حاجبيها وراحت تفكر وتفكر إلى أن أشرق وجهها وانفرجت أساريرها واهتدت إلى فكرة ناجحة. فقامت إلى غرفة أبيها خلسة، وشاهدت الشعرة الارجوانية تلمع بين شعراته البيض، فنزعتها بخفه ورشاقه، وحملتها وخرجت مسرعة. ولما وصلت إلى السور انفتحت لها الأبواب من تلقاء نفسها، وذلك بلا شك بفضل الشعرة السحرية التي بين يديها. فاجتازتها واتجهت نحو مخيم الاعداء، واهتدت إلى خيمة مينوس ودخلت عليه، فدهش لدخول فتاة عليه تحت جنح الظلام.

وسألها: من أنت وماذا ترغبين؟

فسارعت إلى الإجابة: أنا سيلا ابنة الملك نيزوس، جئت إليك لأنهي الحرب بيننا، وأكون جارية من جواريك. خذ هذه الشعرة السحرية لتكون رمزا لحبي الكبير لك. وأعلم أن في تسليمي إياها اليك، إنما أسلمك مملكة أبي ومفاتيح أبوابها.

ثم فتحت يدها وقدمت له الشعرة الأرجوانية. فذعر مينوس واستعظم خيانتها لأبيها، وصاح بها غاضبا: «لتلعنك الآلهة وتطردك من هذه الدنيا. أنت عار على أهلك. وانا لا أرضى بأن تتدنس كريت موطن زفس بقدميك».

قال هذا، وانتزع الشعرة منها. وافتتح مدينة ميجارا في اليوم التالي، وأخضع ملكها، وفرض على أهلها ضريبة خفيفة، وعاملهم معاملة عادلة، ثم قفل عائدا إلى بلاده.

أما سيلا فقد غضبت غضبا شديدا على مينوس لتركه أياها، وقد منعتها خيانتها من العودة إلى والدها، فراحت تلطم وتندب حظها وقد شعرت بتأنيب ضميرها.

ورأت سفن مينوس تبتعد في البحر، فقررت اللحاق بها، وألقت بنفسها في البحر وراحت تسبح حتى أدركت سفينة مينوس وتعلقت بها.

وكان زفس، سيد الآلهة، قد عرف بما لحق بأبيها الشيخ من خيانة وهزيمة، فأشفق عليه وحوَّله إلى نسر بحري قوي الجناحين. فطار إلى البحر وراح يحوم فوق سفينة مينوس، وشاهد ابنته الخائنة متعلقة بها، فانقضَّ عليها يريد تمزيقها، وارتجفت لرؤيته وأرخت يديها وسقطت في الهواء، لكنها لم تلامس الأمواج، لأن أحد الآلهة عطف عليها وحوَّلها إلى عصفور يسمى أيريس، ألوانه الزاهية تذكرها بشعرة والدها الأرجوانية.

ورجع الشاب إلى مملكته منتصرا، لكن في غيابه حدثت أمور سببت له حزنا شديدا. وسبب ذلك أن بوسيدون، إله البحار، كان قد أهداه ثورا رائع الجمال لكي يقدمه ضحية له، لكن مينوس أعجب أعجابا كبيرا بهذا الثور، وفضَّل الاحتفاظ به، فغضب بوسيدون عليه وقرر الانتقام منه. وفي أثناء حروب مينوس مع ميجارا، أوقع زوجته بازيفاني في حب هذا الثور، فما إن رأته بين ثيران زوجها حتى أغرمت به، وراحت تتبعه في المراعي والحقول، وتجمع له الأوراق الناضرة والأعشاب الندية، وصارت تشعر

بالغيرة من كل عجلة تقترب منه. وبلغ من غيرتها أن أمرت بإخراج العجلات من القطعان، وبذبحها وتقديمها ضحية للآلهة. وكم تمنت أن يركبها هذا الثور على ظهره ويخطفها، كما خطف ذاك الثور الأشقر أوروبا أم زوجها. لكن هيهات ما اشتهت. أخيرا رأت أن تلجأ إلى التمويه والخديعة للتقرب منه، فتزيت بزي عجلة وراحت تلاطفه وتداعبه حتى استطاعت أن تنام معه. وقد كان ثمرة هذا الحب الشاذ أن أنجبت مينوثور، وهو مولود عجيب برأس ثور وجسم إنسان.

ولما وصل مينوس إلى كريت وشاهد المينوثور، ثمرة خيانة زوجته بازيفاني حتى أصابه حزن شديد، وصار يفكر في وسيلة يبعد فيها هذا المخلوق الغريب عن أعين رعيته. وكان في كريت مهندس بارع في فن البناء يدعى ديدال، فاستقدمه مينوس وطلب منه أن يبني دهاليز متشابكة، متعرِّجة، يضيع فيها من يدخلها فلا يهتدي إلى الخروج منها. فبنى له ديدال دهاليز كريت الشهيرة، وسجن مينوس المينوثور فيها حتى لا يستطيع الخروج منها.

فى ذلك الحين وقع خلاف قوي بين مينوس وايجه ملك أثينا. وسبب ذلك أن أندروجي، ابن مينوس الوحيد، قام بزيارة لأثينا، فأساء ملكها ضيافته وتسبَّب بمقتله، إذ أرسله بمهمة لصيد ثور بري خطير، فتفوَّق الثور على أندروجي وقتله. فجن جنون والده مينوس، وانتقم من أثينا بأن أرسل لها جيشا احتلها، واجبر أهلها أن يرسلوا اليه كل سنة سبعة شبان وسبع شابات ليدخلهم الدهاليز ويفتك بهم المينوثور.

وكان لايجه، ملك أثينا، شاب يدعى تازه، هو شاب محارب قوي أمضى شبابه في القضاء على قطاع الطرق. وأشهر هؤلاء بروكست الذي كان يقبض على المسافرين ويجبرهم على النوم على سريره الحديدي، فمن وجده أطول من السرير قطع له ما زاد منه، ومن كان أقصر من السرير شده حتى اصبح بطوله. وقد هاجمه تازه وقتله بالطريقة التي كان يقتل بها الناس.

وقد تألم تازه للذل الذي أنزله مينوس بمدينته، وتأثر للمصير المشؤوم الذي ينتظر شبان وشابات أثينا في دهاليز كريت. وقدم نفسه ليكون بين السبعة المختارين للذهاب إلى كريت. وقد أكبر فيه الاثينيون شجاعته وتضحيته، دون أن يعلموا أن في نيته القضاء على المينوثور، لأنه لم يخبر سوى أبيه بهذا الأمر. ورحل الشاب على سفن سود الأشرعة، ووعد أباه بإنه إذا عاد منتصرا على المينوثور سيرفع أشرعة بيضاء بدل الأشرعة السوداء.

وحين وصل تازه مع رفاقه إلى كريت، أخذهم الحراس إلى المدينة، وطافوا بهم في الشوارع أمام السكان. وكانت أريان، ابنة مينوس، بين جمهور المشاهدين، وأعجبت بالشاب تازه وشجاعته، وأحبته من النظرة الأولى، ودعت إليها ديدال، مهندس الدهاليز، وسألته عن طريقة للخروج منها. ثم ذهبت خفية إلى تازة وقالت له بأن في إمكانها أن تساعده على الخروج من الدهاليز إن هو وعدها بأن يصحبها معه إلى بلاده ويتزوجها. فاستجاب تازه لطلبها، وأقسم الوعد لها راضياً مسروراً. عندها أعطته كرة من الخيطان وعلمته بأن يربط طرفها بباب الدهاليز، ويحلها كلما تقدم في الداخل، هكذا يمكنه أن يعود أدراجه متتبعا الخيط، دون أن يضلَّ الطريق.

ودخل تازه إلى الدهاليز، واثق النفس، لمصارعة المينوثور، فوجده نائماً، فاستل سيفه وأسرع نحوه، وطعنه في عنقه طعنة خرجت من ذقنه وسمرته في الأرض، ثم راح يضربه حتى أجهز عليه. بعد ذلك أمسك بالخيط وعاد مع رفيقيه من حيث أتى. وعند خروجه وجد أريان بانتظاره، فاختطفها وأسرع إلى سفينته وأبحر بها.

وحينما مر بجزيرة ناكسوس، حملها وهي نائمة ووضعها على الشاطئ وأبحر إلى أثينا، تاركا إياها وحدها. ومن فرط فرحه نسي أن يبدل أشرعته. وبقيت الأشرعة السوداء وحدها مرفوعة فوق السفن. وكان والده - ايجه - يراقب البحر من قمة الأكروبال، ورأى الاشرعة السوداء تطل في الافق، فأيقن أن ولده قد قتل، وألقى بنفسه في البحر يأسا وحزنا، ومات

غرقا. وسُمِّيَ منذ ذلك الحين ذاك البحر باسمه: «بحر إيجه»، وأصبح تازه ملكا بعد والده.

أما أريان فلبثت نائمة على رمال شاطئ جزيرة ناكسوس. وعندما استيقظت من نومها ولم تجد أثرا لتازه، خافت وارتعدت، وسالت دموعها على خديها، وراحت تلطم وتبكي حظها التعيس، وتشكو للآلهة تازه الخائن. ولم يكن لديها طعام أو شراب. ووقفت عارية القدمين على الشاطئ وهواء البحر يتلاعب بشعرها الأشقر الطويل، لا تدري ما تفعل. وفيما هي على هذه الحال، سمعت صنوجا تدق وطبولاً تقرع، فدهشت وارتعبت، ونظرت إلى مصدر الضجة، فرأت عرائس البحر تحيط بفهد يركب على ظهره شاب تتدلى أغصان العنب فوق كتفيه. فعرفت للحال أنه موكب ديونيزوس، إله الكرمة. وحاولت الهرب، لكن قدميها لم يسعفاها لشدة خوفها، فاضطربت وارتجفت كريشة في مهب الريح، ووقفت مكانها لا تتحرك. واقترب ديونيزوس من الفتاة الخائفة، وسألها من تكون، فأخبرته أنها أريان بنت مينوس، فقال لها: «لا تخافي يا ابنة مينوس، نحن أقارب، فجدتك أوروبا هي أخت قدموس، وأنا ابن سيميلا بنت قدموس، وسأتخذك زوجة لي، وستقيمين سعيدة معي في جبل الأولمب».

قال هذا وطوق خصرها بذراعيه وأصعدها إلى جانبه، وانطلق بها، وعرائس البحر تنشد من حولهما أناشيد العرس والحب والجمال.

أما الملك مينوس فعندما علم بخروج الشبان الاثينيين من الدهاليز سالمين، وبهرب أريان معهم، ألقى القبض على المهندس ديدال وزجه مع ابنه إيكار داخل الدهاليز، لاعتقاده أن الاثينيين لم يفعلوا ما فعلوا إلا بمساعدته.

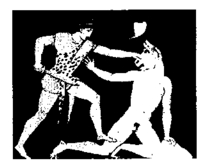
لكن المهندس البارع لم ييأس وهو داخل الدهاليز، وقال لابنه: «إن طريق البر والبحر مسدودان أمامنا، أما طريق الفضاء والسماء فطليق». وصنع زوجين من الأجنحة، وثبتهما بالشمع في كتفيه وكتفي ابنه. وقبل أن

يبدءا بالطيران، أوصى ديدال ابنه بألا يعلو كثيرا في الفضاء ويقترب من الشمس حتى لا يذوب الشمع وينفصل الجناحان عن الكتفين.

ثم انطلقا طائرين في الفضاء، وابتعد عن كريت، ووصلا فوق البحر. عندها دفع غرور الشباب إيكار للطيران عاليا، دون أن يصغي لتحذيرات والده وصيحاته الملهوفه، فذاب الشمع وانفصلت جناحاه، وسقط في البحر. أما الوالد الحزين فقد تابع الطيران، إلى أن حط في صقلية حيث استقبله ملكها كاكالوس استقبالا حاراً.

وعندما عرف مينوس بهرب ديدال، جن جنونه، وقد صمم على البحث عنه وإعادته، مهما كان الثمن. وراح يفكر في حيلة تمكنه من مراده. فأعلن في طول البلاد وعرضها، وفي البلدان المجاورة، بأنه يقدم جائزة كبرى لمن يتوصل إلى إدخال خيط داخل صدفه لولبية متعرجة المسالك. وعندما علم ديدال بالامر، قال لملك صقلية إن بإمكانه أن يُدخل الخيط بالصدفة. ولما طلب الملك منه أن يفعل ثقب طرف الصدفة، وربط خيطا رفيعا برجل نملة، وأدخلها في الصدفة، وسد عليها، فخرجت بعد حين من الثقب والخيط برجلها. وعندما وصل الخبر لمينوس، قال: «إن ديدال وحده هو القادر على تنفيذ عملية من هذا النوع، فهو إذًا مقيم في صقليه». وجهز جيشا وأبحر إلى صقلية للقبض عليه، لكن ملك صقلية رفض تسليمه، ووقعت بسبب ذلك حرب بين الملكين، انتهت بمقتل مينوس.

وعاش ديدال عزيزا مكرما محبوبا من شعب صقلية ومليكها.



تازه يقتل المينوثور

ميديا
البحث عن الفروة الذهبية

هذه ليست أسطورة من نسج الخيال، بل قصة لها أصل تاريخي أبطالها جماعة من شباب هيلاس، ذاع صيتهم في قديم الزمان لأنهم قاموا بأول رحلة بحرية في تاريخ الإغريق، عندما تجمعوا في مدينة يولكوس وأبحروا من ميناء أفيتاي في تساليا، ومخروا عباب البحار بأقدم سفينة صنعها اليونان، وهي أرجو السريعة، فقاسوا الأهوال وتعرضوا للموت ثم بلغوا أرض كولخس على شاطئ البحر الأسود، واغتصبوا من ملكها أيئتيس الفروة الذهبية وأحضروها إلى يولكوس استجابة لرغبة ملكها يلياس.

هذا ملخص القصة التي تغنى بها المنشدون أمثال أورفيوس، وسمع بها هوميروس بعد مئات السنين وأشار اليها على أنها معروفة للعالمين، ومن بعده ذكرها شعراء كثيرون وتناولوها بالإيجاز أو التفصيل منهم: پنداروس الذي ترنم بها في نشيد بأكمله، ويوريبيديس الذي أخذ عنها موضوع مسرحية ميديا وهي من أروع مسرحياته، وأبوللونيوس الرودسي الذي فصَّل أحداثها في ملحمة سماها «مغامرات السفينة أرجو».

وكان من الطبيعي أن يدخل كل أديب على موضوع القصة ما يرى من تعديلات وإضافات تناسب الفن الأدبي الذي كتب فيه، وتتفق مع الاتجاهات الدينية والاجتماعية والسياسية في القرن الذي عاش فيه، وكان من الطبيعي أيضا أن تتعدد الروايات وتتشعب التفاصيل وتتضارب الوقائع. ولهذا السبب سوف لا تتعرض للتغييرات التي لحقت بها على مر العصور بل سنكتفي باستخلاص الحقائق الجوهرية التي اشتملت عليها منذ نشأتها.

كان أثماس ملكا على أورخومينوس بولاية بويوتيا، وقد أنجب من

زوجته نفيلي ابنه فركسوس وابنته هيلي. وبعد سنوات ضاق بزوجته ذرعًا وهجرها وتزوج امرأة غيرها تدعى أنو سرعان ما كرهت فركسوس وهيلي وبدأت تفكر في حيلة للتخلص منهما، فواتتها الفرصة عندما تعرضت البلاد لجفاف شديد ذهب بالأخضر واليابس فانتشرت المجاعة بين الناس، وأرسل الملك يستشير عرافة دلفي ويسألها النصح. ولما عاد الرسل يحملون رد الوحي قابلتهم أنو وأمرتهم أن يحرفوه ويخبروا الملك بأن النبوءة تنصحه بتقديم ابنه قربانا لزيوس إن أراد أن ينقذ شعبه. فأذعن أثماس ووافق على تحقيق النبوءة وقرر أن يضحّي بابنه. ولكن ما إن اقترب فركسوس من المذبح حتى رفعه إلى السماء كبش ذو فروة ذهبية مع أخته هيلي وحملهما مسرعاً متجها صوب آسيا. وبينما كان يعبر بهما المضيق الذي يفصل آسيا عن أوروبا سقطت هيلي فيه، ولذا سماه اليونان بحر هيلي (الدردنيل الآن).

أما فركسوس فقد وصل أرض كولخس، وهناك نحر الكبش وقدمه قربانا لزيوس حامي اللاجئين، وقدم فروته الذهبية هدية لأيئتيس ملك البلاد فعلقها فوق شجرة من أشجار البلوط نبتت في غابة مقدسة لأريس، إله الحرب، وعهد بحراستها إلى تنين يقظ. ثم كافأ فركسوس بأن زوَّجه ابنته خاليكيوبي.

وكان أيسون ابن عم فركسوس يحكم أيضاً قوما من المينيين في ولاية يولكوس، ثم خرج عليه أخوه بلياس وخلعه من العرش واغتصب ملكه، وأصبح أيسون لا يفكر إلا في إنقاذ ولده الصغير ياسون، فقرر أن يعهد به إلى المربي العجوز خيرون الذي كان يقيم على سفح جبل يليوس في تساليا، فتولاه برعايته ونشأه تنشئة صالحة، ولما أصبح ياسون شابا قوي العضلات، متين البنيان، صمم على العودة إلى بلده ليسترد ملك أبيه من عمه الذي لم يهدأ له بال بعد أن طرد أخاه، لأن ضميره ظل يؤنبه على جرمه ويبعث الاضطراب في نفسه وينذره بمستقبل رهيب، فاضطر إلى أن يسأل

الوحي عن مصير حكمه وطول عهده، فرد عليه بنبوءة تحذره من الرجل «ذي النعل الواحد»، ولم يكن هذا الشخص إلا ياسون الذي وجد عند عودته إلى يولكوس، عجوزا شمطاء تجلس إلى ضفة نهر أناوروس، فطلبت إليه أن يحملها وساعدها على اجتياز هذا النهر المتدفق، فأشفق عليها وحملها فوق ظهره وشق طريقه في الماء، وعندئذ فَقَدَ أحد نعليه وهو يقاوم التيار الجارف.

ولما عبر النهر سالما ذهب إلى يولكوس، وما إن دخلها حتى لفت إليه الانظار بقوامه الممشوق وطلعته البهية، فالتف حوله القوم وسألوه من يكون وما اسمه، فأطلعهم على كل شيء وسألهم أن يرشدوه إلى قصر يلياس. فلما بلغه طلب مقابلة عمه، وما إن رآه المغتصب حتى اضطرب وارتجف وتذكر النبوءة وأدرك الخطر الذي يتهدده. ولكنه سرعان ما استجمع قواه، ورحب بالضيف وسأله عن اسمه، فلما عرف أنه ياسون ابن اخيه تظاهر بالفرح للقائه، وتقدم نحوه وعانقه واستقبله استقبالا كريما وقال: «تعال يا بني اختر من تريد من بناتي الثلاث وخذها زوجه لك لترثني وتحكم من بعدي». فرد عليه ياسون في هدوء: «لقد جئت، يا عماه، لاسترد ملك أبي الذي وهبه زيوس إياه، وخير لنا أن نحتكم إلى العقل ولا نلجأ إلى القتال. فاحتفظ بالثروة كلها، والقطعان والماشية التي تملكها. فأنا لا أريد منها شيئا ولا أطالب إلا بعرش أبي». فابتسم عمه وقال: «لك ما طلبت يا بني إذا أنجزت هذه المهمة.. إن روح ابن عمك فركسوس الذي مات مغتربا، تأمرنا بإرجاع الفروة الذهبية إلى أرض الوطن لتعود معه روحه وتقيم بيننا، وأنت ترى أن شيخوختي تحول بيني وبين القيام بهذه المهمة، فهل لك، يا ابن أخي، أن تُعفي عمك من هذا العبء الثقيل؟ وأُقسم بزيوس أنني سأتخلى عن الملك واتنازل لك عن كل شيء عند عودتك». لقد أقسم بلياس هذا القسم لأنه كان على يقين من أن ياسون لن يستطيع الحصول على الفروة ولن يعود بها أبدًا.

لكن الشاب الجريء وافق على القيام بهذه المهمة، وسأل عمه أن يعاونه في الاستعداد لها. وطلب إليه أن يبعث برسل من لدنه يطوفون بشباب المينيين ويحثونهم على الاشتراك معه في هذه المغامرات. واستطاعت هيرا أن تملأ قلوبهم حماسا وتدفعهم دفعا إلى الرحيل مع ياسون. وكان في طليعة الأبطال الذين أسهموا في هذه الرحلة: هيراكليس وحبيبه هيلاس وأرتيس أبو أويسيوس، وكاستور، وبولوكس، ويليوس أبو أخيليوس، وثسيوس، وأرجوس، وأورفيوس إمام المنشدين، جاؤوا جميعا إلى يولكوس وشرعوا في تقطيع أشجار الصنوبر من جبل يليون وعلمهم أرجوس صناعة السفن، فصنعوا سفينتهم وثبتوا في مقدمتها غصنا من البلوط، شجره زيوس المقدسة. ثم قدموا قربانا لكبير الآلهة وزوجته، ثم دشنوا «أرجو» وأنزلوها إلى البحر، وأقلعوا من ميناء أفيتاي في تساليا وضربوا في عرض بحر إيجه متجهين نحو المشرق. وهكذا بدأت رحلة الأرجو التي أسهم فيها أورفيوس وتغنى بها.

لقد كانت مغامرة شاقة واجهتهم فيها صعاب وصادفتهم أهوال واعترض سبيلهم عمالقة أشرار وأبطال متوحشون ونساء مقاتلات ضاريات، ولكنهم قابلوا فيها أيضاً حسناوات محبات وحوريات فاتنات وعرافين صادقين وملوك أسخياء. وهذا وصف بعض الأحداث التي جعلت رحلتهم مضرب الأمثال وحققت لهم شهرة لم تحرزها أساطيل انجلترا وفرنسا وتركيا وروميا التي جابت هذه المياه.

وكانت جزيرة لمنوس أول مرفأ نزل به البحارة ليستريحوا من وعثاء الطريق. فراعهم أن الجزيرة لا يسكنها إلا نساء دفعتهن الغيرة إلى قتل الرجال جميعا ما عدا ملكهن الذي أنقذته ابنته هيسيبلي بأن وضعته في صندوق مجوف وجعلته يطفو فوق سطح الماء حتى حمله إلى بر النجاة، ولكن من الغريب أن هولاء النساء المتوحّشات أكرمن وفادة الأبطال وزودنهم بالمؤن وودعنهم بنفس الحفاوة التي استُقبلوا بها.

وغادر ياسون ورفاقه الجزيرة واتجهوا إلى مضيق الدردنيل، ثم دخلوا بحر بريونتس، ثم جنحوا إلى شاطئه ونزلوا يتريضون في المروج التي نمت بجانبه، وبعدئذ أخذوا يعدون وجبة العشاء ويهيئون لأنفسهم فراشا وثيرا من الاغصان الخضراء والأعشاب الندية، وانصرف هيلاس، صديق هيراكليس، يملأ جرته النحاسية ماء عذبا، فوجد ينبوعا صافيا ينبثق بين الكلأ الأخضر واللبلاب المزهر، وفي وسطه ثلاث حوريات زرق العيون، يرقصن ويمرحن معا. فاقترب الغلام من النبع وانحنى ليملأ إناءه، فأسرعن اليه وتعلقن بذراعه وجذبنه إلى قاع الينبوع فسقط بينهن وراح يصرخ ويبكي، فأخذن يلاطفنه ويسرين عنه بأعذب الألفاظ ويعبرن له عن إعجابهن بجماله وحبهن له ورغبتهن في الاحتفاظ به. وهكذا اختفى هيلاس إلى الأبد. لكن صديقه هيراكليس لم يطق على غيابه صبرا فثارت ثائرته وحمل هراوته وانطلق يضرب في أرجاء المنطقة يبحث عن حبيبه ويصيح مناديا: «هيلاس! هيلاس!» والغلام يجيبه من جوف الماء بصوت خافت لا يبلغ مسامعه. وأصر هيراكليس على البقاء في ميسيا وأقسم ألا يغادر الإقليم قبل أن يعثر على صديقه. وظل يقطع الأرض نهبا، يزأر في الادغال ويجوس خلال الأحراش ونسي «أرجو» ومن فيها، وبقي حيث كان لا يفكر في زملائه الذين انتظروا طويلا، فلما يئسوا من عودته، اضطروا إلى الرحيل وقد استولى عليهم حزن عميق لفراق سيد الأبطال وحبيبه هيلاس.

ووصل الأبطال أرض بثينيا التي كان يحكمها الملك أميكوس. وكان رجلا صلفا غليظ القلب، لا يستريح إلى الأجانب ولا يرحب بالغرباء الذين يفدون إلى مملكته، بل كان يضايقهم ويتحداهم في الملاكمة والمصارعة، يفوز عليهم دائما لانه كان كالعملاق الضخم، قوي البنيان، مفتول العضلات، عريض الصدر، منتفخ الأوداج. فلما رأى بحارة أرجو، أغلظ لهم القول وأمطرهم وابلا من الشتائم، فلم يعاملوه بالمثل بل

ردوا عليه في أدب جم وأكدوا له أنهم لا يضمرون له شرا أو يريدون به سوءا. لكنه تمادى في غطرسته وطلب اليهم أن يختاروا أبرعهم في الملاكمة. عندئذ انبرى له پولوكس (پوليديوكيس)، الملاكم اليوناني الخطير والمصارع الذي لا يقهر، وقَبِلَ التحدي، واحتشد أتباع الملك وتجهز أبطال أرجو واصطفوا جميعا ليشاهدوا المباراة.

ثم لف الغريمان حول أيديهما وأذرعتهما شرائط من جلد البقر، وهتف أبناء بثينيا عاليا: «النصر المبين لملكنا والهزيمة الماحقة لعدونا». وبدأت المعركة، وسرعان ما أظهر بطل الإغريق براعة فائقة في تسديد ضرباته ومهارة بالغة في تفادي لكمات خصمه العنيد الذي أذهلته المفاجآة وأثارت حفيظته، فامتلأ غيظا وتطاير الشرر من عينيه واندفع كالوحش الضاري ليفتك بفريسته، لكن سرعة بوليديوكيس وخفته ومهارته في الهجوم على عدوه جعلت أميكوس مثارا للسخرية لأن هجماته ذهبت هباء وضرباته ضاعت سدى. وأحس خصمه بالتفوق عليه فغافله وسدد اليه ضربة قاضية هشمت أنفه، فزاغ بصره وأصابه دوار شديد، وانتهز غريمه الفرصة فأمطره وابلا من الضربات التي أدمت فمه ومزقت أذنه، فترنح وسقط على الأرض مغشيا عليه، فصاح به أتباعه، ليقوم ويصمد في الجولة، ولكن هيهات! لقد خارت قواه وسالت دماؤه وتصبب عرقه واصفر وجهه وأصبح كالموتى بلا حراك.

وهكذا دفع ثمن غروره وتجبره وتعلم كيف يكرم الضيوف الغرباء. وفي رواية أخرى يقال إنه مات فعلا، وإن شعبه أراد أن يثأر له من عدوه، فهرعوا إلى أسلحتهم وهاجموا بحارة السفينة «أرجو»، لكن هؤلاء ردوهم على أعقابهم واستولوا على قصر الملك ونهبوه قبل مغادرة البلاد.

وبعدئذ اتجهت السفينة إلى مدينة سالمبوديسوس على ساحل طراقيا ونزل البحارة هناك ليسألوا العراف فنيوس عن مصير رحلتهم ويعرفوا منه شيئا عن الصعوبات التي ستواجههم، لأن فنيوس كان يعلم الغيب ويتنبأ

بالمستقبل ويطلع الناس على ما يدبره زيوس لهم. لذلك استاء منه رب الأرباب وصب عليه جام غضبه وعاقبه عقابا أليما، فكان كلما حان موعد غذائه أرسل عليه طيورا جارحة تعرف بالهاربياي «أي الخاطفات» فكانت تحوم حول الطعام وتلوثه وتجعله كريه الرائحة فيشمئز منه الشيخ ولا يقربه، فضعف وذوى عوده ووهن منه العظم وأصبح نحيلا كالطيف الزائل.

ورآه أبطال السفينة فرثوا لحاله وأشفقوا عليه ووعدوا بمساعدته، فأعدوا له طعاما شهيا وعهدوا بحراسته إلى اثنين منهم هما كاليس وزتثى ابنا بورياس ريح الشمال العاتية، فوقفا بجانبه وأمسكا بسيفهما ليدرءا هذه الطيور عنه ويحمياه منها. فما إن وضع فنيوس أول لقمة في فمه حتى هبطت الطيور من السماء وداهمته والتهمت كل شيء في لمح البصر، وتركت وراءها رائحة كريهة، لكن الحارسين لحقا بها في سرعة خاطفة وانقضا عليها بسيفيهما وكادا يجهزان عليها لولا أن تدخلت الإلاهة قوس قزح أريس رسولة الآلهة، وأقسمت لهما أن هذه الطيور لن تزعج الشيخ أبدًا، وأنه سيقضي بقية أيامه آمنا مطمئنا. فاغتبط البطلان وعادا أدراجهما وابتهج العراف وشكر للبحارة صنيعهم وحذرهم من الأخطار التي تحف برحلتهم وعلمهم كيف يتجنبون الارتطام بصخور سيمبلجاديس حتى لا يكتب عليهم الهلاك كما كتب على الذين اصطدموا بها من قبل، ونصحهم قائلا: «عندما تقتربون من هذه الصخور اطلقوا يمامة وراقبوها: فإن مرت من بينها سالمة، اقتفوا أثرها واجتازوا الصخور وستكتب لكم النجاة وتصلون أرض كولخس بسلام، أما إذا هلكت اليمامه فعودوا أدراجكم ولا تفكروا في الحصول على الفروة الذهبية لأنكم لن تصلوا إليها أبدا».

وأقلعت السفينة وعمل البحارة بنصيحته عندما اقتربوا من تلك الصخور، شقوا طريقهم بينها سالمين ثم اجتازوا بحر يوكسينوس أي الذي يرحب بالغرباء وحاليا البحر الأسود، ومروا بأرض الأمازون وتجنبوا الاشتباك معهن، وبعدئذ ألقوا نظرة على جبال القوقاز حيث شاهدوا

بروميثيوس مكبلا في أغلاله، مشدودا إلى صخرة عاتية بينما ينقضُّ عليه نسر وينهش كبده. لكنهم لم يتوقفوا عن السير وتابعوا رحلتهم حتى وصلوا أرض كولخس، وعندئذ هتف بهم ربان السفينة قائلا: «هلموا لقد بلغنا غايتنا. فهذه قصور إيتيس. وهذه أراضيه! ولكن، يا ترى، أين توجد الفروة الذهبية؟ وكم من مشقة سنواجهها قبل الاستيلاء عليها؟». فرد عليه ياسون في جرأة وقال: «لا تخافوا شيئا. فسوف أذهب إلى الملك وحدي. وسوف أتحدث اليه في أدب جم، فهذا خير من القتال».

وكان أرباب أولمبوس يفكرون في الأبطال دائما. فعندما أحست هيرا بالخطر الذي يحف بهم ذهبت إلى أفروديتي، رغم ما بينهما من نفور، وطلبت اليها أن تساعدهم. فوعدتها أن تبذل أقصى جهدها، واتفقت معها على أن ترسل ابنها إيروس إلى ميديا، ابنة الملك، ليصيبها بسهم من سهامه التي لا تخطئ ويشعل قلبها نارا بحب ياسون فتستخدم فنون السحر التي تتقنها لمساعدته في تحقيق مهمته. وذهبت أفروديتي إلى إيروس وتوسلت اليه أن يفعل ذلك، فاستجاب إلى طلبها وحمل قوسه وجعبته وانطلق من قمة أولمبوس سابحا في الفضاء، ووصل كولخس في نفس الوقت مع الأبطال الذين اتجهوا إلى قصر الملك. فاستقبلهم الحرس استقبالا كريما، ثم أخبروا سيدهم بوجود البحارة، فأسرع إليهم ورحب بهم وأصدر أوامره بإشعال النار وإعداد ماء ساخن يغتسلون به وطعام فاخر يأكلونه. وعندئذ تسللت الأميره ميديا إلى الزائرين فوقع بصرها على ياسون، وفي نفس اللحظة رماها إيروس بسهم أصاب أعماق قلبها، فاشتعل فؤادها نارا وذابت روحها أسى وتصبب جبينها عرقا، واضطربت اضطرابا شديداً، فلم تجد بُدًّا من الانسحاب إلى غرفتها حتى لا يفتضح أمرها.

وبعد أن أكل الأبطال وشربوا سألهم الملك مَنْ هم ومن أي بلد أتوا ولماذا؟ وأجابه ياسون قائلا: «إننا جميعا من نبلاء اليونان الذين ينحدرون من سلاله الآلهة، جئنا نطلب الفروة الذهبية، ونعرض عليك خدماتنا مقابل

ذلك، فنحن على أتم استعداد لنقاتل أعداءك ونحمي ديارك». فضاق الملك بكلامه لأنه كان لا يحب التدخل في شؤونه ولا يرحب بإقامة الأجانب في بلده، ومع ذلك فقد كتم غيظه وهمس في نفسه: «كم بودي أن أقتلهم، لكنهم، وا أسفاه، أكلوا في بيتي». . ثم خطرت له هذه الفكرة فقال: «إنني لا أكره الأبطال وخاصة المغامرين منهم، سوف أعطيكم الفروة الذهبية إذا أثبتم شجاعتكم وقمتم بما سبق لي أن قمت به، لقد استطعت أن أشد إلى المحراث ثورين، أقدامهما من البرونز وأنفاسهما من لهيب النار، وسيطرت عليهما وحرثت حقلا من أرضي وبذرت فيه أسنان تنين كانت تنبت في الحال رجالا مسلحين استأصلتهم في الحال حتى لا يستفحل أمرهم. هذا عملي الذي قمت به، ومازال الثوران عندي. فمن منكم يريد القيام به؟ فلن أعطي الفروة لشخص أقل مني شجاعة». وكان الامتحان رهيبا وأداؤه مستحيلا، لأنه فوق طاقة البشر. لذا لزم ياسون الصمت برهة ثم قال: «قبلت المهمة رغم بشاعتها. وسأقوم بها حتى لو كان الموت نصيبي» ثم نهض ورجع مع زملائه إلى السفينة ليقضوا بها ليلتهم.

لكن ميديا تابعته بأفكارها وتخيلته أمامها، وظلت تتأمل جماله ورشاقته وتسترجع ألفاظه، إنها لم تر له في الوجود مثيلا. لقد أحبته من كل قلبها، فكيف تتركه يموت. إن الحياة بدونه ليس لها معنى. وهكذا لم تنم الليل وظلت فريسة للأوهام والآلام حتى أشرق الصبح.

وقضى الأبطال ليلتهم يناقشون اقتراح الملك، وأبدى كل منهم استعداده للقيام بالمهمة بدلا من ياسون، لكن عبثا حاولوا إقناعه، فقد أصر على أدائها بمفرده. وبينما كانوا يتجاذبون أطراف الحديث، جاءهم أمير من أحفاد الملك وأطلعهم على براعة ميديا في السحر، وأكد لهم أنها تقدر على كل شيء، تحجب النجوم وتخسف القمر، وإن شاءت مكنت ياسون من الثورين وأخضعتهما له ونجته من أسنان التنين وكتبت له نصرا مبينا.

وعندئذ طلب الأبطال إلى الرسول أن يعود إلى ميديا ويستدر عطفها لأنهم كانوا لا يعرفون جنون الحب الذي مسها. ورجع الأمير إليها، فوجدها تبكي في فراشها، تؤنب نفسها وتتمنى الموت. يا لها من مسكينة بائسة استسلمت لعاطفة جارفة أنستها كل شيء! لقد رأى الأمير في يدها صندوقا صغيرا مملوءا بالأعشاب السامة القاتلة، أمسكته وأخذت تتأمله وتفكر في الحياة ومباهجها وتنظر إلى أشعة الشمس وتحس بدفئها، ثم ألقت الصندوق فجأة وقررت أن تساعد حبيبها بأن تعطيه مرهما سحريا إذا مسح به جسمه وقاه من كل خطر طيلة النهار. فلا يؤذيه شيء ولا يصيبه مكروه، وطلبت إلى ابن عمها الأمير أن يذهب إلى ياسون ويخبره بحبها ويقسم له «أن ميديا ستساعده وتخلص له ولن تتخلى عنه أبدا وأنها تريد مقابلته في الحال».

عاد الأمير إلى ياسون وانبأه الخبر، فطار فرحا وهرع للقائها. عندئذ أكسبته هيرا بهاء فوق بهائه، وزادته تألقا. فلما رأته ميديا، خارت قواها، ونبض قلبها وغشي بصرها ووقفت جامدة في مكانها، ووقف ياسون أمامها وقال: «كيف أصف نبلك؟ وكيف أصور حبي لك؟ إنك أملي وحياتي». فاقتربت منه وهي صامتة لأنها لم تستطع أن تعبر عما يجول بخاطرها، ثم أخرجت من صدرها العلبة وأعطته إيَّاها في هدوء وكأنها تريد أن تقول: «خذ هذه ولك روحي إن طلبتها». وساد الصمت برهة، ثم شرحت له كيف يُستخدم السحر، وكيف يمسح به بدنه وأسلحته حتى لا يقهر، وأخبرته أن يُلقي حجرا وسط الرجال المسلحين الذين ينبتون من أسنان التنين ليبعث فيهم الفوضى والاضطراب فيقاتلون بعضهم بعضا ويهلكون جميعا، ثم قالت له: «والآن يجب أن أعود إلى القصر، لعلك تذكرني عندما ترجع إلى بلدك آمنا لأنني سأذكرك دائماً». رد عليها ياسون: «لن أنساك وسوف أفكر فيك ليلا ونهارا، وإن جئتِ إلى اليونان معي، سأجلك، وسوف ننعم بالحياة معا، فلن أتركك أبدا ولن يفرق بيننا إلا الردى». وعادت ميديا إلى

القصر تندب حظها وتبكي جرمها وتندم على خيانتها، وعاد ياسون إلى السفينة. هناك مسح جسمه بالمرهم فأحس بقوة خارقة تدب فيه، ثم ذهب مع زملائه إلى الحقل حيث انتظرهم الملك مع جمع غفير من شعبه.

وما إن وصل الأبطال إلى هذا المكان حتى اندفع الثوران من حظيرتهما ينفثان النار من أنفاسهما، فتقدم نحوهما ياسون وصمد لهما كأنه صخرة عاتية تقاوم أمواجا جارفة. وأمسكهما واحدًا بعد الآخر، ولوى رأسيهما إلى ركبته، ثم شدهما إلى المحراث وسط هتاف الحاضرين الذين أذهلتهم شجاعته وأفزعتهم قوته. وقبض ياسون على المحراث ودفع الثورين، وبدأ يحرث الحقل ذهابا وجيئة، ويبذر أسنان التنين في الخطوط التي يحفرها. وما إن انتهى من حرثه حتى شاهد رجالا مسلحين يخرجون من بطن الأرض ويهجمون عليه، فرمى بينهم حجرا ضخما ألقى الذعر في قلوبهم، فاضطربت جموعهم ودارت رحى الحرب بينهم فخرُّوا صرعى شرورهم.

وهكذا انتصر البطل وحزن الملك الذي عاد إلى قصره ليدبر للأبطال مؤامرة تمنعهم من أخذ الفروة الذهبية. لكن هيرا كانت لا تغفل عنهم، فدفعت ميديا إلى اتخاذ قرار حاسم، وصممت الأميرة على ترك الأهل والوطن والرحيل مع ياسون. ولما أرخى الليل سدوله، تسللت ميديا من القصر وذهبت إلى حبيبها في السفينة حيث وجدته يحتفل مع زملائه بالنصر، فارتمت عند أقدامهم وتوسلت اليهم أن يأخذوها معهم إلى اليونان، وأخبرتهم أن يذهبوا في الحال لأخذ الفروة الذهبية، وطلبت إليهم أن يغادروا البلاد فورا حتى لا يتعرضوا للهلاك، وأكدت لهم أنها سوف تسحر الأفعى التي تحرس الفروة لتقيهم شرها. ولما انتهت من كلامها رفعها ياسون من على الأرض وعانقها ووعدها بالزواج بعد عودتهم، وحملها معه في السفينة التي اتجهت نحو الدغل المقدس حيث علقت الفروة الذهبية، فلما وصلوا إليها تقدمت ميديا نحو الأفعى المخيفة وترنمت بأنغام شجية وأنشدت نشيدا عذبا وظلت تردده حتى تخدرت

الأفعى ونامت، وعندئذ توجه ياسون إلى الشجرة وأخذ الفروة العجيبة ثم أسرع الجميع إلى السفينة وجلسوا إلى مجاديفهم واتخذوا سبيلهم في الابحار.

وعلم الملك بما حدث، فثارت ثائرته، وأرسل من فوره ابنه ايسيرتوس على رأس جيش كبير ليلحق بهم حتى لا يتمكنوا من الفرار. لكن ميديا أنقذتهم للمرة الثانية بأن ارتكبت جرما شنيعا آخر، إذ بعثت لأخيها رسولا تخبره أنها استولت على الفروة وتستطيع إحضارها إلى القصر إذا قابلها ليلا في مكان حددته له. ولم يشك ايسيرتوس في كلام الرسول ولا في نوايا أخته، فلم يتردد في الذهاب اليها. وما إن بلغ المكان الموعود حتى أجهزت عليه بالاشتراك مع ياسون. ولما علم الجيش بالخبر، اضطربت صفوفه واستولى عليه الذعر، فتشتت الجند وكفوا عن مطاردة البحارة الذين فروا ونجوا بأنفسهم.

وهناك رواية أخرى تقول إن شقيق ميديا لحق بها وركب السفينة ليفر معها إلى اليونان فاضطر أبوها إلى مطاردتهما. ولما اقتربوا من الأرجو، قتلت ميديا أخاها وقطعته أربا وألقته في البحر لينصرف أبوها إلى جمع أشلائه من الماء فلا يلحق بالسفينة ومن فيها. وهكذا نجا ملاحو«أرجو» من انتقامه الشديد وقفلوا راجعين إلى أرض الوطن.

ولكن أي طريق سلكوا؟ وبأي أرض نزلوا؟ فهذه أمور مازالت غامضة، اختلف فيها الرواة وحار فيها المحدثون، فتعددت آراؤهم. لذا رأينا ألا نقف عند التفاصيل ونكتفي بالإشارة إلى الحقائق التي تضمنتها أصدق الروايات وأخذ بها معظم النقاد.

فسواء رجع البحارة عن طريق الأدرياتيكي وسحبوا سفينتهم عبر جبال الألب، أم اتجهوا جنوبا وضربوا في عرض البحر الأحمر ومروا ببلاد الحبشة، أم ساروا غربا حتى وصلوا إلى ليبيا وشدوا مركبهم فوق الرمال المحرقة، وأسسوا برقة ثم أبحروا إلى مصر وشاهدوا عجائبها، فالأمر

الذي لا شك فيه أنهم مروا بالأماكن التالية وواجهوا الصعوبات التي ستذكرها.

فعندما اخترقت السفينة البحر التيراني واقتربت من شواطئ إيطاليا الجنوبية سمع الأبطال أنغاما عذبة تأتيهم من جزيرة قريبة، وأصغوا إليها. لكن ميديا حذرتهم منها وقالت: «انتبهوا جميعا! إننا على مقربة من صخور تقطنها حوريات ذات أصوات مهلكة، إننا مضطرون إلى الاقتراب من تلك المنطقة لأننا لا نستطيع تجنبها، ولكن علينا أن نضع أصابعنا في آذاننا حتى لا نسمع أصواتهن وإلا هلكنا جميعا». فرد عليها أرفيوس، إمام المنشدين: «لا تخافي ولا تحزني، سوف أتبارى مع تلك الحوريات لنرى أينا يستولي على ألباب السامعين، لقد أشجيت بأنغامي الأشجار والحجر، فما بالك بقلوب البشر»! وأمسك بقيثارته وأخذ يعزف أعذب الألحان، ولكنه لم يستطع، في بادئ الأمر، أن يجذب إليه الملاحين الذين كانوا يصغون باهتمام إلى هذه الأصوات الحالمة لأنهم لم يسمعوها من قبل، فسرت في أبدانهم حمى شديدة جعلتهم يصيحون ويهتفون: «هيا بنا إلى الحوريات. فلنقترب منهن! هلموا نتمتع بصوتهن الرخيم». عندئذ نادت ميديا أورفيوس وقالت: «أسرع وغننا لحنا شجيا نعيد به هؤلاء البحارة إلى صوابهم، أسرع لتنقذهم من الهلاك». فاستجمع قواه وأنشدهم نشيد برسيوس، وتغنى لهم بشجاعته التي حققت له الخلود فأصبح نجما يتألق فوق قمة الألمبوس يقدسه الناس أجمعين. عندئذ عاد الأبطال إلى صوابهم وصاحوا: «هيا بنا إلى أرض الوطن! هيا لنصبح رجالا خالدين مثل برسيوس. ما لنا وهذه الحوريات اللاتي يدفَعْننا إلى الهلاك». ثم اتخذوا أماكنهم وانصرفوا إلى التجديف ونسوا الحوريات وألحانهن. وعز على هؤلاء أن يفوقَهُنَّ أورفيوس بأنغامه. فاستشطن غيظا وامتلأن حقدا وغيرة، فألقين بأنفسهن في عرض البحر وتحولن إلى صخور منذ ذلك الوقت.

أما ياسون ورفاقه فاتجهوا إلى جزيرة صقلية حيث داهمهم خطر أشد.

فعندما دخلوا مضيق مسينا فاجأتهم دوامة عنيفة اسمها خاريبدس كادت تحطم سفينتهم كما حطمت غيرها من قبلُ، وكانت هذه الدوامة تقع قبالة وحش فظيع يسمى سكيلا كان يفترس ملاحي السفن التي تمر بالقرب من كهفه عند مدخل المضيق. لذا كان الخطر يحدق بالسفن من كل جانب، فإن أراد البحارة تجنب خاريبدس وقعوا في براثن سكيلا، فكانوا، كما قال القدماء كالمستجير من الرمضاء بالنار، ولكن آلهة الأولمبيوس شاؤوا أن يكتبوا النجاه لبحارة الأرجو. فبينما هم في حيرة من أمرهم يفكرون في مصيرهم المحتوم، إذا بعروس البحر ثيتس، وزوجة يليوس، أحد ملاحي السفينة، تطفو فوق سطح الماء، ومعها صديقاتها، وأخذن يسبحن ويتهادين أمام أرجو وخلفها ثم يتعلقن بها حتى لا تقذفها الأمواج وسط الدوامة العاتية. ولما أوشك سكيلا على تدميرها والتهام بحارتها ضربنه على رؤوسه الستّة. فخاف غضب ربات البحر وعاد إلى كهفه مسرعا، فنجت السفينة من مخالبه وتابعت رحلتها حتى بلغت جزيرة أسخريا التي كان يحكمها ألكينوس ملك الفياكيس.

وكان ملكاً كريما يرحب بالأجانب، ويقيم في قصر فخم ضربت به الأمثال وتغنى هوميروس بثرائه. ولما نزل بحارة الأرجو الجزيرة ذهبوا إلى هذا القصر الفاخر، فوجدوا ألكينوس وزوجته أريتي أي الفضيلة يجلسان في بهوه الفسيح. فرحبا بهم وأكرما وفادتهم. فأعدت الموائد وقدمت لهم صنوف شهية من الطعام والنبيذ العطر، ثم سألهم الملك من يكونون ومن تكون الفتاة التي معهم؟

فقالوا: نحن أبطال يولكوس، وهذه ميديا ابنة إيتيس، صاحب الفروة الذهبية التي أحضرناها معنا. فصمت الملك برهة ثم قال: لو كان الأمر بيدي لقلت لكم أهلا وسهلا وافتخرت باقامتكم في قصري لكن جنوداً من خولكس وصلوا هنا منذ أسابيع وما زالوا يقيمون في قصري، ولقد علمت منهم أنهم اقتفوا أثركم وبحثوا عنكم في عرض البحار فلم يعثروا عليكم،

وخافوا أن يرجعوا إلى بلادهم بدون ميديا. ولما كنت لا أحب الحرب ولا أرضى أن تدور رحاها في جزيرتي، لذا سأفكر في الأمر وأدعوكم وإياهم غدا لنجد حلا مناسبا.

ولما أصبح الصبح دعاهم جميعا فوقفوا في صفوف متقابلة، ثم قال لهم الملك: «يا جنود إيتيس! ماذا تريدون من هولاء الأبطال؟». فرد قائدهم قائلا: «إننا نريد أخذ ميديا معنا لتلقى جزاءها، لأننا إذا عدنا بدونها فالويل لنا والموت مصيرنا». فنظر الملك إلى ياسون وسأله: «ما رأيك فيما قالوا يا ابن أيسون؟». فأجاب البطل: «إنهم يطلبون شيئا مستحيلا لأنهم لن يستطيعوا أخذ ميديا عنوة، ميديا التي تعرف فنون السحر، وتستطيع أن تلقي بسفنهم في قاع البحر أو تدفعها إلى البر وتقذف بها فوق الرمال ثم تهرب في عربتها السحرية.. إذن فيم إرجاعها على الرغم منها؟ ولِمَ يعودون إلى كولخس النائية، ويتحملون مشقة الرحلة وأخطارها؟ فكم من أرض غنية ترحب بهم وتنتظر مقدمهم! فعليهم أن ينزلوا بأي غابة على الشاطئ ويجتثوا أشجارها ويستعمروها ويتخذوها وطنا لهم». واقتنع القائد بكلامه فقال: «فليكن الأمر كذلك! احتفظ أنت بميديا، لقد كانت شرا علينا، ووباء في قصر أبيها. وسوف تكون نذير شؤم عليك. فخذها إذن مادمت لا تتعظ». فباركهم ألكينوس جميعا وقدم لهم الهدايا وزودهم بالمؤن وودعهم وداعا حارا، وأبحر أهل كولخس عبر الأدرياتيك وأسسوا المدن على شواطئه، واتجه بحارة الأرجو إلى جزيرة كريت في طريقهم إلى وطنهم العزيز.

ولما اقتربوا من تلك الجزيرة المشهورة، قالوا: «سوف ننزل بها، ونزور ملكها العادل، يمنوس، لنقف على ثرائه العريض ونشاهد قصره الفخيم، ولا شك أنه سيرحب بنا ويمدنا بالمال والمؤن».

ولكن سرعان ما تحطمت أمالهم عندما شاهدوا بالقرب من الشاطئ عملاقا ضخما أطول من شجرة الصنوبر، وقف يجيل البصر هنا وهنا حتى لمح السفينة ومن فيها. عندئذ اندفع كالحصان الجامح وركض مسرعا حتى

أصبح على مقربة من الساحل على بعد أمتار من المركب، ثم أخذ يلوح بذراعيه ويصيح بصوت جهوري ويقول: «أيها القراصنة أيها اللصوص! لا تنزلوا هنا، فإن فعلتم فالموت لكم». ورد عليه البحارة بقولهم: «إننا أشراف لا قراصنة، جئنا نطلب غذاء وماء». لكنه لم يستمع اليهم وأشاح بوجهه ولوح بذراعيه غاضبا متوعدا. عندئذ رأى الأبطال سكان الجزيرة يجرون ويدفعون القطعان أمامهم وشاهدوا نارا حامية تندلع بين التلال، ثم لاحظوا المارد يهبط الوادي مسرعا حتى غاب عن أبصارهم.

وكانت ميديا ترقب كل شيء وقد علت شفتيها ابتسامة ماكرة، وظلت صامتة هادئة حتى اختفى العملاق، ثم قالت: «لا تخافوا! لقد سمعت في بلدي عن هذا المارد المخيف، لقد صنعه هيفايستوس، إله النار، في أتونه بجبل إتنا وسماه تالوس وأهداه لمينوس، ملك كريت، ليحرس شواطئها، فهو لا ينام أبدا، بل هو دائب الحركة، يدور حول الجزيرة ثلاث مرات كل يوم، فإذا لمح بعض الأجانب يقتربون من الشاطئ أو يفكرون في النزول إلى الجزيرة، اندفع إلى أتونه المشتعل بين التلال، وظل فيه حتى يتوهج نارا ثم ينطلق نحوهم يرتمي عليهم ليحرقهم بيديه المتوهجتين». فسألها الأبطال: «وبماذا تنصحين، يا ميديا! إننا سنهلك من الظمأ، ولا بد لنا من الحصول على الماء». فقالت: «إني ذاهبة لمواجهته لأني أعلم أن شريانا واحد مملوءا بماء النار يجري في جسمه، أحكم سداده بمسمار، وسأحاول اكتشاف موضعه، فإن وجدته نجحت في مهمتي وحصلتم على حاجتكم من الماء».

فأطاعها البحارة وأنزلوها إلى الشاطئ، وظلت واقفة حتى عاد المارد وقد أصبح جذوة متقدة يحرق العشب الذي يسير عليه، وينبعث الدخان من بين قدميه. ولما اقترب من ميديا نظرت إليه في جرأة وأخذت ترتل هذا النشيد ترتيلا: «ما أقصر الحياة وما أحلاها! كلنا زائلون، كلنا إلى فناء، النار نفسها ستخمد، والرجل النحاسي (تالوس) سيموت. ما أقصر الحياة

وما أحلاها! لكن أحلى منها الخلود، خلود الآلهة الذين يجري في عروقهم ماء الشباب فلا يعرفون الشيخوخة أبدا». فقاطعها تالوس قائلا: «من أنت أيتها الأجنبية؟ وما هو الشباب هذا؟». فأجابته وقد أمسكت بقنينة من البللور: «أنا ميديا الساحرة، وها هو ماء الشباب، اعطتني إياه عمتي كركي وأمرتني أن آتي به اليك لأكافئك على ولائك الذي طبقت شهرته الآفاق. تعال إذن أصبه في شرايينك حتى يكتب لك الخلود، وتظل شابا على الدوام». وصدقها المارد الساذج ونزل البحر كما طلبت وأطفأ ناره المشتعلة حتى لا يحرق أناملها الرقيقة، ثم أرشدها على المسمار الذي يسد شرايينه لتصب ماء الشباب، فأخرجت المسمار ولم تسكب شيئا في الشريان، بل تركت ماء النار يتدفق منه كأنه سيل من الحمم، فأدرك العملاق أنها خدعته، ولكن بعد فوات الآوان، فلقد خارت قواه ثم فارقته الحياة. عندئذ ضحكت ميديا وصاحت: «تعالوا، أيها الأبطال خذوا ما يكفيكم من الماء». فنزلوا وزوّدوا سفينتهم بالمؤن، ثم غادروا كريت وساروا في البحر حتى وصلوا إلى رأس ماليا في جنوب البلوبونيز، وهناك قدموا القرابين لزيوس وهيرا، وسبحوا باسمَيْهما، ثم اتجهوا شمالا ومروا بميناء سونيوم واخترقوا مضيق يوبويا. وأخيرا عادوا إلى ميناء أفيتاي في تساليا التي بدأوا منها رحلتهم. عندئذ وهب ياسون السفينة أرجو لإله البحر بوسيدون، وتفرق الأبطال، وذهب كل منهم إلى بلده، واتجه ياسون ومعه ميديا إلى قصر عمه يلياس يحمل اليه الفروة الذهبية التي طلب إحضارها.

ولكن ياسون اكتشف أن احداثا خطيرة قد وقعت أثناء غيابه. لقد أصر يلياس على التخلص من أخيه أيسون فقتله. وماتت زوجته حزنا عليه. وهكذا فقد ياسون والديه، فصمم على الانتقام من هذا الشرير المستبد، ولجأ إلى ميديا يطلب إليها النصح والمساعدة. فطمأنته ودبرت هذه الحيلة: أخبرت بنات يلياس أنها قادرة على إرجاع الشباب للشيوخ، وبرهنت على ذلك بأن أخذت كبشا وقطعته إربا ووضعته في قدر ماء يغلي

ثم أخذت تردد بعض التعاويذ السحرية، وفي لمح البصر قفز من القدر حمل صغير، كله نشاط وحيوية، فآمنت بنات يلياس بمقدرتها الفائقة واقتنعن بفكرتها. وأعطتهن ميديا شرابا مسموما، وطلبت اليهن أن يقدمنه لأبيهن ثم يقطعنه بأيديهن ويلقين أوصاله في القدر، ففعلن ذلك حتى يعدن الشباب إليه، وانتظرت ميديا لتنطق بتعاويذها وتعيده إلى الحياة، لكنها لم تفعل فأدركن أنها خدعتهن ودفعتهن إلى ارتكاب هذه الجريمة البشعة.

واضطر ياسون أن يهرب مع زوجته، ويغادر بولوكس ويذهب بها إلى كورينثة، وهناك وجد أصدقاء رحبوا بهما، فأقاما بينهم وعاشا عيشه راضية وأنجبا طفلين، وقضيا في هذا البلد الأمين عشر سنوات كلها سعادة وهناء. ثم خان ياسون زوجته، فأصرت على أن تنتقم منه أشد انتقام. ولِمَ لا؟ لقد أحبته من كل قلبها، وأخلصت له إخلاصا عظيماً. فمن أجله خانت أهلها وهجرت وطنها وذبحت أخاها، ومن أجله خدعت بنات يلياس وقتلت أباهن، فلا عجب إن اعتقدت أن ياسون سيخلص لها مدى الحياة، ولن يتخلى عنها أبدا، وسيبقى إلى جانبها ينسيها ألم الاغتراب وعذاب الضمير. لكنه غدر بها، فهجرها وتزوج من جلوكي ابنة كريون ملك كورينثة. فجن جنونها، وضاقت الدنيا بها وفكرت في الانتحار لتنهي آلامها. ولكنها خلت إلى نفسها واسترجعت ماضيها، وتذكرت جرائمها، وارتجفت من بشاعتها، وندمت على تهورها واستسلامها لتلك العاطفة التي أفقدتها رشدها ودفعت بها إلى الهاوية.

وبينما هي تستعيد هذه الذكريات المرة، والأحداث المؤلمة إذا بياسون يدخل عليها فتنظر إليه في صمت عميق، فيقترب منها ولكنها كانت بعيدة عنه، كانت تفكر في حبها الفاشل وبؤسها القاتل. وبعد لحظة رهيبة قال ياسون: «لقد بذلت أقصى ما أستطيع من جهد لأقنع الملك بأنك لا تنوين بابنته شرا ولا تهددين بقتلها، وطلبت إليه أن يعفوعنك ويستبدل الإعدام بالنفي، وهأنذا جئت لأراك قبل رحيلك إذ ليس من شيمتي أن أتخلى عن

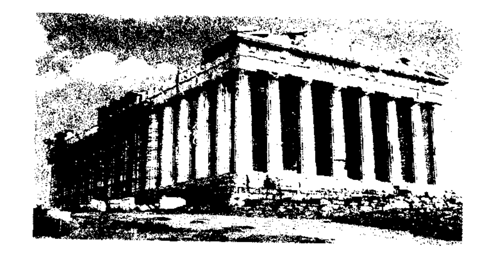
أصدقائي وقت الشدائد. فإن كان يعوزك المال أو كنت في حاجة إلى أي شيء آخر، فأنا مستعد لتلبية رغباتك».

هنا طفح الكيل وانفجرت ميديا قائلة: «يا لك من وغد وضيع! لقد أحسنت صنعا بمجيئك، فسوف أخفف همومي عندما أثبت لك وضاعتك! لقد أنقذتك، والعالم كله يعرف هذه الحقيقه، لقد أخضعت لك الثورين وخلصتك من الأشرار المسلحين الذين نبتوا من أسنان التنين، ونجيتك من الأفعى، ونصرتك نصراً مبيناً، وهجرت الأهل والوطن، ورحلت إلى بلد ناء غريب، ثم انتقمت لك من أعدائك، ودبرت ليلياس أبشع ميتة. من أجلك فعلت كل ذلك، ومن أجلك عاديت الجميع، فإلى أين أذهب؟ إلى قصر أبي؟ إلى بنات يلياس اللاتي لم يكن بيني وبينهن خصومة؟ لقد حسبتك زوجا مخلصا أمينا، يستحق التقدير والإعجاب، واليوم تحدثني عن النفي، يا للسماء! لقد أصبحت وحيدة لا أهل ولا أصدقاء، ومع ذلك فلست في حاجة إلى ذهبك أو معونتك!». عندئذ خرج ياسون غاضبا وهو يقول: «يا لك من عنيدة متكبرة».

وجلست ميديا تفكر في الانتقام منه، فصممت على قتل زوجته الجديدة أولاً، فجاءت بثوب جميل وبللته بعطر مميت وعقاقير مهلكة، ثم وضعته في صندوق، وكلفت ولديها أن يحملاه ويقدماه لزوجة أبيهما، وأمرتهما أن يطلبا إليها أن تلبسه في الحال دليلاً على رضائها عن الهدية. واستقبلتهما جلوكي برقة وحنان واستجابت لطلبهما. وما إن ارتدت الثوب حتى اشتعل جسمها نارا حامية وأصبحت رمادا في لمح البصر. ولما سمعت ميديا بالخبر فكرت في مصير ابنيها، وأدركت أنهما لن يجدا عطفا من إنسان، وأنهما سيتعرضان للاهانة والضيم ويصبحان خادمين ذليلين. لذا صممت على «ألا تتركهما لمن يسيء معاملتهما، أو بمعنى آخر في إذلالهما، وقالت: «لقد أعطيتهما الحياة وسوف أذيقهما كأس الموت. إياي والتردد، فلأقدم على ذبحهما ولن أفكر في حبي لهما، وسوف أنسى

أنني أمهما. سأنسى ذلك لحظة ثم أستسلم للأحزان على الدوام». وعندما دخل عليها ياسون ليقتلها انتقاما لزوجته، وجد ولديه ذبيحين ورأى ميديا في أعلى القصر تركب عجلة يجرها وحشان وتشق طريقها في الفضاء..

وعاد ياسون إلى يولكوس وبقي نهبًا لآلامه. وقضى أيامه في بؤس وشقاء. وذات مرة ذهب إلى شاطئ البحر ليروح عن نفسه، واتجه إلى المكان الذي سبق أن ترك فيه السفينة «أرجو»، وجلس ليستريح بجانبها، فإذا بعمود يسقط منها يهشم رأسه. وهكذا مات البطل تحت حطام سفينته.





سقوط طروادة

وسقطت طروادة بعد عشر سنوات من الحصار وقد مات آلاف الآلاف من الجانبين، ولكنها أخيراً سقطت ونزح المغير بخيله ورجاله، فتعالي يا عرائس الفنون فافتقدي أدويسيوس في ذلك البحر الهائج يذرعه، موجة تلبسه وموجة تخلعه، لا يعرف لمملكته ساحلا فيرسو عليه، ولا شاطئاً فيقصد اليه.. يخبط في البحر على غير هدى، ويرسل عينيه في الماء والسماء بلا فائدة.. زرقة متصلة في العلو والهبوط، وتيه لا نهائي يخبط في أحشاء أسطول السادة المنتصرين.

والأقدار وحدها تعلم لماذا ضل أوديسيوس بجنوده في ذلك العباب، وقد عاد كل أقرانه إلى هيلاس بعد طول البعد والفراق، ممزقين في دار الغربة كل ممزق، يتجشمون المصائب والأهوال ويتخبطون بين موج كالجبال، ويخلصون من بحر إلى بحر، ومن فزع إلى فزع، فإذا رَسَوْا على أرض وظنوا أنهم نجوا، أفزعهم فيها غير الذي رجوا.

ولقد رقت قلوب الآلهة، وتمنوا لو أدركوا برحمتهم أوديسيوس... إلا نبتون الجبار، رب البحار، الذي يضمر للبطل في أعماقه كل حقد وكل كراهية والذي آلى أن يصبَّ على رأسه كل تلك الأرزاء والمتاعب.

وحدث أن كان نبتون في حرب مع الاثيوبيين، فانتهزها الآلهة فرصة سانحة، وعقدوا مجلس الأولمب في ذروة جبل إيدا، وتفضل الإله الأكبر زيوس، فافتتح الجلسة بكلمة مخلصة توجع فيها لما يلقاه بنو الإنسان من صروف الحدثان، واستطرد فذكر مأساة أجاممنون المسكين، وما لقيه على يدي زوجه وعشيقها الأثيم إيجستون - باريس- من غدر وغيلة، ثم أنحى باللائمة على هؤلاء البشر البائسين الذين يقولون إن كل ما يصيبهم من خير وضير هو من عند الآلهة، وما هو إلا من عند أنفسهم.. ولكن لا يفهمون!

ثم نهضت مينرفا ربة الحكمة، ذات العينين الزبرجديتين، فأيدت ما قاله أبوها سيد الآلهة.. وأثنت عليه. ثم ذكرت أوديسيوس.. «ذلك التعس الذي ضل وصحبه البحر، وقضى عليه - دون أقرانه جميعاً - أن يشقى هذا الشقاء الطويل، عند عروس الماء الفاتنة كالبسو في جزيرة أوجيجيا، ثمانية أعوام أو يزيد. ما ذنبه؟ ما جريرته؟ لماذا ينفى هذا العبد الصالح في أقصى الأرض يا أبي، إنه خير عبادك أجمعين. اذكر كم ضحّى في الاضحيات باسمك. وقدم القرابين من أجلك، وحارب أعداءك، وجاهد! لقد نمى إليَّ أن كالبسو تحاول جاهدة أن تستميل قلب البطل، وأن تنسيه وطنه إيثاكا.. يا للهول!

كيف يا أبتاه! وهذه الزوجة التعسة بنلوب؟ بنلوب الشقية الحزينة، بنلوب التي صبرت وصابرت طوال هذه السنين على ما أصابها الدهر به من بعد زوجها، بنلوب التي حافظت على طهرها وإخلاصها، أتظل هكذا سجينة في قصرها المنيف الباذخ، ويظل هذا القصر محاصرا بعشاقها المجانين من أمراء الأقاليم؟ أبي! يا سيد الأولمب! ألا تدرك برحمتك أوديسيوس، وترده إلى وطنه ليذود هذه الكلاب التي ولغت في حوضه، وكادت تخوض في عرضه، تداركه يا أبي، تداركه بعطفة واحدة منك. وإنك على انقاذه لقويّ مكين».

واستجاب لها سيد الأولمب، وقضى أن يعود أوديسيوس إلى ايثاكا، لكنه ذكرها برب البحار نبتون، وذكرها بما بينه وبين البطل من أشياء عديدة سببها هذه الفعلة الجنونية التي فعلها أوديسيوس بواحد من السيكلوبس أبناء نبتون إذ اقتلع عينه الواحدة التي كان ينعم بسبيلها بزينة الحياة.. اطمئني يا بنية وقري عينا. إننا نحن الأعلون، وسيرى نبتون أنه لن يغلب الآلهة مجتمعة أبدا..

وشاعت الغبطة في أعطاف مينرفا، وتضرعت إلى مولاها أن يرسل ولده هرمز إلى جزيرة أوجيجيا، فيأمر عروس الماء كالبسو أن تعد مركبا عظيما

لأدويسيوس ورفاقه، ليعودوا عليه إلى أوطانهم، ثم ذكرت أنها ستمضي من فورها إلى إيثاكا حيث العشاق المدلهون يحاصرون قصر بنلوب، وحيث ابن أوديسيوس المنكود، تليماك، يشهد خراب مملكة أبيه ولا يستطيع أن يحرك ساكنا، لصغر سنه.. «إني سألهب إحساسه، وأفتح عينيه على ما ينبغي.. سأجعله يخرج من هذه العزلة المعيبة ليبحث عن والده، فإنه لم يعد طفلا بعد».

وانطلقت مينرفا فربطت نعليها السحريين، على قدميها الجميلتين، وحملت رمحها العظيم الذي تقطر المنايا من سنانه، ووضعت تاجها المرصع على رأسها الكبير، وأطلقت ساقيها للريح، حيث كانت بعد لحظة على مقربة من قصر أوديسيوس، فهبطت من السماء إلى الأرض. وفي لمحة البصر انقلبت فاتخذت شكل الآدميين، وتخايلت في هيئة الأمير منتش وطيلسانه، ثم تقدمت فدخلت ردهة القصر الواسعة، حيث اجتمع العشاق المجانين من أجل وليمة، وتلفتت يمنة ويسرة، ورأت الفتى السادر الساهم الحزين تليماك، وقد تعقدت فوق جبينه هموم.. وهموم، وتغضنت ملء أساريره آلام.. وآلام..

وما هو إلا أن لمحها تليماك حتى أخذه من هيبتها شيء عظيم. فهب للقائها مسرعاً، ثم مد اليها يده مصافحا وهو لا يعرف مَنْ هي، وقال: «مرحبا مرحبا بالغريب المكرم.. هلمَّ فشارك في ذلك الحفل، ولنتحدث بعدها فيما أقدمك الينا. مرحبا مرحبا وأهلا وسهلاً». ودلف نحو الصالة المزخرفة، وتبعته مينرفا، وفي يمناها رمحها الجبار الذي يقدح من سنانه الشرر، حتى إذا بلغا العمود الأكبر الذي أسندت اليه مئات الرماح، والذي كان أوديسيوس يسند اليه رماحه وعدة حربه، تناول تليماك الرمح وأسنده بعد جهد، حيث برز بكل عظمته وكل جلاله بين رماح العشاق الفاسقين، وتقدم نحو أريكة وثيرة منعزلة، وسأل مينرفا فاستوت عليها، وكانا ثمة بمأمن من أن يستمع إليهما أحد.. وأقبلت جارية حسناء رائعة تحمل طستا

وإبريقا من الذهب، فصبت الماء على يدي الضيف ويدي تليماك، ثم مضت فأحضرت مائدة نسقت عليها الورود والرياحين، ونشط الخادم يحمل أطباق الطعام والفاكهة والحلوى، فيأتي بها ملأى ويمضي بها فارغة، والخادم فيما بين ذلك يجذب قربة الخمر إليه ويسقي ثم يسقي.. وشرع العشاق المجرمون بدورهم يلتهمون ما لذ وطاب من أكل وشراب.. حتى إذا انتهوا أخذ فيميوس نايه وانطلق يغني.

وانتهز تليماك فرصة انصراف القوم إلى لهوهم وشرابهم فسأل الضيف قائلاً:

«يا أعز الأصدقاء! أرأيت إلى أولئك الفساق، لو أن رب البيت هنا، أكانوا يلهون لهوهم هذا أو يفسقون فسوقهم هذا؟ كلا! لقد كانوا إذن أسرع إلى الهرب منهم إلى ذلك الطرب، ولكن.. أواه.. أين هو! أين أوديسيوس العظيم الذي انقطعت عنا أخباره ويئست من أوبته دياره.. ولكن حدثني بربك مَنْ أنت؟ ومن أي الأقاليم قدمت؟ ومن رجال البحر الذين القوا مراسيهم عند إيثاكا؟ أغريب أنت أيها السيد؟ أم كنت فيما خلا من الزمان من أصدقاء أبي وأحبائه؟

وقالت مينرفا ذات العينين الزبرجديتين:

«ليهدأ بالك يا بني، فإني مجيبك على كل ما سألت. إنك ترى الآن منتش أمير (جزيرة الطافيان) البحارين. وسليل انخيالوس الكبير. ولقد أبحرنا من جزيرتنا ميممين شطر جزيرة النحاس من أجل ذلك المعدن الثمين.. وسفائننا ملقية مراسيها بالقرب من غابات نيوس. ولقد كنا ولا نزال من أحب ضيفان أبيك وأقربهم إلى فؤاده، فلما سمعنا بما حل به من شدة، وبيته من حزن استوحينا آلهتنا فأخبرتنا أنه لا بد عائد إلى وطنه سالما غانما، وأنه لا بد منتقم من هؤلاء الفجار الأشرار.. ولكن خبرني بأربابك، هل أنت حقا ابن أوديسيوس العظيم؟ إن ملامحك تشبه ملامحه، وإنك لقريب الشبه منه جدا، وإن هذا البريق الذي يشع من عينيك هو نفسه

الذي كان يشع من عيني أوديسيوس. يا للآلهة! كم تحدثت إلى أبيك قبل أن يشد رحاله إلى طروادة! فهل يقدر لي أن أتحدث مرة أخرى. إنني من وقتها إلى اليوم لم أره. وهو كذلك لم يرني.. ألا ما أشوقني اليه! ما أشوقني اليه!..».

وشاع بارق من الأمل في نفس تليماك، فقال: «ويحك أيها الصديق! إنني انا ابن أوديسيوس ما في ذلك ريب، والعالم كله شهيد على ذلك».

ثم اختلطت الزرقه بالخضرة في عيني ربة الحكمة وقالت: «على رسلك يا تليماك! إذن فما هذه الولائم وتلك الحفلات، وهذا الزحام من أين أقبل؟ أني لأقلب ناظري في القوم فلا أرى شريفا ذا حسب يستأهل أن يُحتفى به أو يقام له وزن!».

ويبتئس تليماك ويجيب: «أيها العزيز.. لقد هاجرت الفضيلة من هنا في أثر المهاجر العظيم، وقد آلت ألا تعود إلا معه. وا أبتاه! لقد أطمع العاديات فينا بطول نأيه. فيا للبعد، إننا لا ندري اليوم أين مقره ولا أين مستودعه.. ولو قد خر تحت أسوار طروادة لاجتمع الاغريق من كل حدب هنا.. هنا.. في حاضرة إيثاكا ليذرفوا دموعهم من أجله، وليقيموا له صحائف صدورهم بمداد أبدي من التبجيل.. ولكن! وأسفاه! لقد انتصر انتصار الأبطال ثم مضى على وجهه وراء البحار، وغدونا لا تحلم العين بنظرة مفردة منه، ولا الأذن بلفظة عذبة من لسانه المبين! تباركتِ يا آلهة الأولمب! ماذا عندك من الأقضية المخبوءة لي؟ الذئاب! أي يا آلهة هذه الذئاب يا وحوش البرية التي اجتمعت من كل فج.. من الجزائر المتناثرة في البحر، ومن المدائن المترامية في البر.. من ساموس ودلشيوم وزاكنثوس ومن كل اقليم وكل مصر.. كلهم يرابطون حول هذا القصر ولا يستحيون.. الفساق! الزناة العرابيد! يطلبون يد الزوجه الوفية.. الأم المكلومة.. بنلوب بنلوب، الباكية المحزونة المصدعة! كنز أوديسيوس الذي لا يفنى! يطلبون يدها ولا يرحمون وفاءها وبكاءها وولاءها.. فلا

تستطيع أن تردهم لعجزها، ولا تستطيع أن تجيبهم وهي لا تدري من أمر زوجها.. وهم طوال هذه السنين يعيشون في نعماء أبي، يأكلون ويشربون ويرقصون، حتى أقفر الزرع وجف الضرع، وما أحسبهم مبقين على شيء».

وانثال الحنان من فم مينرفا، إذ هي تجيب الفتى المحزون: «ويح لك أيها الفتى! رحمة لك يا بني الصغير! أواه، لو أن أباك هنا اليوم ليذود أولئك المناكيد! وحق السماء لو أنهم رأوه وهو يلاعب رمحيه أو يداعب سهامه لأجفلوا وولوا مدبرين! إن له لسهاما مسمومة سقاها أبي بعد أن رفض أن يمسّها ايلوس بن مرمريس وهو لو صوبها إلى أولئك الانذال لأبادهم.. يا رحمة له! إن أحدًا غير - الآلهة - لا يعلم إن كان لايزال حيا يرزق، أو هو قد ابتلعه اليم، أو عاجلته المنون. تليماك يا ابن أعز الناس عليّ! أصغ إليّ، وع الذي أقول: إنك لست طفلا بعدُ! فلمَ لا تشمر عن ساعد الجد وتبحث بنفسك عن أبيك! لِمَ ترضى أن يلطخ شرف بيتك هؤلاء الفجار؟ لم لا تعلمهم بنفسك في أمر أمك، ولا تصرفهم عن هذه الدار إلى بيت جدك ليطلبوا منه يد ابنته إن شاؤوا؟ أليس أبوها أليق لهذا الشأن من كل رجل سواه ما دام أوديسيوس لم يرجع؟ إنهم يربضون هنا كسباع الفلاة ينهبون ثروتك ويأكلون مالك ويذهبون بالأخضر واليابس مما ترك أبوك. استمع لما أقول يا تليماك! نبئ القوم فليجتمعوا لك، ولتسمعهم كلمتك، ولتصارح أمك، إن هي أرادت منهم بعلا فلتنصرف إلى بيت أبيها فهو أولى بهذا الأمر من كل أحد، ثم انهض أنت يا ابن أوديسيوس، فابحث عن أوديسيوس. أعدَّ ما استطعت من سفن وزاد، وعتاد، ولتبحر على بركة الالهة. فتلذهب أولاً إلى بيلوس حيث الحكيم الباسل نسطور، ثم إلى اسبرطة حيث صاحب هذه الداهية منيلاوس زوج هيلين. اقلع بفلكك إلى هذين فسائلهما أين مضى أبوك فقد تقع منهما له على خبر.. ولتكن لك أسوة في الفتى الجريء المقدام أورست أجاممنون الذي قتل قاتلي أبيه

وفيهم أمه . . . بوركت يا أورست! بوركت يا أورست! هلم يا تليماك فقد تعود بأبيك حيا فيرد الشرف والمجد إلى هذا البيت . وقد تعود به ميتا فترفع ذكره، وتقيم قبره، وتخلد في العالمين أثره. والآن فلأنهض أنا إلى رجالي وسفني، فلقد بعدت طويلا عنهم . . وكلي يقين يا بني أن تقدِّر نصحيتي وعلى الآلهة فلنتوكل».

وحين انتهت مينرفا من هذا الحديث، حدجها تليماك وقال: «أيها الصديق حبًّا، ويا أبر الأوفياء سَمْعًا، لقد أيقظت فيَّ ضميرًا أنت أحييته، فألف شكران لك . . أبدًا لن أنسى كلمتك: أنا ابن أوديسيوس فلأبحث عن أوديسيوس».

وحاول الفتى ان يقدم لمحدثه هدية سنية تكون تذكار هذا اللقاء، ولكن مينرفا شكرته وأبت أن تأخذ شيئا، واستطردت تقول: «فإذا نجحت في مسعاك يا بني فسوف أعود، وسوف أقبل أية هدية منك».

ثم انطلقت ربة الحكمة ذات العينين الزبرجديتين، ولشد ما ذهل الفتى ووقف مذهولا مشدوها حين رأى هذا الأمير (منتش) ينتفض انتفاضة هائلة فيكون نسرا ضخما يضرب الهواء بجناحيه، ثم يعلو ويعلو . . فيكون في السماء ويغيب عن ناظريه؟

ولم يحس الفتى يوما بما أحس به الساعة من هذه الذكريات الملحة على فؤاده تهيج فيه الشوق إلى لقاء أبيه، وجدد الثقة عنده وأكدها فيه يقينه أن إلها يساعده، هو هذا الضيف الذي أرسل جناحيه وغاب في السماء.

وانطلق تليماك حيث جلس الفساق يستمعون إلى أغاني فيميوس، حيث وجد أمه في الشرفة العليا تستمع هي الأخرى إلى تلك الأغاريد بين قيانها من وراء ستار صفيق وتبكي . . وتسأل فيميوس أن يتغنى غير هذا الغناء، غناء لا يثير شجوها وحزنها . وتثور النخوة في قلب الفتى فيصيح بأمه: «علام العويل يا أماه؟ وما وقوفك هذا الموقف ترفضين الغناء؟ وما اعتراضك على المغنى؟ دعيه فَلْيُغَنِّ ما يشاء، فلقد غدونا سخرية القضاء

ولعبة المقادير . ولقد ذهب أوديسيوس وذهبت معه كرامة هذا البيت، وإني لصاحبها بعده . . . فادخلي، وليدخل معك وصيفاتك، ولتقمن جميعا بشؤون المنزل، وانصرفي إلى مغزلك ومنسجك، ودعي كل ما عدا ذلك للرجل . . لي . . لي أنا وحدي، سيد هذا القصر».

وأثرت مقالة الابن في نفس أمه، فانثنت مع وصيفاتها إلى مخدعها بالطابق العلوي، حتى إذا خلت إلى نفسها ذرفت من الدمع على أوديسيوس ما شاء لها حزنها أن تذرف . أما تليماك فقد انطلق وسط القوم ونادى بأعلى صوته: «أيها الفساق، يا عشاق أمي الطاهرة! خذوا في لهوكم، وتمتعوا قليلا أو كثيرا، فإذا كان الغد فاجتمعوا في الساحة الكبرى، فإن لي كلاما معكم . . سأطلب اليكم أن تشدوا رحالكم من هنا! أتسمعون؟ لقد طالما أتلفتم لنا زادا وعتادا . . ألا فلتلتمسوا الزادِ والعتاد من عند أنفسكم، ولتقيموا أفراحكم وولائمكم في غير هذا المكان، فإن أبيتم فإنني مستعين بالآلهة عليكم، ولتقتص منكم السماء بما جرحتم».

وما كاد يفرغ من خطبته حتى عضوا على أصابعهم لمفاجلتهم بهذا الكلام الخشن الذي لم يعتادوه . ونهض أنتينوس من مجلسه وقال: «تليماك! لقد حق لك أن تخاطبنا بهذه الشجاعة، ولكن يا لشؤم اليوم الذي تتوجك السماء ملكا فيه على إيثاكا . . عرش آبائك . . وأجدادك!».

ويجيب تليماك: «ليس أحب إليَّ من الملك حين تخلعه عليَّ السماء . . غير أن أمره اليكم اليوم إن كان قد قضى أوديسيوس . أما أنا . . فلا أريد إلا أن أكون سيد هذا القصر . . ولا غرو فإن هذا من حقي».

وأجابه يوريماخوس: «إن من حقك أن تقول ما تشاء يا أخانا تليماخوس . . اما ملك إيثاكا فالسماء وحدها تؤتيه من تشاء . ولكن قل لنا بربك: من هذا الضيف الذي كان معك الساعة، هل من قِبَلِ أبيك أقبل، أو أن له عليكم دينا؟ إن أحدًا منا لم يلقه ولم يره، ولكنا لمحناه من بُعد، عليه سيماء النجابة والجلال . من أين أقبل يا تليماك وفيم قدم؟».

وأصلح تليماك من شأنه وقال: «أيها السيد بوريماخوس! إن يقيني أن أبي قد انتهى ولن تغريني هذه الكلمات المعسولة التي يتشدق بها المنجمون.. أما هذا الضيف.. فهو من أصدقاء أبي طبعا، وقد أقبل لمجرد الضيافة، وهو الأمير منتش أمير البحارين وسيد تافوس وابن سيد هذا الزمان، الملك الشجاع انخيالوس».

قالها تليماك وهو أعرف الناس بضيفه. ثم انثنى كلٌّ إلى مخيمه، وانثنى تليماك إلى مخدعه بالطابق العلوي، حيث كانت مربيته يوريكليا تنتظره، وتوقد له الشموع والسرج. يا لها من أنثى طيبة تخلص لمولاها وتحنو عليه. لسرعان ما خلع ملابسه فعطرتها وحفظتها... ولسرعان ما هيأت له فراشه الوثير.

وقضى تليماك ليلة رائعة ممتلئة بالهواجس والأفكار..

وراح يفكر.. ماذا يفعل غدا؟. وماذا سوف تفعل الاقدار معه؟

هل سوف تساعده في رحلة البحث عن والده.. أم يكون مصيره نفس مصير والده.

وهذا ما سوف تقرره الآلهة...



حصان طروادة

مغامرات أوديسيوس

بعد مقاومة عنيفة دامت عشرة أعوام، سقطت طروادة في يد اليونان، واحتفل هؤلاء بانتصارهم، ثم أسرعوا في العودة إلى أوطانهم. ولكن شاء الآلهة أن يعاقبوهم على ما ارتكبوه من إثم ليلة احتفالهم عندما انتهكوا حرمه المعابد فاغتصبوا النساء اللاتي اعتصمن بها ثم أشعلوا النار فيها، فأغضبوا الآلهة خاصة أثينة التي ذهبت إلى بوسيدون وأثارته ضدهم وطلبت إليه «أن يثأر لها وأن يذيقهم العذاب أثناء عودتهم إلى أوطانهم، فيملأ البحر أمواجا وأنواء ويحطم سفنهم ويهلك منهم أبطالهم». وأجابها بوسيدون إلى ما طلبت، فأرسل الصواعق وأطلق الرياح، فهاجت البحار واضطربت، واشتد الموج وطوح بأساطيل الإغريق في عرض اليم وشتت شملهم، فكاد أجاممنون أن يفقد سفائنه وغرق أياس (المعروف بأجاكس) وتحطمت سفن مينيلاوس وألقت به العواصف إلى جزيرة فاروس بالقرب من شواطئ مصر. أما أوديسيوس فذاق الأمرين، لقد قاسى الأهوال وضرب في عرض البحر عشر سنين قبل أن يعود إلى وطنه حيث كانت تنتظره بنيلوب زوجته الوفية، وتليماخوس- تليماك ابنه الحبيب، ولارتيس والده.

ولقد روى هوميروس قصة هذا البطل وصورها أروع تصوير في الأوديسا، فكانت من أروع ملاحم اليونان الشعبية، يحفظها أبناؤهم ويتغنى بها ملاحوهم ويرددها منشدوهم. ولما كان المجال لا يتسع لسرد أحداث هذه القصة ووصف مناظرها كما وردت في الملحمة الهوميرية، لذا رأينا أن نختار بعض حوادثها ونعرضها بالتفصيل.

يبدأ الشاعر قصيدته بالابتهال إلى ربات الشعر ويتوسل اليهن أن يلهمنه

أروع المعاني وأعذب الالحان. ثم يصف لنا كيف ضل أوديسيوس طريقه في عرض البحار، وكيف تعرض للمصائب والأهوال، ثم كيف رقت قلوب الآلهه له، وكيف رثت لحاله أثينة وتوسلت بأبيها زيوس أن يدرك البطل برحمته ويرده إلى وطنه سالما، فيستجيب أبوها لطلبها ويقضي بأن يعود ابن لارتيس إلى جزيرة إيثاكا، مسقط رأسه ومقر حكمه حيث استولى فريق من الادعياء على قصره منذ رحيله إلى طروادة وأخذوا يبددون ثروته ويضايقون ابنه وزوجته.

ثم يروي لنا هوميروس كيف هبطت أثينة من السماء واتخذت صورة صديق من أصدقاء أوديسيوس ودخلت القصر واقتربت من ابنه - تيلماك- تليماخوس، ونصحته بالذهاب إلى أسبرطه ليعرف أخبار أبيه من ملكها. ويستمع الفتى لها ويعمل بنصيحتها، ويصل هناك ثم يذهب إلى قصر مينيلاوس الذي يرحب به ويخبره أن سفائن أبيه قد تحطمت، وأنه حل ضيفا على عروس الماء كاليبسو فهامت به وأبقته بجانبها، ومازال أسيرا في جزيرتها لا تسمح له بالرحيل.

وبعدئذ وصف لنا الشاعر كيف استطاعت أثينة أن تصور للآلهة الآلام التي كان يقاسيها البطل بالقرب من هذه الحورية، وكيف طلبت إلى أبيها أن ينقذه من الجزيرة الموحشة ويرجعه إلى بلده، فيأمر زيوس ولده هرميس بأن يتوجه في الحال إلى كاليبسو، ويطلب إليها أن تخلي سبيل البطل. وتطيع الحورية أمره وتسمح لأوديسيوس بالرحيل، فيعد لنفسه زورقا، ويودع عروس الماء الحزينة، ولكن وا أسفاه! ما إن ابتعد عن الجزيرة حتى لمحه بوسيدون الذي أخذ يهز أعماق البحر حتى هاج وتلاطم بأمواج كالطود، حطمت الزورق وتركت البطل يناضل الموت ويكافحه، ثم قذفت به على شاطئ جزيرة اسخيرا التي يسكنها شعب الفياكيس. واستسلم لنوم عادي عميق، وهناك جاءت ناوسيكا ابنة الملك ألكينوس مع وصيفاتها ليغسلن الثياب ويلعبن الكرة، فعلت ضحكاتهن، وهب أوديسيوس مذعورا واتجه

اليهن. فما إن رأينه حتى هَرَبْنَ خائفات إلا ناوسيكا، فقد ظلت في مكانها حتى اقترب منها وقال لها بلباقته المعهودة: «إني أسجد أمامك، أيتها الأميرة، وأنا لا أدري إن كنت إلاهة خالدة أو سيدة فانية.. ولكني على أي حال لم أر مثلك من قبل، إني أتوسل إليك أن ترحمي بحارا تحطمت سفينته، وفَقَدَ أصحابه وكل مؤنه». فأعطته ثوبا يرتديه وطلبت إليه أن يتبعها من بعيد وقالت: «إن الناس لا يكفون عن الكلام إذا رأوا معي رجلاً وسيما مثلك، بل سوف تذهب بهم الظنون. ولكنك تستطيع التعرف على قصر أبي لأنه رائع فخيم، فإذا بلغته ادخله ولا تتردد في مقابلة أمي لأن كل ما تقوله يحوز على القبول من أبي».

ووصل أوديسيوس القصر ودخله فوجد زعماء المدينة وشيوخها يأكلون، ويشربون. فتقدم البطل بهدوء حتى اقترب من ألكينوس وزوجها الملك وحياهما، فأذنا له بالجلوس وأكرما وفادته. فأكل وارتوى ثم طلب إلى الملك أن يساعده في العودة إلى وطنه، فوعده الملك خيرا ودعاه أن يقضي الليل في ضيافته ليستريح من عناء رحلته. وفي صبيحه اليوم التالي اصطحبه الملك إلى الشاطئ، وأمر بأن تعد له أحسن السفن، وأن تختار له نخبة من أصلب الفتيان عودا وأشدهم مراسا ليصحبوه حتى يعود إلى بلده سالما. ثم دعا ألكينوس شعبه إلى وليمة أقامها إكراما لضيفه، كما أقام حفلا رياضيا تخللته الأغاني الرخيمة والرقصات الرشيقة.

وبعد أن فرغ القوم من لهوهم، سأل الملك ضيفه عن اسمه وطلب إليه أن يحدثه عن وطنه ويصف له الأخطار التي تعرض لها، فيقص له أوديسيوس أنباء رحلته منذ أن ترك طروادة بعد سقوطها حتى وصل جزيرة اليفاكيس. ويفصِّل هوميروس الأحداث التي مرت بالبطل، فيحدثنا على لسانه عن مغامراته مع جماعه من المتوحشين يسمون الكيكونيس، ويصف لنا كيف فَقَدَ بعض رفاقه عند أكله اللوتس، وكيف فتك الكيكلوبس بوليفيموس ببعض رجاله، وكيف أحدقت به الأخطار في جزيرة الساحرة

كركي. ثم يصف لنا نزوله إلى العالم الآخر ليسأل شبح العراف تيريسياس عن الصعوبات التي ستقابله قبل عودته، ويصور لنا الهلاك الذي تهدده عند مروره بين خاريبديس وسكيلا، والموت الذي لحق بنفر من بحارته في جزيرة ثيران الشمس. وبعد أن يعرض هوميروس تفاصيل هذه المغامرات في صورة قصة يرويها أوديسيوس على مسامع الملك وشعبه، يصور لنا رحيله عن جزيرة الفياكيس وعودته إلى وطنه. ويعتبر هذا الجزء من الأوديسا أكثر إمتاعا لأنه يفيض باللوحات الشائقة والمناظر الساحرة، ويمتلئ بالمواقف المثيرة والصور المخيفة التي رسمها الشاعر بأسلوب رائع رشيق. ومن أوصافه الممتعة تصويره للجزيرة المنعزلة التي كانت تقيم بها حورية الماء كاليبسو، وفيها يقول:

«وأرسل زيوس ابنه هرميس ليأمر هذه العاشقة أن تطلق سراح البطل، فاندفع الرسول نحو الجزيرة، يرف بين السماء والماء ويجوب الفضاء حتى بلغها. وما برح يتنقل في ربوعها حتى وصل إلى الكهف الفسيح الذي تأوي اليه الحورية ذات الجدائل الجميلة، فوجدها هناك ووجد عندها موقدا كبيرا تتأجج ناره وتنتشر منه رائحه الأرز والصندل العبقة وتملأ أرجاء الجزيرة. وكانت كالبسو تغرد بصوتها العذب الرخيم وتعمل في منسج أمامها تحركه في سرعة فائقة. ولقد بسقت حول الكهف أشجار السرو العاطرة والحور والسنديان، وفوق أغصانها اتخذت الطيور أوكارها، وامتدت على جوانب الكهف أفنان الكروم مثقله بالعناقيد، وتفجرت عيون أربع بماء صاف ينساب بين الأعشاب النضرة والورود اليانعة. إنه لمنظر رائع يسحر الألباب ويبعث البهجة في قلوب الأرباب الخالدين».

وهذه لوحة أخرى تصور قصر ألكينوس الذي كان مضرب الأمثال في فخامته، وفيه هوسيروس يقول:

«لما وصل أوديسيوس إلى هذا القصر، بهره لألاء كنور الشمس أو ضياء القمر، ينعكس من أسوار مصفحة بالنحاس ومحاطه بسياج من اللازورد

الأزرق، وكانت بواباته من الذهب الخالص، وأعمدته من الفضة، ومدخله من النحاس، وعلى اليمين وعلى الشمال ربضت كلاب من الذهب صاغها هيفايستوس بمهارة فائقة لتحرس قصر الملك العظيم. وكان في الداخل بهو فسيح صفت إلى جدرانه أرائك فوقها نمارق من نسيج ناعم رقيق، وهناك أقيمت على قواعد راسخة تماثيل من ذهب لصِبْيَةٍ يحملون مشاعل تضيء البهو ليلا لجموع المدعوين. وخارج الساحة كانت تقع حديقة القصر تحيطها الأسوار من كل جانب، بسقت في جنباتها أشجار عالية مزهرة، فاكهتها دانية، وثمارها جنية لا مقطوعة في الصيف ولا ممنوعة في الشتاء، تهب عليها دائما ريح الصبا تنبت بعضها وتشيع النضج في البعض الآخر».

تلك مناظر خلابة تمتع برؤيتها أوديسيوس أثناء رحلته، وخففت من آلامه وأنسته بعض همومه في لحظات اليأس وساعات الخطر الذي كان يحف به منذ أن ترك طروادة حتى وصل إلى أرض الفياكيس.

وكانت أولى مغامراته مع شعب الكيكونيس الذين داهموا سفنه واشتبكوا مع رجاله وقتلوا منهم عددا كبيرا، فاضطر إلى مغادرة مدينتهم أسماروس، ودفعته العواصف العاتية وقذفت به إلى بلاد أَكَلَة اللوتس، فأرسل ثلاثة من رفاقه ليكتشفوا هذه الأرض ويتعرفوا على أهلها. فرحبوا بهم وأكرموهم وقدموا لهم طعاما كانوا يصنعونه من زهره اللوتس، وما إن أكلوه حتى نسوا أوطانهم، ورغبوا في البقاء معهم. وحاول أوديسيوس إقناعهم بالعودة معه، لكنه فشل ولم يجد بدا من ربطهم بالحبال وجرهم إلى السفن وشدهم إلى مقاعدها. أبحر من هذه المنطقة واستمر في رحلته حتى اقترب من الجزيرة التي يسكنها جماعة الكيكلوبس، العمالقة المتوحشين ذوي العين الواحدة المستديرة، الذين لا يخافون الآلهة ولا يحترمون القوانين ويسفكون دماء البشر، وينهشون لحمهم، رعاة قساة يفتكون بكل من ينزل أرضهم.

وجنح أوديسيوس إلى الشاطئ وترك سفنه ونزل مع أصدقائه إلى الجزيرة، فرأوا أمامهم كهفا شامخا استرعى انتباههم. وتوجه إليه أوديسيوس مع اثني عشر من رفاقه، وحمل معه نبيذا معطرا ليقدمه لمن يكرم وفادته من أهل الجزيرة، فلما اقتربوا من الكهف دخلوه، فلم يجدوا به إنسانا، ولكنهم أدركوا أن صاحبه يعيش في يسر ورخاء، لأنهم وجدوا عنده عشرات من الخراف والجداء وأوعية كثيرة امتلأت لبنا شهيا، وسلالا من الجبن الدسم. فأكلوا وشربوا وانتظروا عودة الراعي الثري عله يزودهم بمؤنٍ من عنده. وعاد رب الدار، فما إن رأوه حتى ارتعدت فرائصهم، فقد كان بشع المنظر، هائل الحجم. دفع أغنامه داخل الكهف، ثم أغلقه بكتلة من الحجر يعجز عن جرها عشرات الخيول. ثم نظر حوله فلمح قوما غرباء، فصاح بهم قائلا: «من أنتم لتدخلوا دار بوليفيموس دون إذنه؟ قوم من التجار أم جماعة من القراصنة؟». فانعقد لسانهم من الخوف، ولاذوا بالصمت، لكن أوديسيوس استجمع قواه ورد عليه قائلا: «إننا جنود حاربنا عند أسوار طروادة ونحن في طريقنا إلى أرض الوطن. هبت علينا العواصف والرياح وأغرقت سفننا، فجئنا نتوسل اليك ونطلب اليك المساعدة باسم زيوس، نصير الغرباء». فقهقه الكيكلوبس وسخر من ذكر زيوس لأنه كان لا يكترث به ولا يخشاه. ومن هو زيوس بالنسبة إليه، إنه أقوى من الآلهة جميعا، لا يخاف منهم أحد..

ثم انتفض ومد ذراعيه الحديديتين وأمسك باثنين من رفاق أوديسيوس، وحطم رأسيهما والتهمهما في لمح البصر. وبعد أن تناول طعامه، افترش الأرض ونام مطمئنا، لأنه كان يعلم أن ضيوفه لا يستطيعون إزاحه الحجر.

وفي صبيحة اليوم التالي التهم رجلين آخرين ولم يُبق منهما شيئا. ثم أزاح الكتلة الهائلة، وفتح الكهف وخرج بأغنامه ورد الحجر إلى مكانه. وبقي أوديسيوس مع بقية رفاقه، وأخذ يفكر في حيلة ليهرب من هذا السجن البغيض وحارسه الرهيب، فطلب إلى أصدقائه أن يعدوا من الخشب

الموجود بالكهف عمودا ضخما ذا نهاية حادة مدببة ويجففوه على لهب النار ثم يخفوه تحت القش حتى لا يراه العملاق عند عودته.

وعاد الكيكلوبس في المساء، وحلب أغنامه وأعد لها حظائرها، ثم تناول عشاءه وأكل اثنين آخرين من اليونان. وعندئذ اقترب منه أوديسيوس وناوله قدحا من النبيذ وقال: «إليك بهذا النبيذ يا بوليفيموس! ذقه واشرب منه حتى ترتوي». فأفرغ الكأس في حلقه دفعة واحدة، وأبدى إعجابه بالشراب اللذيذ، وطلب إلى البطل أن يملأ له كأسا بعد أخرى، ووعد بأن لا يلتهمه إلا بعد زملائه، مكافأة له على هديته، وسأله عن اسمه، فأخبره أوديسيوس أنه يدعى «لا أحد». ونام الوحش نوما عميقا، وحمل البطل ورفاقه العمودي الخشبي ووضعوا نهايته في النار حتى أصبحت كالجمر المشتعل، ثم غرسوها في عين بوليفيموس الوحيدة، وأخذوا يدفعون العمود داخل مقلته دفعاً قويا، ويحركونه بسرعة حتى أفقدوه البصر. وصرخ الكيكلوبس من شدة الألم وهاج كالأسد، وانطلق في الكهف يبحث عن أوديسيوس ورفاقه، فلم يعثر عليهم لأنهم قبعوا في ركن قصِيٍّ من الكهف. وصاح بوليفيموس بصوت مرعب ينادي أبناء عشيرته الذين كانوا يسكنون بجوار مغارته، فلبوا نداءه وأسرعوا إلى الكهف ووقفوا عند مدخله وسألوه: ماذا دهاك؟ وما مصيبتك؟ وفيم هذا الصراخ الذي أيقظنا من النوم؟ فرد عليهم قائلا: أغيثونى يا رفاق! إنني أكاد أموت من ضربة «لا أحد» القاضية، فعجبوا من كلامه وقالوا: إن كان «لا أحد» أصابك، إذن فهي ضربة زيوس القاصمة، فعليك أن تتحملها. وانصرفوا إلى مساكنهم وتركوه يئن من الألم.

وفي الصباح أزاح الحجر وجلس عند باب الكهف باسطا ذراعيه ليمسك بأعدائه عند خروجهم، لكن أوديسيوس كان قد أمر أتباعه أن يقعد كل منهم في سلة من البوص ويتعلق ببطن كبش من الكباش ويخرج بين كبشين آخرين، وأخذ الكيكلوبس يلمس النعاج والكباش أثناء خروجها ويتحسس ظهورها، ليقبض على أعدائه، فلم يعثر على أحد منهم لأنه لم يتصور أنهم

سيتعلقون ببطون أغنامه. وما إن خرجوا من السجن الرهيب حتى هرعوا إلى سفنهم وأقلعوا في الحال. وعندما ابتعدوا قليلا عن الشاطئ صاح أوديسيوس قائلا: «أيا بوليفيموس! لقد أنزل بك الآلهة عقابا صارما على الجرائم التي ارتكبتها، واعلم أن أوديسيوس هو الذي سمل عينك». ولما سمع الكيكلوبس ما قال، انتزع صخرة هائلة من سفح الجبل ورفعها عاليا وألقاها بكل قوته تجاه الصوت الذي ناداه، فاضطرب الموج اضطرابا شديدا، وأوشكت سفينة أوديسيوس على الغرق، لكنه كافح حتى أنقذها بعد مشقة بالغة، ثم انطلق مع زملائه في عرض البحر، وتابعوا رحلتهم حتى بلغوا جزيرة الرياح التي يحكمها أيولوس، ملكها وسيدها الأعلى، الذي بيده أن يثيرها وأن يخمدها وقتما يشاء. فاستقبلهم استقبالا حسنا وأكرمهم، ثم أعطى أوديسيوس عند رحيله حقيبة من الجلد وضع بداخلها كل الرياح العاصفة وأحكم ربطها حتى يجنبهم أخطارها، ثم أمر الرياح المواتية أن تدفعهم إلى أوطانهم.

ومرت تسع ليال هادئة قطعوا فيها مرحلة طويلة، ثم نام أوديسيوس من التعب. وتشاور رفاقه فيما بينهم. واتفقوا على فتح الحقيبة ظنا منهم أنها مملوءه بكنوز من ذهب أهداها الملك الكريم لبطلهم. فما إن فتحوها ليأخذوا نصيبهم حتى انطلقت منها الرياح العاتية. ودفعت السفن بعيدا عن مجراها وأعادتها إلى جزيرة أيولوس، فغضب الملك من حماقتهم وتخلى عن مساعدتهم وتركهم يكدون ويكدحون ليعودوا أدراجهم.

وما زالوا يضربون صفحة اليم بمجاديفهم ويقاومون الرياح العاتية حتى وصلوا أرض اللايستر بجونيس في صقلية، وكانوا قوما متوحشين من أكلة اللحوم، هاجموا سفنهم، وانهالوا عليهم يقذفونهم بالأحجار ويصوبون إليهم سهاما تحمل الموت، فدمروا السفائن ومن فيها، ولم تنج من هذه المعركة إلا سفينة أوديسيوس الذي فر هاربا هو ومن كان معه. ثم وصل إلى جزيرة أيبا التي كانت تسكنها الساحره كركي ابنة الشمس.

ونزل أوديسيوس إلى الشاطئ ووقف فوق ربوة عالية وأخذ يجيل البصر في أرجاء الجزيرة، فلاحظ أنها قد خلت من الناس، لا يسكنها أحد، وليس بها إلا قصر ضخم تحيط به أشجار باسقة. فأرسل جماعة من رفاقه، يتقدمهم يوريلوخوس ليكتشفوا مجاهلها، ويعرفوا سر هذا القصر. فلما اقتربوا منه وجدوا أنفسهم وسط أسود ونمور وذئاب مستأنسة، روّضتها كركي وأخضعتها لها بفضل فنون السحر التي تتقن استعمالها. وكانت هذه الحيوانات في الأصل رجالا سحرتهم الساحرة. وتركتهم على هذه الصورة حتى لا يرحلوا عن أرضها. وسمع البحارة صوتا عذبا حنونا ينبعث من القصر، فنادوا من فيه فخرجت لهم كركي ورحبت بهم ودعتهم، فقبلوا دعوتها إلا رائدهم يوريلوخوس، فقد توجس خيفة وامتنع عن الدخول. وذهبت الساحرة بضيوفها إلى بهو عظيم، وقدمت لهم طعاما شهيا ونبيذا معطرا. ولما شبعوا وارتووا، مستهم بعصاها، فصاروا خنازير يحتفظون بعقولهم ويشعرون بحالتهم المخزية ولا يملكون من أمرهم شيئا، ثم دفعتهم إلى حظائرهم وحبستهم بها.

وشاهد يوريلوخوس ما حدث، فأسرع إلى السفينة وأنبأ أوديسيوس بالخبر، فصمم البطل على إنقاذ بحارته، واتجه بنفسه إلى القصر. وقابله في الطريق هرميس، ابن زيوس، وحذره من كركي وخطورة سحرها، ثم أعطاه عشباً، وأمره أن يحتفظ به ليحميه من كيدها وطمأنه قائلا: «لا تخف كركي، ولا تخش سحرها، كُلْ واشرَبْ عندها ولن يصيبك شيء ما دام العشب معك، وإن لم تطلق سراح رفاقك، أشهر سيفك وهدد بتطويح رأسها. فتقبل أوديسيوس هديته وشكره على نصيحته، وذهب إلى القصر، فاستقبلته الساحرة استقبالا رقيقا، كما استقبلت أصدقاءه من قبل. وبعد أن انتهى سن تناول طعامه، مسته بعصاها وقالت: «والآن ابحث عن حظيرتك والحق بأصدقائك». ولكنه رفض واستل حسامه واندفع نحوها وطلب اليها أن تعد بإرجاع زملائه إلى سيرتهم الأولى، وتكف عن إيذائهم وإيذائه

وتكرم وفادتهم، وتتركهم ليعودوا إلى أوطانهم سالمين. فأقسمت أنها لا شك فاعلة، وكانت صادقة في وعدها فأرجعت البحارة إلى صورتهم الطبيعية، وأرسلت في طلب الآخرين الذين كانوا في السفينة وسمحت لهم بالإقامة في قصرها، وأغدقت عليهم جزيل النعم وبالغت في إكرامهم. فاستهوتهم حياة القصور الناعمة وأحبوا التمتع بها بجانب الساحرة، ولم يعد أوديسيوس يفكر في العودة إلى إيثاكا.

ولما طالت إقامتهم بدأ البحارة يذكّرون البطل بالأهل والخلان، ويستثيرون شوقه وحنينه ويدفعونه إلى ترك الجزيرة والرحيل إلى الوطن، فأجاب طلبهم، وقد زودتهم كركي بشتى المؤن وحذرتهم من السيرينيس، وعلّمت أوديسيوس كيف يتجنب إغراءهنّ ويدرأ عن البحارة خطرهن، ويمنعهم من سماع أصواتهن الساحرة. وأرشدته إلى النجاة من الهلاك الذي يتهدّدهم عند خاريبس وسكيلا، وطلبت إلى أوديسيوس أن ينزل إلى هاديس ليقابل شبح العراف تيريسياس، ليعرف منه الأخطار الأخرى التي قد تصادفه. وبادر أوديسيوس بالذهاب إلى عالم الموتى وهناك أخبره العراف ألا يقرب هذه الماشية وإلا يلحق بها هو ورفاقه أي أذى، وإلا هلكوا بعيدا عن أوطانهم.

ولما انتهى العراف من كرمه، نظر أوديسيوس فوجد حوله أشباحًا كثيرة من أصدقائه الذين ماتوا عند أسوار طروادة، ورأى أيضاً شبح أمه التي كانت على قيد الحياة عندما ذهب إلى الحرب، فاقترب منها ودار بينهما هذا الحديث البديع. قالت الأم:

«أي بني، كيف جئت إلى هذه الدار المظلمة وأنت ما تزال حيا؟ إنه لمن الصعب على البشر رؤية العالم الآخر، إذ تفصلهم عنه أنهار عظيمة وسيول جارفة مخيفة، والمحيط الأعظم الذي لا يستطيع أحد أن يعبره دون فلك متين. أواه! هل ضربت في عرض البحار بزورقك كل هذا الوقت الطويل حتى جئت هنا، أَوَلَمْ تصل إلى إيثاكا بعدُ؟ أَوَلَمْ تر زوجتك حتى الآن؟».

ولما سكتت، قال لها: «! أماه لقد جئت مضطرا إلى العالم السفلي، جئت لاستشير روح العراف تيريسياس. إنني لم أقترب بعد من وطني، ولم تطأ قدمي أرضه، ومازلت هائما على وجهي نهبا للأحزان منذ توجهت مع أجاممنون العظيم للقاء أبناء طروادة. ولكن أخبريني ولا تخفي عليَّ شيئا: أي قضاء أودى بحياتك؟ هل طال بك المرض؟ أم أصابك سهم من أرتميس؟ حدثيني عن ابني وعن والدي اللذين تركتهما، هل ما زالا في أيديهما السلطان؟ أم انتزعه منهما أحد؟ هل يئس القوم من أوبتي؟ خبريني عن حال زوجتي، ألا تزال تعيش مع ولدنا وتحافظ على ثروتنا؟ أم تزوجت أحد النبلاء؟».

ولما انتهى، إجابته أمه قائلة: «لا، يا بني إنها ما تزال وفية لك تقيم في قصرك، تقضي الأيام والليالى في النحيب والبكاء. أما ملكك العريض فلم يستول عليه أحد، وما فتئ ابنك يتولاه، ومازال أبوك في الريف لا ينزل إلى المدينة، إنه لا ينام على الأرائك ولا يستعمل الأغطية والوسائد وحتى في الشتاء يفترش الثرى مع الخدم بالقرب من المدفأة، يلبس ثيابا بالية، فإذا جاء الصيف والخريف كان فراشه من أوراق الشجر ينام عليه، تنتابه الأحزان وتقض مضجعه الآلام ينتظر عودتك رغم شيخوخته المضنية. وهكذا قضيت أنا الأخرى وانتهت أيامي، فلا أرتميس رمتني بسهم من سهامها، ولا أصابني داء أنهك بدني وأفنى حياتي. لا، يا بني، إنه الحزن والهم، إنه الوجد والشوق إليك، إن هذه جميعا هي التي حرمتني الحياة الحلوة».

ولما سكتت عن الكلام أراد أن يضمها إليه فاندفع نحوها ليمسك بها. ولكنها انفلتت من بين يديه كحلم سار أو ظل مبتعدا، فامتلأ قلبه حزنا وناداها بصوت مرتفع قائلا: «لماذا يا أماه ترفضين عناقي الذي أتحرق إليه شوقا لكي نتبادل القبل ونستسلم للنحيب والبكاء؟ أم يا ترى أرسلت إلى ربة هذه الدياجير شبحا يضاعف همومي وآلامي؟».

فردت عليه وقالت: «أواه، يا بني، يا أتعس الناس أجمعين! ما حاولت آلهة الموتى أن تخدعك أبدا، ولكنها سنة البشر إذا ماتوا لم يبق منهم لحم أو عظم أو عضل، لأن النار الحامية تلتهم أبدانهم عندما تفارقهم الحياة وتصعد أرواحهم، فعجل بالخروج من هنا واذكر ما سمعت مني وقُلْهُ لزوجتك».

وبعد الانتهاء من هذا الحديث المؤثر، صعد البطل من العالم السفلي وذهب إلى سفينته، وأخذ يفكر فيما قاله العراف وتذكر نصيحته، فقرر ألَّا يتوقف عند جزيرة ثريناكيا. لكن أتباعه ألحُّوا عليه ليأذن لهم بالراحة فيها والجلوس على شاطئها، فأجابهم إلى طلبهم وأمرهم إلا يقربوا شيئا من القطيع المقدس، وأن يكتفوا بالمؤن التي أحضروها من قصر كركي. فأقسموا أنهم لن يمسوها. ولكن حدث أن هبت رياح عاصفة عاقتهم عن الرحيل. ومضت أيام وأيام ولم تكف العواصف ولم يهدأ البحر، ونفدت المؤن وشعر البحارة بالجوع، فاضطروا إلى ذبح عدد من الثيران ليأكلوا لحمها. ولما علم أوديسيوس بذلك استولى عليه خوف عظيم لأنه كان يعرف عاقبة جرمهم. فلما سكتت الرياح، أبحروا من الجزيرة ولكنهم لم يبعدوا عنها إلا قليلا حتى اضطرب الجو واكفهرت السماء، فلمع البرق وقصف الرعد ونزلت على السفينة صاعقة حطمت صاريها ودمرت مقاعدها وجوانبها وأهلكت كل مَنْ فيها، ولم ينج إلا أوديسيوس الذي تعلق بلوح خشبي من حطامها، حمله بعد أن هدأت العاصفة إلى جزيرة كاليبسو حيث قضى عدة أعوام، ثم أمر زيوس هذه الحورية أن تطلق سراحه، فركب البحر وصارع الموج وكافح كفاحا مريرا حتى وصل إلى أرض ألكينوس.

وهكذا انتهت قصة البطل التي رواها على مسامع الملك وشعبه، فتأثروا لسماعها وأكدوا له أنهم لن يتركوه حتى يرجع إلى بلده سالما، وأمرهم ألكينوس أن يعدوا له سفينة، وأن يقدموا له الهدايا النفيسه، وأن يبحروا معه حتى يصل إيثاكا. وركب أوديسيوس معهم ونام نوما عميقا هادئا. ولما

بلغوا شاطئ جزيرته حمله مرافقوه وأنزلوه إلى البر وتركوه نائما، وعادوا من حيث أتوا. فلما استيقظ أوديسيوس لم يستطع أن يتعرف على معالم مملكته حتى اقترب منه شاب وسيم وأخبره أنه في إيثاكا التي غاب عنها عشرين عاما.

وهكذا انتهت مغامرات أوديسيوس وإن لم تنته متاعبه، إذ كان عليه أن يتخلص من الأدعياء الذين استولوا على قصره وعبثوا بثروته. ولقد وصف هوميروس مراحل الصراع بين البطل وأعدائه، وشرح لنا كيف انتصر عليهم بمعاونة الربة أثينة التي تجلت له في صورة حسناء فاتنة، ونصحته أن يصبر ويتحمل ما قد يصيبه من مكروه، ثم غيرت صورته ودثرته بثياب بالية حتى لا يعرفه أحد، وأخبرته أن يذهب إلى يومايوس، صديقه الراعي الأمين، ويقيم عنده حتى تعود الآلهة بابنه تليماخوس - تليماك. فاتجه الوالد إلى الراعي وهناك حضر إليه ابنه. فكشف له الأب عن شخصيته وقص عليه قصته. وأخبره أنه تنكر في هذه الاسمال حتى يستعين على أمره بالكتمان، وطلب إليه إلا يخبر أحدا بعودته، وأمره أن يذهب إلى القصر وينتظره حتى يلحق به مع يومايوس، وانصرف تليماخوس وذهب إلى أمه، وأخبرها بأنباء رحلته التي كان قام بها ليعرف أخبار أبيه، وأقبل الراعي ومعه البطل في صورة شحاذ فقير وجلس على الأرض، فأرسل إليه ابنه شيئا من اللحم والخبز ثم أشار إليه بالدخول، فسار بين الأمراء وسألهم أن يتصدقوا عليه، فرثوا لحاله وناولوه قطعا من الشواء وشيئا من الطعام، ثم خرج المسكين وجلس عند باب القصر حيث كان من قبل.

عندئذ ظهرت بنيلوب بين العشاق فرآها زوجها تتحدث إليهم عن سعادتها الماضية مع حبيبها أوديسيوس، وتندب حظها لغيابه الطويل، وتعبِّر عن غضبها لوجود هؤلاء الأدعياء، وتذمُّهم لإقامتهم في قصرها وتأمرهم بالرحيل عنه. ولكنهم انصرفوا ليعودوا إليها بهدايا الزواج. فانسحبت بنيلوب إلى غرفتها وتركتهم يلهون ويغنون. وأقبل الليل، فأخذوا

يضحكون ويسخرون من الشحاذ الفقير، ولكنه رد على الإهانة بمثلها، فأرادوا أن يطردوه لولا أن منعهم تليماخوس وأمرهم أن يتركوه في القصر، وأن يذهبوا من فورهم إلى بيوتهم، فأطاعوه وانصرفوا.

وهكذا خلا الجو للبطل وابنه، فأخفيا أسلحة الأدعياء ثم آوى كل منهما إلى فراشه. لكن أوديسيوس لم ينم وأخذ يفكر فيما عسى أن يأتيه به الغد من أحداث. عندئذ تجلت له أثينة فطمأنته وأكدت له أنه سينتصر على خصومه. وفي الصباح توسل البطل إلى زيوس أن يجيئه بآية لتشد من أزره، فاستجاب لندائه. وسرعان ما اكفهرت السماء وعصفت الريح ووقف العراف ثيوكليمينوس وسط العشاق وأنذرهم بسوء العاقبة وتنبأ لهم بهلاك قريب.

بعدئذ أحضرت بنيلوب قوس أوديسيوس الهائلة وقدمتها إليهم وقالت «أيكم يرمي بها مهما سيكون زوجا لي». فقبلوا الشرط، ثم أخذوا يجربون حظهم الواحد تلو الآخر، ولكنهم أخفقوا جميعا حتى يوريماخوس، فلقد أبت القوس أن تلين في يده، فلما بلغ منه الجهد القى بها يائسا وقال: «العار لي ولكم. إننا دون أوديسيوس قوة، ولا نستطيع أن نشد قوسه»، وعندئذ تقدم البطل وهو متنكر في أسماله البالية وقال: «أرجوكم أن تعطوني هذه القوس لأجرب قوتي وأرى هل مازالت تجري في عروقي حيوية الشباب الدافقة، أم أن بؤس الحياة ومتاعبها قد قضت علينا إلى الأبد». وثار القوم وتعالى صياحهم، فسبوا الشحاذ وفكروا في طرده، لكن بنيلوب أصرت على أن يحاول ما حاولوا، وتقدم أوديسيوس وأخذ القوس وبدأ يفحصها، وكانت ضربة قاصمة للأدعياء الذين زاغت أبصارهم وامتقعت وجوههم، عندما التقط الشحاذ سهما وثبّتة في القوس وأرسله بقوة، فانطلق دون أن ينحرف، وأصاب الهدف. وحانت ساعة الانتقام، فألقى البطل أسماله وكشف عن شخصيته وتناول قوسه وجعبته ثم قال لأعدائه: «أيها الكلاب! لقد ظننتم أنني لن أعود من طروادة أبدا فاستبحتم

لأنفسكم نهب بيتي واعتديتم على نساء قصري وحاولتم إغراء زوجتي، لا تخافون غضب الآلهة ولا انتقام البشر. فالويل لكم، لقد حان أجلكم». ثم أخذ يسدد سهامه إلى صدور أعدائه حتى قضى عليهم واحدًا بعد الآخر.

ولما عرف أهل إيثاكا ما حل بالعشاق من نكبة على يد ملكها، هرعت جموع أقاربهم إلى قصره وتشاوروا في الأمر، فرأى بعضهم أن يقاتلوا أوديسيوس وينتقموا منه. لكن أثينة مضت إلى أبيها زيوس وسألته: «ماذا تضمر في نفسك يا أبتاه؟ هل تبغي إشعال الحرب وإضرام لهيبها؟ أم تريد التوفيق بين الفريقين وتحب السلام لإيثاكا؟» فرد عليها قائلا: «الآن وقد انتقم أوديسيوس لنفسه فعليه أن يحكم الجزيرة كلها، وعلينا أن نمن على أعدائه بالصبر والسلوان، ونولد المحبة في قلوبهم ليسود السلام بينهم وتزدهر حالهم وتزيد أموالهم.

وحلقت أثينه في الفضاء وطارت إلى إيثاكا وبدت لأهلها في صورة صديق من أصدقاء أوديسيوس وهتفت بهم وبملكهم قائلة: «اجنحوا إلى السلم، أيها المواطنون، وضعوا حدا للخصومة بينكم حتى لا تُغضبوا سيد الأرباب». فاستجابوا لندائها وتعاهدوا على الود والإخاء. وعاد أوديسيوس إلى قصره وقضى أيامه في راحة وهناء يدين له الشعب بالحب والولاء.

وراحت السعادة ترفرف بأجنحتها الرقيقة على القصر السعيد الذي يضم بين جدرانه الملك البطل الذي ليس له مثيل في الوجود والذي ظل اسمه خالدا أبد الدهر.. هو وزوجته الحبيبة - بنيلوب - الزوجة الصابرة.. الطاهرة... المخلصة التي لم تستسلم للنزعات والرغبات الدنيئة، وقد ظلت محافظة على شرفها وكرامتها حتى عودة زوجها..، كذلك الابن الوحيد - تليماك.. الشاب الصابر.. الصامد.. البطل الذي وقف بجوار والدته في محنتها القاسية.

ڤينوس
الاهة الحب والجمال

لقد كانت تتلألأ كتمثال من نور ومن بلّور، وكان لها شعر كأشعة الشمس، يسترسل فوق كتفيها العاجيتين فيدنو النسيم العاشق يقبله ويمد يده وينثر فوق الخصر والصدر ضياءه ثم يعود اليها بقلوب الآلهة وأرواحها، فينثرها تحت القدمين.. لتسحقها ڤينوس الجبارة.

أسطورة «مولد فينوس»
من الأساطير اليونانية



أفروديتي
الاهة الحب والجمال والخصب والتناسل عند الاغريق

ما أكثر ما تجري على الألسنة في انحاء العالم قصة مارس وڤينوس إذ فاجأهما زوجها الماكر فولكانوس. كانت ڤينوس قد أثارت وله الإله مارس فأحالت رب الحرب الجبار عاشقا وادعا. ولم يكن الحياء من صفات ڤينوس، وما كان هنالك قلب لإلاهة أكثر من قلبها رقة، فما أسرع ما لانت لتوسلات مارس، ومضت تسخر ماجنة من ساقي زوجها الحداد الأعرج وتتضاحك من أديم يديه الملفوحتين من أثر النار، المخشوشتين من طول الكد.

وتميد سحرا وجمالا بين يدي عاشقها وهي تحاكي زوجها ساخرة.

فى البدء نجحا في إخفاء لقاءاتهما الآثمة متسربلين بالخفر والحياء. لكن إله الشمس وشى بهما لفولكانوس، وهل يملك مخلوق أن يجد سبيلا لخداع إله الشمس؟!

آه يا إله الشمس، ما أسوأ المثل الذي نضربه.

ليتك التمست من فينوس إمتاعك بمفاتنها، فما كانت لتصدك لو كنت كتوما.

نصب فولكانوس حول الفراش شباكا تخفي دقتها عن كل عين وتظاهر بالرحيل إلى ليمنوس.

فهرع العاشقان إلى اللقاء، وإذا هما يقعان في الشراك عاريين. لحظتها، نادى فولكانوس الآلهة جميعا، ليروا مشهدا جديرا حقا بالرؤية.

كادت ڤينوس لا تملك حبس عبراتها، وما ملكا إخفاء وجهيهما، أو ستر عورتيهما بأكفيهما.

وتضاحك أحد الآلهة فقال: «يا أيها الإله مارس البائس، إذا كانت قيود الحب تبهظك، فماذا عليك لو حملتها عنك»؟ وبعد لأي استجاب فولكانوس لرجاء الإله نبتون، وأطلق سراح الآثمين. فهرول مارس صوب طراقيا، بينما أسرعت ڤينوس شطر بافوس كي يجتمع شملهما بعد قليل.

وأنت يا فولكانوس، ماذا جنيت من هذا كله؟

في الماضي كانا يلتقيان خفية، واليوم يتمتعان بنشوة الحب علانية لا يحتجبان حياء أو خشية.

ما أحمقك إذن..!

أوفيد

كانت الأسرة الإلهية التي تخيلها اليونان تسكن فوق قمة جبل أولمبيوس تتكون من أثني عشر عضوا: خمس ربات وسبعة أرباب. وكانت أفروديتي ربة الحب والجمال، فضلا عن الخصب والتناسل. وقد عُبدت في كل أرجاء العالم الهليني تقريبا، وإن فاقت معابدها في مدينتي بافوس وأماثوس بجزيرة قبرص، وفي جزيرة كيثيرا، غيرها في الشهرة. وكانت ربة لعوبا مخادعة، شغوفة بالضحك، تفتن بابتساماتها الحلوة من يقعون في شباك حبها، وتسخر منهم دون أن يظفروا منها بشيء. ولم يكن هناك سبيل إلى مقاومة إغراء هذه الربة التي كانت تسبي ألباب الحكماء أنفسهم. ويقول شعراء الأجيال التالية إن أفروديتي نشأت من زبد الموج، وإن اسمها نفسه يعني وليد الزبد، ويروون أن عضو إخصاب الإله أورانوس سقط في البحر المضطرب بعد أن ألقى به الإله كرونوس من الأرض، فتقاذفته الأمواج مدة طويلة، وأخيرا تجمع حوله زبد الموج، ومن هذا الزبد نبتت أفروديتي.

وقد حدث مولدها العجيب على مقربة من جزيرة كيثيرا، ثم حملتها الأمواج إلى قبرص، حيث خرجت من الماء، فلقبت باسم «ابنة الأمواج». ومنذ ذلك الحين ارتبطت هاتان الجزيرتان ارتباطا مقدسا بأفروديتي التي

كثيرا ما لقبت ايضاً بـ «الكيثيرية» و«القبرصية». وعندما بلغت قبرص استقبلتها الهواري، ربات الفصول، بنات ثميس، ربة القانون والنظام الذي يضبط العلاقات الطبيعية بين الجنسين، وهي ربة كان من البديهي أن تستهجن منظر العري التام، الذي كثيرا ما ظهرت أفروديتي فيه. ولهذا لم تدمج أفروديتي في زمرة آلهة أولمبيوس إلا بعد أن ألبستها الآلهة ثيابا لائقة، وعصبن جبينها بإكليل من الزهر، وزينها بالحلى الذهبية. وعندما وقعت عليها عيون الأرباب، بهرهم جمالها الأخاذ، فأمطروها جميعا بالقبلات، وأمسكوا بيدها، وتمنى كل منهم أن يتخذها زوجة له.

وليس من المستبعد أن تكون أفروديتي - وهي تقابل عشتر أو عشتروت عند الفينيقيين - قد وفدت إلى بلاد اليونان من الشرق عن طريق قبرص. فقد جاء إلى أثينا سن هذه الجزيرة أيضاً عشيقها أدونيس (وهو تموز) الذي كان عشيق عشتروت نفسها عند الشرقيين. لكن هناك من الدلائل ما يشير إلى أنها اكتسبت بعض صفاتها من ربات العصر المينوي، وبخاصة من أريادني التي شغلت هي مكانتها واستوعبت عبادتها.

وعلى أي حال فإن هوميروس يصفها بأنها ابنة زيوس رب الأرباب، وديوني وزوجة هيفايستوس، إله النار والبراكين والحدادة، وأقبح الآلهة شكلا. ويوصف إله الحرب أريس بأنه عشيقها، وأحيانا زوجها. وحسب أفروديتي خطرا أن انياس، جد الرومان، الذي أسس أحفاده روما، كان ينحدر من صلبها مباشرة، فقد أنجبته من أنخيسيس الطروادي، ولذا تظهر في الإلياذه محبة للطرواديين، مما يعزز أنها من أصل غير هليني، ولكنها لا تقوم بدور الربة المحاربة، فقد كانت أضعف من أن تشترك في القتال لأن ميدانها كان الحب وحده. ومع هذا فإن أفروديتي قد عُبدت أحيانا في اسبرطة وغيرها من الأماكن بوصفها ربة محاربة، وهي صفة يرجح أنها ورثتها عن نماذجها الشرقية، وقد تفسر أيضاً صلتها بآريس، إله الحرب، وبخاصة في الأساطير. لكن ينبغي ألا ننسى أنها كانت بوجه خاص ربة التناسل والإخصاب.

ومن ثم جاء تمثيلها للغريزة الجنسية وارتباطها بإيروس، إله الحب، وهيميروس إله الشهوة، اللذين يوصفان في الفن والأدب بأنهما ابناها. ومن هنا جاءت أيضا رعايتها حتى لعاهرات المعابد في كورنثة، حيث لقبت أحيانا بالمحظية أو العاهرة، وكذلك اتصالها القوي في العبادة بهرميس من بين كبار آلهة أولمبيوس، ثم هيامها بأدونيس الفينيقي الأصل، إله الخصب والنماء، الذي تعذبت بحبه مثلما عذبت بحبها الآلهة والناس.

وقد عرفت أفروديتي الحب وهي لا تزال في البحر صبية، أي قبل قدومها إلى جبل أولمبيوس. ومن بين قصص الغرام التي نسجت حولها، قصتها مع نيريتيس، ابن نيريوس الوحيد، إله البحر القديم. وكان نيريتيس مخلوقا صغيرا، رائع الجمال، يعيش في الماء الصافي، وسط الشعاب، بقاع اليم. وطالما كانت أفروديتي تقيم في البحر، فقد ظلت تستمتع بقربه، وتعيش معه كما يعيش العشاق. لكن سرعان ما حان الوقت لكي تغادر أفروديتي البحر تلبيه لنداء أبيها، وتنضم إلى جماعة الآلهة فوق جبل أولمبيوس. وعزَّ على أفروديتي الفراق فعرضت على صاحبها أن يرافقها إلى أولمبيوس. ولكن نيريتيس آثر البقاء في البحر مع والديه وشقيقاته الخمسين. وقد عرضت أفروديتي أن تمنحه جناحين ليطير بهما. ولكنه رفض ذلك، وعندئذ مسخته الربة صدفة صغيرة من أصداف البحر. واصطحبت بدلاً منه إيروس، إله الحب الصغير، الذي وهبته الجناحين.

فقد رُوي أن هذا الملك وقع في حب تمثال لأفروديتي، مصنوع من العاج تظهر الربة فيه عارية. وبلغ من افتتانه بالتمثال أنه أراد أن يتخذه زوجة له، فحمله إلى فراشه. وفي رواية أخرى أن بيجماليون هو الذي صنع من العاج تمثال امرأة بارعة الجمال، وهام به حبا. واستبد به اليأس وبرح به الهوى فابتهل إلى أفروديتي أن ترحم عذابه. وعندئذ دبت الحياة في تمثال المرأة، فتزوجها بيجماليون، وأنجب منها بافوس الذي أسس ابنه مدينة بافوس، حيث يوجد معبد أفروديتي.

وأما قصة عشقها لأدونيس التي راجت أيضاً في أقطار الشرق كسوريا وقبرص وآسيا الصغرى، فتقترن بشجرة المر، وهو لبان طيب الرائحة، عطر الأريج. وكانت ميرها أو اسميرنا وهي أزمير – ابنة أحد ملكين، إما ثياس ملك لبنان او كينيراس ملك قبرص، الذي أسس مدينة بافوس. وقد أولعت ميرها بأبيها ولعا شديد وشغفت به حبا. ولقد قيل إن منشأ هذه العاطفة الأثيمة في قلبها إنما يرجع إلى غضب إله الشمس أو غضب أفروديتي عليها، لأن ميرها زعمت أن شعرها أجمل من شعر الربة. واستطاعت ميرها أن تخدع أباها، أو استطاعت أن تسكره، وجامعته موهمة أياه أنها إحدى محظياته. وبعد أيام اكتشف أبوها على ضوء سراج خافت مَنْ تكون رفيقته. وجن جنونه فاستل سيفه يريد أن يطيح برأسها، ففرت منه مذعورة.

وقد أثمر هذا الحب المحرم ثمرته. وغمر الأسى قلب ميرها واجتاحها شعور بالمذلة والخزي. وابتهلت إلى الآلهة أن يواروها عن الأنظار، فلا يدعونها بين الأحياء ولا بين الموتى. وأشفق عليها رب من الأرباب لعله زيوس، أو لعلها أفروديتي، فقد عرفت بالربة الشفوق، التي مسختها شجرة لا تبكي دما بل تنز لبانا كالعطر رائحته كالبخور، وهو أدونيس. ذلك أن أدونيس عشيق أفروديتي قد ولد من لحاء شجر المر. وكان أدونيس جميلا فاتنا، بلغ من جماله وفتنته أن أفروديتي أخفته بعد مولده في صندوق وعهدت به إلى برسيفوني، ففتحت الصندوق ورأت الغلام الجميل فتملكتها الرغبة في ألا ترده إلى صاحبته. وثار بين الربتين نزاع أحيل على زيوس للفصل فيه. وقضى زيوس بأن يترك أدونيس وشأنه ثلثا من السنة. وأن يبقى مع برسيفوني الثلث الثاني، وتحتفظ به أفروديتي بقية السنة، وأما عن مصرع ادونيس، وانتقاله إلى برسيفوني في عالم الموتى أربعة أشهر من كل عام، فإن القصة الرائجة تقول إن خنزيرا بريا هو الذي جرحه جرحا مميتا بينما كان يلهو بالصيد.

وقد سال دم أدونيس وروى الأرض فأنبتت مكانه الأنيمون، وهو زهر

فاقع الحمرة، وفاض نهر أدونيس في لبنان بالدماء القانية. ومن المعتقد أن أرتميس، ربة الصيد، أو أريس هو الذي أطلق الخنزير البري على الفتى الفاتن ليفتك به. وقد حزنت عليه أفروديتي حزنا شديدا، واكتوى قلبها بالشوق إليه، وبكته بكاء مُرًّا قبل أن تحظى بقربه أو تستمتع بهواه. وفي الحق أن الأعياد التي كان الناس يتذاكرون فيها حبها المكلوم، إنما أنشئت لتخليد ذكرى اليوم الذي فارقها فيه حبيبها الجميل. فلقد صرعه الخنزير فانطرح أرضا ينزف الدم من جسمه بغزارة، بينما وقفت أفروديتي بجانبه مشدوهة ملتاعة تجهش بالبكاء. ولقد حاولت عبثا أن تستبقيه. وفي اليوم التالي حلّق ادونيس في الفضاء. وقد درجت النساء على تقديم القرابين له في صورة باقات ورد يانعة. وفي الشرق كان هناك بين النساء من منحن أجسادهن للغرباء في رحاب المعابد. وأما اللواتي لم يسترخصن أجسادهن فكن على الأقل يهبن شعرهن قربانا لأدونيس الإله.

هذه القصص التي قصصناها عن ربة الحب الكبرى كان مسرحها سوريا أو قبرص. وأما القصة التالية فقد جرت في منطقة طروادة، على مقربة من الدردنيل، بإقليم آسيا الصغرى. لقد كانت هناك ثلاث إلاهات ليس لربة الجمال سلطان عليهن: أثينه وأرتميس وهستيا، وهن العذارى الثلاث اللائي لم يتزوجن أبدا. وأما سائر الآلهة والآلهات الأخريات فقد أذعنوا لسلطانها ورضخوا لإغرائها. ولم يسلم زيوس نفسه من كيدها، إذ أشعلت نار الحب في قلبه، فضعف امام نساء من البشر وعزف عن زوجته الشرعية هيرا، ابنة كرونوس ورهيا. ولهذا كاد لها زيوس فحملها على أن تقع بدورها في حب الراعي أنخيسيس الذي كان يهش على غنمه فوق سفوح جبل إيدا على مقربة من طروادة. وقد حبت الآلهة هذا الراعي بجمال لا يقل عن جمالهن. وأبصرته أفروديتي فسباها حسنه وفتنتها وسامته فمرق حبه في قلبها مروق السهم. وأسرعت الربة خطاها عائدة إلى قبرص ودلفت إلى معبدها في بافوس، وأوصدت أبوابه وتبعتها ربات الرشاقة والبهاء

وغسلنها بالماء الزلال ومسحن جسمها البض بالزيت الخالد الذي يعلق شذاه بالآلهة، ثم ألبسنها حلة زاهية وزينها بحلى من الذهب. وفي الحق أن أفروديتي قد عرفت بالربة الذهبية. ولم تلبث أن عادت أدراجها إلى طروادة، واتجهت إلى جبل إيدا، متلهفة على لقاء الحبيب.

وشقت أفروديتي طريقها إلى حظائر الغنم عبر الجبال، وتبعتها ذئاب رمادية اللون، وأسود ودببة وفهود لا يرويها الا الولغ في دم الغزلان. وابتهجت الربة لمرأى هذه الوحوش، وسكبت في قلوبها رحيق الحب، فانتشت وهزت ذيولها طربا، ثم استلقت تحت ظلال الغاب أزواجا أزواجا، كل ذكر يلاطف أنثاه. ودخلت أفروديتي خيمة أنخيسيس ووجدت الراعي وحده يروح ويغدو عازفا بمزماره. ووقفت الربة أمامه وقد تمثلت في صورة فتاة بارعة الحسن ممشوقة القد تذوب رقة ودلالا. ورآها أنخيسيس، فطاش صوابه وسال لعابه، وقد فتنه قوامها الفارع ورداؤها الفاخر. فقد كان هذا الرداء في حمرة اللهب الذي يخطف البصر. وتلألأ نهداها فبدوا ناصعين كأنهما غسلا بضياء القمر. وحياها أنخيسيس ورحب بمقدمها، وصدق حدسه في أنها ربة فخاطبها في رهبة ونذر لها معبدا وقرابين، وسألها أن تباركه وذريته. ولكن أفروديتي كذبت عليه زاعمة أنها أميرة فريجية، تتكلم لغة الطرواديين. وادعت أن الإله هرميس قد حملها من بين رفيقات أرتميس وحورياتها اللائي كانت ترقص معهن إلى جبل إيدا مجتازا بها فضاء فريجيا، وأن رسول الآلهة أحضرها لتكون زوجة لأنخيسيس. غير أنها ناشدت الراعي أن لا يمسها حتى يراها والده وأخواته، وحتى تبعث أيضاً إلى والديها برسالة عن صداقها قبل إتمام الزفاف.

بهذه الكلمات ألهبت الربة مشاعر الراعي وأثارت رغبته. ولم يسعه إلا أن يقول: «إن كنتِ حقا فتاة من الإنس قدر لك أن تكوني زوجتي فلن يصدني عنك إله أو بشر. ولئن شاء أبوللون نفسه أن يرديني بسهمه، فما أتمنى إلا أن استمتع بحبك فورا، وأموت بعد لحظة».

وأقبل عليها وأمسك بيدها فتبعته إلى فراشه، وهي تتلفت وراءها في قلق كأنها تفكر في التراجع، ولم تلبث أن نكست عينيها إلى الأرض في إستحياء. وكان المضجع مفروشا بجلود الدببة والأسود التي صادها أنخيسيس. وهكذا شاءت إرادة الآلهة أن يضاجع بشرٌ فانٍ ربة خالدة دون أن يدرى من هي. ولما حان ميعاد إياب الرعاة الآخرين، أيقظت أفروديتي عشيقها النائم، وتبدت له في صورتها الحقيقة، وارتاع أنخيسيس عندما رأى الربة، وأشاح عنها وجهه وأخفاه، وتوسل إليها أن تنقذه، فليس في وسع إنسان أن يبقى سليما معافى بقية حياته إذا ضمه وربة فراش واحد.

ويروى أيضا أن أفروديتي تنبأت لابنها الذي أنجبته من أنخيسيس ولاحفاده بالخير العميم. ولم يكن هذا الابن سوى انيامس جد الرومان ومؤسس دولتهم. وقد ندمت الربة على أنها وهبت نفسها لبشر. غير أنها طالبت أنخيسيس ألا يبوح لأحد بأنها أم ابنه، وأن يزعم أنه ابن احدى الحوريات. وأنذرته إن هو أفشى سر علاقته بها، لينزلن به زيوس صاعقته. ويُروى أن أنخيسيس نقض وعده، وتباهى بين خلانه بصلته بأفروديتي فأصابته صاعقة زيوس بالعرج، وإن كان ثمة رواية أخرى تقول إنه عوقب بالعمى لأنه رأى الربة عارية، فأطلقت عليه نحلا وخز عينيه. وهكذا انتقمت لنفسها أفروديتي التي وصفت أحيانا بالربة الغامضة، إما لأن العشاق يحبون الظلام، أو لاقترانها بربات الغضب والانتقام. وفي الحق أنها وصفت أيضا بقاتلة الرجال، وحافرة المقابر.

على أن اسم هذه الربة الذي اشتهرت به لم يكن هو الوحيد الذي حملته. فقد حملت أفروديتي أيضاً اسم ديوني، زوجة زيوس، التي ورد في هوميروس أنها أمها. وهذا الاسم يعني «ربة السماء الصحو». وقد وصفت ديوني أيضا بأنها «ربة الماء». وقد عُبدت ديوني في بلدة دودونا – أشهر مركز لنبوءة زيوس – إلى جانب زوجها بوصفه «ربا للينابيع». فأصبحت هي الأخرى مثله «ربَّة للينابيع». ويذهب الشاعر هسيودوس إلى أن أفروديتي

كانت إحدى بنات أوقيانوس، فلا عجب إن ارتبطت ربة الجمال بالماء. ولم تظهر آياتها في البر فقط بل في البحر كذلك. فكانت إذا تحركت سار الجمال في ركابها وانتشرت حولها هالة من النور الباهر، وازدان أديم الأرض بأجمل الأزهار. فإذا ساقت عجلتها الذهبية التي يجرها البجع فوق البحر، ولت الرياح الإدبار وانقشع الغمام وتضاحكت الأمواج، ولذلك عُبدت أفروديتي بوصفها ربة البحر الذي ولدت منه، وربة للملاحة.

وكان من بين ألقابها الشائعة لقب «السماوية» وهو لقب حملته كثير من ربات الشرق، وقد ينم عن أصلها الشرقي، أو قد يفسر الرواية القائلة بأنها كانت ابنة أورانوس إله السماء القديم. وإن كان البعض يرى فيه معنى «ربة الحب السماوي» أو الأفلاطوني. ويرتبط بهذا اللقب لقب آخر بمعنى «ربة الشعب» بجميع طبقاته، وهو يمثل في الواقع أقصى ما أصابته أفروديتي من نجاح سياسي، وبخاصة في أثينا. وقد كان هناك شهر يحمل اسمها في تقاويم كثير من الدويلات اليونانية. وكان كوكبها هو الزهرة فينوس، وشجرتها الآس، وطائرها اليمامة، وأما قربانها فكان الخنزير البري الذي صرع عشيقها أدونيس وأدمى قلبها حزنا عليه، فشاطرتها حزنها كل النساء.

وكان أبدع تمثال عرفه العالم هو تمثالها الذي نحته المثال المشهور براكسيتليس في منتصف القرن الرابع ق. م. وكان الناس يأتون من كل مكان إلى مدينة كنيدوس بآسيا الصغرى للتمتع بمشاهدته. وهو يمثل الربة وهي تضع ثيابها التي تجردت منها فوق جرة الماء قبل الاستحمام. وكان هذا التمثال هو النموذج الذي صنعت على غراره كثير من تماثيل أفروديتي في العصر اليوناني المتأخر والعصر الروماني. وكان من اشهرها ما كشف في جزيرة ميلوس بالبحر الإيجي ويعرف الآن باسم «فينوس ميلوس». كذلك انجبت أفروديتي من هيرميس طفلا ربته الحوريات، وكانت قسماته تجمع بين ملامح أمه وأبيه، ويجمع اسمه بين اسميهما وهو هيرمافرديفوس. وما كاد يشب ويكبر حتى هوى الاسفار والترحال،

واكتشف خلال تجواله في الأرض بركة ماء صافية جميلة حولها الأعشاب الرطبة الناعمة، وتسكن بها حورية حسناء لا تكف عن الاستحمام في هذه البركة وتأمل مفاتن جمالها ملتفة بغلالة شفافة رقيقة، مستلقية على فراش من أوراق غضة واعشاب ليّنة. وحدث ذات يوم أن وقع بصر الحورية سالماكيس على الفتى هيرمافرودينوس، وما أسرع ما أحست لهفة إلى الاستئثار به، فخاطبته قائلة:

ما أجملك أيها الصبي الجميل بأن تعدَّ إلها. وإن كنت إلها فلعلك كيوبيد إله الحب، أما إذا كنت بشرا فلا شك أن أبويك مباركان، وأن شقيقك سعيد، وشقيقتك سعيدة أيضا، كذلك مرضعتك التي أرضعتك، وأكثر من هؤلاء جميعا سعادة حبيبتك التي ستتخذها زوجة لك، فإن كانت لك خطيبة فدعني أنعم بحبك سرا، وإن لم تكن لك خطيبة فلست أتمنى إلا أن أكون عروسك التي تشاطرك الحياة إلى الأبد.

ولم تكد الحورية تفرغ من كلامها حتى تورّد وجه الفتى الذي لم يكن قد عرف الحب بعد، وألحَّت الحورية أن تقبله ولو قبلات أخوية، وحاولت لف ذراعيها حول عنقه العاجي فزجرها وهدد بالرحيل، فسرت في جسدها رعدة وأدارت له ظهرها متظاهرة بعزمها على الابتعاد عنه بينما كانت تخطو وعيناها تنظران اليه، حتى اذا ما وارتها الأشجار ركعت على الأرض كي ترقبه.

وأطمأن الفتى حين أحس أنه وحده. واقترب من البحيرة ومد قدميه إلى الماء كاشفا عن ساقيه، وأغراه الماء فخلع ملابسه، وما إن فعل ذلك حتى ذهب جماله العاري بلب سالماكيس فعجزت عن أن تتمالك نفسها وغرقت شوقا وعشقا ورغبة في أن تضمه إلى صدرها، وكادت لا تقوى على إمساك زمام شهواتها المشبوبة، وبصفحة كفيه ضرب الغلام على خصره وقفز إلى الماء سابحا مبتعدا عنها، وكان جسمه يبرق من تحت الماء الصافي وكأنه تمثال من العاج أو زنبقة تحت لوح من الزجاج الشفاف.

وخلعت هي الأخرى ملابسها ملقية بها هنا وهناك وقفزت خلفه إلى البحيرة، وامسكت بالفتى الذي أخذ يقاومها، غير أنها نجحت في أن تقبله رغما عنه، وامتدت يدها من تحته فلمست صدره النافر وشرعت تحتضنه، وقاوم الفتى لا يريد أن يمنحها المتعة التي كانت تتوق اليها، فأحكمت قبضتها وطوقته بجسدها كله ملتصقة به صائحة:

قاوم ما شئت لكنك لن تفلت مني أيها الوغد الجميل.. ألا فَلْتمنحني الآلهة أمنيتي، فلا يأتي يوم ينفصل فيه هذا الغلام عني أو أنفصل عنه.

وأصبحا شخصا واحدا بعد أن كانا شخصَيْن.. أو جسدا واحدا.. وكما تنمو الشجرتان صنوين معا لا يفترقان، كذلك التحمت أطراف الفتى بأطراف الحورية في عناق طويل متصل فصارا شخصا واحدا وإن بقيا بطبيعة مزدوجه لا ندري أهما ذكر أم أنثى.. أو انهما شيء واحد معا. إنهما ليس هذا أو ذلك.. وإنما هما عاشقان في جسد واحد.



فينوس

أنياس وديدو

وأنجبت أيضاً أفروديتي ابنها انياس والذي ظفر بتمجيد التاريخ له، فقد خلده الشاعر فرجيل في ملحمته الخالدة الإنياذة التي صوره فيها رجلا ورعا محبا للخير، محبا للعدل والسلام، مخلصا لأبويه ووفيا لاصدقائه. وقد كان محاربا باسلا لا يشق له غبار، ظهرت بطولته في حرب طروادة وقد أسند اليه قيادة الطرواديين بعد مصرع هكتور حتى إذا سقطت طروادة خرج حاملا والده على كتفيه ممسكا بابنه الصغير ايولوس، مخلفا في أسى زوجته التي وقعت ميتة في الطريق. وظل يتنقل هو ومجموعة من مواطنيه بين البلاد، بحثا عن مأوى يقيمون به حتى بلغوا ساحل ايطاليا الغربي حيث لقي أباه حتفه في صقلية. وما لبثت الريح أن جرفت سفينتهم إلى افريقيا، فرحبت به الملكة - ديدو - ملكة قرطاجة. وهامت به وشغفت حبا، وقد اسندت اليه قيادة جيوشها وأبقته في ضيافتها عاما كاملا، وحين هجرها هرعت إلى كومة من الحطب وصعدت إلى قمتها وانتحرت فوقها.

يقول أوفيد:

«فإن طعنت نفسها بسيف انياس، فأخذ شعبها يكرمها كأنها واحدة من الالهات».

◄ **يقول فرجيل**

وفي غضب محموم ولت ديدو

عيناها في لون الدم

شفتاها ترتجفان

خداها بقع دكناء

جبهتها كاسية بشحوب الموت

اندفعت في أنحاء القصر

صعدت درجاته

تطويها طيَّ الإعصار

كي ترى ألسنة النار

في محرقة تنتظر الضيف: جسد الملكة

فريدة تمضي نحو الموت

في يدها سيف الطروادي

كان السيف هدية

لم يكن للقتل

والتفتت لحظة

تتفرس في أردية الفريجي الراحل

ثم أدارت عينيها نحو فراش العشق

كم نعمت به

وكم آنسته

وكم عاشت فيه زمان الحب

وعلى الخدين دموع تترى

ارتمت الملكة

تتمرغ فوق فراش العشق تنشد في سكرات الموت وتتمتم له:

يا أغلى ما أبقته الدنيا

إن يك ذلك قدري ومشيئة أربابي

فلتأخذيني أيتها الآلهة ولتستلّي روحي
رحمة بي من العذاب
عشت وأدَّيت نصيبي.. قدري
والآن ستهبط روحي
تتشح بثوب المجد
إلى دار الموت
أدَّيت نصيبي.. قدري
وبنيت صروحا للعظمة
حجرًا.. حجرًا
حتى ارتفعت في أرض بلادي تشمخ في آفاق المجد
وثأرت لزوجي
وعاقبت أخي
من أجل جريمته الشنعاء
يا لسعادة قلبي
وا أسفي
ما كنت لأعرف هذا الحظ العاثر لو لم ترسل تلك المدينة سفنا حربية،
ولو لم تأت من فريجيا سفن ترسو في شاطئنا
صمتت ديدو
لثمت شفتانا سطح فراش العشق
صمتت لحظات، ثم انتفضت تبكي صارخة:
«هل تقبض روحي دون أن أثأر؟ ولِمَ لا؟
ألا فليغلبني النوم
وليكن هذا نصيبي إلا.. ما أرضاني به

ألا ما أحلى الظلمة تغمرني بأطيافها
وَلْيَمْضِ ذاك الطروادي القاسي
وليطفُ فوق الموج وليمتع عينيه
بلهيب النار يغذيها هذا الموقد
وليحمل في طيات ردائه بُشْرَيَيْن: بشرى موتي وبشرى هلاكي
الملكة سقطت
بعد هدير الكلمات
هامدة.. لا حركة.. لا همسة
سقطت ودماؤها تغمر نصل السيف
وذراعاها في استرخاء فاتر
يا لجواريها وهن يتطلعن اليها مذعورات، يا رب الكون
الصرخات تدوي في أنحاء القصر
في أرجاء البلد تهز الجدران
ساد الذعر
ثم تلاه همود
الحزن كئيب
الناس يئنون
وعويل نساء وبكاؤها يموج من الأفق
يحمل إيقاع جنازة، وكأن غزاة قد دهموا قرطاجة
أو قد دهموا (مدينة صور)
أو أن النيران قد التهمت دور الناس وانتشرت تلتهم معابد آلهة الأوليمبوس
ويسترسل فرجيل في إنشاد هذه الملحمة الرائعة ملحمة الحب والعشق

والتضحية. . ومعك عزيزي القارئ نقرأ هذه الاسطورة الرائعة نثرا بعد أن تمتعنا بها شعرا.

◄ ديدو

تقدمت ديدو وسط مجموعة كبيرة من الحسناوات. . ولكنها كانت تفوقهن جمالا. . خاصة أنها تشبه تماما إلاهة الصيد، فكانت أجمل النساء كديانا. . إلاهة الصيد. وكانت تدير الرقص على ضفاف أوروطاس أو فوق هضاب سنثيوس، يتبعها ألف من حوريات الجبال. وقد ألقت على كتفها جلدا، وعلت الجميع قامة، فكان منظرها داعيا لسرور أمها لاطونة، وهي تنظر إليها بسكون. كان لديدو جمالها، ولها منظرها وهي تختال بإباء وشمم في الوسط، منهمكة في أعمال مملكتها. ثم جلست على عرشها عند باب الهيكل، ووقف من حولها من الرجال المسلحين. وقد وزعت العمل في المدينة بالتساوي، أو قسمته بينهم حسب ما تريد.

وفجأة سمع انياس صخبا، ورأى جماعة من الرجال يدخلون المكان مسرعين، وبينهم انثوس وسرجستوس وكلنثوس وغيرهم من رجال طروادة، الذين فرقتهم عنه الزوابع، فأفعمته رؤيتهم سرورا، ولكنه لم يكن بدون وجل وخشية. وعلى شدة شوقه للهروع اليهم وإمساكهم بيديه، فقد تمهل منتظرا أن يسمعهم يقصون خبر رحيلهم وأين تركوا سفنهم، وإلى أين يقصدون.

قال ألينوس، وقد أُعطي حق الكلام: «أيتها الملكة التي منحها جوبيتر الإذن في بناء مدينة جديدة في هذه الأرض، اننا نحن رجال طروادة، الذين حملتهم الرياح فوق الكثير من البحار، نضرع اليك أن تنقذي سفننا من النار، وأن تحمي شعبنا الذي يخدم الأرباب. فإننا، حقا، لم نقدم لتدمير مساكن هذه الأرض، أو لنحمل سفننا الأسلاب. والحقيقة إن الذين يلاقون من الآلام ما لقينا، لا يفكرون في أعمال كهذه. إن هنالك أرضا يدعوها الاغريق هسبريا، وتدعى من قِبَلِ أهلها ايطاليا باسم زعيمهم، وهي

أرض قديمة جبارة الأسلحة، خصبة الغلال. وإلى هنالك كان إبحارنا عندما ثارت العاصفة، فتشتَّت سفننا، ولم ينج منها إلا القليل. وهل هنالك شعب تبلغ به الهمجية أن يرد عن شاطئه رجال سفن محطمة، وأن يصوب نحوهم سلاحه، محرما عليهم النزول؟ ولكن إذا كنتِ لا تأبهين بالناس، فحاذري الأرباب الذين لا ينسون فاعلي الخير، ولا أولئك الذين يخطئون. وقد كان لنا ملك اسمه انياس، لم يكن بين الرجال من يفوقه في طاعة الأرباب وخدمة الناس، ولا مَنْ أعظم منه في الحرب، ولو كان حيا حقا لما خشينا أمرا، لأنك لم تكوني لتندمي على مد العون إلينا. ولنا إلى ذلك غيره من الصحاب مثل أستيس الصقلي، فتكرمي إذن بمنحنا مأوى لسفننا يحميها من الهواء، وبجذوع جديدة من أشجار الغابات نزودها بها، ونصنع المجاذيف نهيئها للعمل، حتى إذا ما وجدنا ملكنا وصحبنا، فقد نتمكن من الوصول إلى أرض إيطاليا. أما إذا ما أدركته الوفاة، ولم يعثر لابنه أسكانيوس على أثر، فإن هنالك سكنا مهيأ لنا في صقلية عند صديقنا أسيتس».

فأجابت ديدو، وقد أطرقت بعينيها إلى الأرض قائلة: «لا تخشوا يا رجال طروادة أمرا، وإذا خيل اليكم أن في معاملتنا لكم شيئا من الخشونة، فاصفحوا عنا لأننا لم نقم بهذه الأرض إلا حديثا، ولذا وجبت علينا الحراسة ومراقبة شواطئنا. أما أعمال رجال طروادة في فنون القتال فمن الذي يجهلها؟ ولا يذهبن بك الظن إلى أننا هنا في ليبيا فاترو القلوب، أو أن بعدنا القصي عن العالم جعلنا على جهل بهذه الأمور، سواء أرغبت في الإبحار إلى إيطاليا أم فضلت الرجوع إلى صقلية عند الملك أستيس، فاعلم أني مقدمة لك كل عون ومانحتك كل حماية. أما إذا شئت الإقامة في أرضنا هذه، فإن هذه المدينة التي أبنيها هي مدينتكم، ولن أفرق بين طروادي وصوري. ولقد وددت لو أن ملككم كان هنا! ولا ريب في أنني سارسل في البحث عنه في كل أنحاء ليبيا، فلعله تاه في إحدى الغابات أو في مدينة غريبة من هذه الأرض».

ولما سمع انياس واخات ذلك نالهما الفرح، وودا لو ظهرا من بين الضباب، وقال اخات: «ماذا ترى؟ ها هم صحبك من الناجين، وقد أنقذ من رأينا الأمواج تبتلعه بأم أعيننا، وكل الأمور تجري حسب قول أمك».

وتشقق عنهما الضباب وهما يتكلمان، وتقدم انياس رائعا بهي المنظر. وتقدم بوجهه وصدره، وهو أشبه بإله، فقد منحته أمه شعرا جميلا، وأحاطته بنور الفتوة الأرجواني من حوله، كما يحيط الصانع الماهر تحفة جميلة، أو كما يحيط الفضة أو مرمر فيروس بالذهب، ثم كلم الملكة قائلا: «ها أنا ذا انياس الطروادي الذي عنه تبحثين، ولما أكد أنجو من مياه البحر. أما أنت أيتها الملكة، فإن ما رأيناه منك من الرحمة لآلام طروادة التي لا توصف، ومن طلبك الينا مشاركتك في بلدك ووطنك، ونحن قوم مشرودون مساكين، لا نملك شيئا يجعلنا نضرع إلى الأرباب مكافأتك بما أنت أهله. وإن اسمك ومجدك لباقيان ما بقيت الأنهار تجري نحو البحار، وما بقيت الظلال تقع في تجاويف الهضاب، وسأذكرها في أي أرض ترسلين إليها مشيئة الأرباب».

ثم أعطى يده اليمنى إلى ألينوس، ويده اليسرى إلى سرغتوس مرحبا بهما والسرور يملأ قلبه.

ونظرت اليه ديدو وقد لزمت الصمت مدة لسماعها هذا، ثم تكلمت قائلة: «أي طالع سوء هذا الذي جلب لك كل هذا العذاب؟ أي قوة تلك التي دفعتك إلى هذه الشواطئ المقفرة؟ ولا أزال أذكر أياما مضت، حينما قدم صيدا شخص يدعى طفقير، وقد طلب العون من ميلوس لعله يجد له ملكا، بعد أن أُقصِي عن وطنه. وحدث أن أبا ميلوس كان قد منح قبرص حديثا في ذلك الحين. وقد عرفت قصة طروادة، منذ ذلك اليوم كما عرفت اسمك وأسماء زعماء الإغريق. وأذكر أن طفقير كان يتكلم عن رجال طروادة بالإجلال والإكبار ذاكرا أنه هو ذاته قد انحدر من الأرومة الطفقيرية القديمة. فتعال الآن إذن إلى قصري، فأنا أيضاً قد تهت مثلك طويلا حتى

وصلت إلى هذه الأرض، وتألمت طويلا، فتعلمت كيف تكون نجدة المتألمين».

وقادت انياس إلى قصرها، وأرسلت إلى رجاله الذين في السفن مقدارا كبيرا من المؤن والطعام والشراب. وفي القصر أعدت مأدبة عظيمة، فكانت هنالك الحشايا المكسوة بالتطريز الأرجواني، والآنية الفضية التي لا عداد لها، والكؤوس الذهبية التي نقشت عليها أعمال الرجال العظيمة في سالف الأيام.

وأرسل انياس أخات في هذه الأثناء بسرعة إلى السفن، لكي يحضر اسكانيوس للمأدبة. وطلب اليه أن يجلب معه بعض الهدايا التي أنقذوها من أنقاض طروادة، ومنها وشاح أثقل بتواشيح ذهبية، ونقاب طرزت حواشيه بأزهار الكنكر الصفراء، وقد حملته معها هيلين الجميلة عند هروبها من بيتها، وكانت أمها ليديا قد أهدته لها، وكذلك صولجان كانت تحمله اليون كبرى بنات فريام، وعقد من اللؤلؤ، وتاج مزدوج من الجواهر والذهب.

ولكن قلب فينوس قد اضطرب على ابنها، خشية أن يغدر به رجال صور، كما هي عادتهم، وخشية أن تذكر جينو حقدها عليه.

وبعد أن قلبت الرأي في نفسها، دعت اليها الصبي المجنح، وهو ابنها الحب، وقالت: «إنك يا ولدي كل ما أملك من قوة، فأنت الهازئ بصواعق جوبيتر، وأنت تعلم أن جينو حانقة على أخيك انياس أشد الحنق، وهي التي سببت له كل هذا المطاف في نواحي الأرض، إن ديدو قد أخذته اليوم إلى قصرها، وكلمته بجميل القول، ولكني أخاف عليه عواقب الأمور الخوف كله. فأصغ لما اقترحه عليك. لقد أرسل أخوك الآن يطلب الغلام اسكانيوس، ليأتي إلى القصر ويجلب معه الهدايا التي أنقذوها من خرائب طروادة. وسألقي عليه الآن نوما عميقا، وأخفيه في سيذرا أو ايدا ليوم

واحد، أما انت فاتخذ شكله لليلة واحدة فقط. وحينما تأخذك الملكة ديدو في المأدبة إلى حضنها أنفخ من نارك في قلبها خفية..».

وهكذا فعل إله الحب ما أمرته به أمه، فخلع عنه جناحيه، واتخذ شكل اسكانيوس. أما هذا فقد ألقت عليه فينوس نوما عميقا، وحملته إلى غابات ايدا ليوم واحد، ولفته بالأزهار العطرة الشذا. وذهب الحب عوضا عنه إلى الملكة يحمل الهدايا. وقاموا إلى المائدة عند قدومه، وكانت تتوسطها الملكة ومن فوقها مظلة، واتكأ انياس ورجال طروادة على وسادات أرجوانية، وقد أحضر لهم الخادم الماء، ووضعوا الخبز في سلال، وقدموا لهم المناديل، كما وقفت على خدمتهم خمسون جارية، يملأن ما ينقص سن طعام، ويؤججن النيران، وهنالك مائة حسناء مع مائة غلام يثقلون الموائد بالصحاف وكؤوس الشراب.

ودُعي إلى الوليمة الكثيرون من رجال صور، وقد دهشوا لهدايا انياس كما دهشوا لرؤية اسكانيوس الزائف. أما الملكة فلم ترتو من النظر اليه، ولم تكن تعلم ماذا يهيأ لها من متاعب في الزمن القريب. أما هو فقد قبل الأب الذي لم يكن أباه، وتعلق بعنقه، ثم قدم نفسه إلى الملكة ديدو، التي كانت لا تنفك تتبعه بعينيها بعد ذاك. وقد تحمله إلى حضنها أحيانا. وقد فعل هو ما أراد، فجعلها تنسى سيخوس الميت، وتضمر في قلبها حباً جديداً.

ثم طلبت الملكة إناء من الذهب رصع بكثير من الجواهر، وقد شرب منه بيلوس، وكل الملوك بعد بيلوس، وبعدما ملأنه بالنبيذ قالت: «جوبيتر! يا مَنْ تدعى بإله الضيف والمضيف، اجعل هذا اليوم يوم سرور لرجال طروادة ورجال صور، لكي يذكره أبناؤنا من بعدنا إلى الأبد. وانت يا باخوس، يا مانح السرور كن شاهداً، واشهديه يا جينو العطوف».

ولما مسَّ النبيذ شفتيها، سلمت الكأس الكبيرة إلى الأمير بيتياس، الذي جرع منها جرعة كبيرة، وأخذها غيره من الأمراء من بعده. وغنى أيوباس

المنشد على قيثارة، وقد علمه أطلس ذاته الغناء، فأنشد عن القمر ومسيره في مستقره، وعن الشمس وكيف يظلم نورها. وغنى عن الرجال ووحوش الفلاة، حيثما أتت، وعن السماكين النيرين، وعن الدب الأكبر، والدب الأصغر، وتوابع النجوم، وعن شمس الشتاء وتعجلها الغطس في الأوقيانوس، وعن ليالي الشتاء وبطئها الوئيد.

وقد تحدثت الملكة كثيرا عن قصة طروادة وعن فريام، وهكطور، وهي تسأل الاسئله الكثيرة عن أسلحة أجاممنون، وجياد ذيوميذ وعن أخيل وعظمته. ثم قالت لإنياس: «قص علينا الآن قصة سقوط طروادة، وتيهك فوق الأرض والبحار».

فأجاب انياس: «لقد طلبت إليَّ أيتها الملكة أن أجدد آلاماً لا توصف. وإذا شئت مع ذلك أن تسمعي هذه الأمور فأصغي إليَّ». ثم راح يقص عليها كل ما مر به حتى ذلك اليوم الذي توفي فيه أبوه أنخيس.

وراحت الملكة تصغي اليه في صمت وهي تنظر اليه في إعجاب وقد تأثرت كثيرا بالقصة، كما أعجبت براويها غاية الإعجاب، ولم تكد تقدر على النوم لكثرة تفكيرها به. وكلمت أختها «أنا» في اليوم التالي قائلة: «لقد أزعجتني أحلام سوء هذه الليلة، وأقلقت فؤادي وأي رجل يكون هذا الغريب الذي قدم شواطئنا! أي طلعة نبيلة طلعته!! وأي جرأة في الحرب جرأته! لا ريب عندي في أنه أحد أبناء الإلهة! أي ثراء كان ثراؤه وأي حروب هذه التي حدثنا عنها! ولو لم أكن قد صممت تصميما قاطعا على أن لا أقرن نفسي إلى نير الزواج مرة أخرى، لكان هو الرجل الذي أذعن له، وأقول لك الحقيقة يا أختاه، إنه الرجل الوحيد الذي حرك قلبي منذ قتل سيخوس بيد أخيه. ولكن لتبتلعني الأرض، بل ليضربني الخالق الجبار بصواعقه، قبل أن أنحط إلى سفالة كهذه، فإن زوج أيام شبابي حمل معه غرامي واحتفظ به في لحده».

قالت هذا، وهي تبكي بكاء مرًّا، فأجابتها أختها: «لِمَ تضيعين شبابك

في الآلام دون زوج أو ولد؟ وهل تظنين أن في اللحد من يذكر أو يهتم بهذه الأمور؟ ولم ينل أحد من الخطاب رضاك لا في صور ولا هنا، فهل تناضلين منى قلبك حبا به؟ أذكري شراسة الأقوام الذين تساكنين، واذكري أخاك في صور وسوء معاملته نحوك. ولا ريب في أن قدوم سفن طروادة إلينا لم يكن إلا بمشيئه الأرباب، وإرادة جينو على الأخص. وهذه المدينة التي بنيت، أي عظمة ستبلغ إذا ما ارتبطت بأواصر وثيقة كهذه! وأي مجد عظيم ستناله قرطجنة، إذا ما دعمتها قوة طروادة! ولا تعدي الصلاة للأرباب وتقديم الضحايا، أما الآن، وقد مضى زمن الابحار، فليكن لك العذر على استبقاء هؤلاء الغرباء قليلا».

وهكذا روحت «أنا» عن نفس أختها، وشددت عزمها. وبدأت الاثنتان بتقديم الضحايا للأرباب، ولجينو على الأخص، لأنها أكثرهم اهتماما برابطة الزواج، ودأبتا على فحص أمعاء الحيوانات الذبيحة، تبغيان بذلك معرفة ما سيقع من أحداث. وأصبحت ديدو من ذلك الحين تصاحب انياس إلى سور المدينة الذي تبنيه. وكثيرا ما كانت تبدأ حديثها، ثم تتوقف عنه، والكلمات لا تزال في منتصفها، بل أتى عليها زمن كانت تجلس فيه إلى مائدتها وتصغي إلى قصة طروادة تقص وتعاد، حتى كان النوم يأخذ الحضور جميعا، وهي لا تمل الإصغاء. وكان يخيل اليها، إذا ما بَعُدَ إنياس عن ناظريها، بأنها تراه وتستمع اليه. وقد تعلق اسكانيوس حبا بأبيه، وهي تخادع في ذلك قلبها. ولكن العمل في المدينة كان يتأخر في هذه الأثناء، فلم تعد تتصاعد الأبراج في علوها ولا يتمرس الشباب في حمل السلاح.

ولما رأت جينو ما آل اليه حال الملكة كلمت فينوس قائلة: «هل رضيت وابنك بهذا النصر الذي نلتماه معا بالتغلب على امراة وحيدة؟ إني أعلم جيدا خوفك من أن قرطجنة قد تمس هذا الذي تخصّينه بحبك بأي سوء. ولكن لِمَ يجب أن تقوم الحرب بيننا؟ لقد كان لك ما تشائين، فلنعقد العهد

ما بيننا على أن تخضع ديدو لزوج فريجياني، وتحضر رجال صور صداقا لها».

ولكن ڤينوس كانت تعلم أنها ترمي من كلامها إلى مقصد سوء، ينتهي برجال طروادة إلى عدم تملكهم على إيطاليا. مع ذلك فقد جعلت لسانها يتصنع الخطابة، فقالت: «من هو الذي لا يفضل السلم معك على الحرب؟ ولكني أشك برضاء جوبيتر عن هذا الأمر. وعلم هذا من شأنك، فأنت زوجه، وحيثما توجهين القيادة أتبعك».

وهكذا تشاورت الاثنتان ونظمتا الامور على هذا المنوال. فقد هُيِّئ موكب عظيم للصيد في اليوم التالي، إذ لم تكد تطل شمسه على الأرض حتى كان شباب المدينة مجتمعا متزودا بالشباك، ورماح الصيد وكلاب الأثر، ووقف أمراء قرطجنة ينتظرون الملكة عند باب القصر، حيث قام جوادها يلوك لجامه، وعليه سرج من الأرجوان والذهب. وما هو إلا قليل حتى أقبلت يتبعها الكثيرون، وقد اتشحت بمعطف صيداني، رقشت حواشيه بمختلف الألوان. وكانت كنانتها من الذهب، ومن الذهب كانت عقدة شعرها، ومنه مشبك معطفها. وكذلك قدم أنياس يزهو بجمال رائع، وهو أشبه ما يكون بأفلون حينما ترك ليديا، ومجرى كزانتوس قادما إلى دلوس، وقد طوق شعره بإكليل من ورق الغار، وطوق من الذهب. ولما بلغ الصيادون الهضاب، وجدوا عددا عظيماً من الماعز والأوعال. فجعلوا يطاردونها، وكان اسكانيوس أسبق الصحاب إلى الصيد، وأكثرهم هزوءا به، فقد كان يتمنى لقاء خنزير بري أو أسد يخرج اليه من بين التلال ليكون فريسه له.

ثم هبت عاصفة عظيمة، قصف فيها الرعد، وسقط البرد، فتفرق الصيادون يبحثون عن أمكنة يلوذون بها. وبقي إنياس والملكة منفردين بعيدا عن الصحاب، فلجأا إلى كهف واحد، وهنالك قطعا ما بينهما عهدا. ولم تجعل الملكة بعد ذلك من حبها سرا، بل أصبحت تدعو انياس زوجها.

وسرت الإشاعة حالا في مدن ليبيا. والإشاعة كما يقال هي أصغر بنات الأرض، وهي مخلوقة عجيبة تتحرك بسرعة عظيمة، لها أرجل وأجنحة مكسوة بالريش، وتحت كل ريشة تقوم عين ولسان وفم وأذن. تطوي الليل طائرة، مجلسها فوق قمة منزل أو برج سامق، أو أنها تنشر الرعب على المدن الجبارة. وهي تحب الزائف محبتها للصادق النقي. وقد سارت الآن تبث أنباءها في ليبيا، وتقص قصة قدوم انياس الطروادي زوج ديدو منه. وكيف يعيشان في دعة وعدم مبالاة غير آبهين لما دعيا له من أعمال.

وكان أول من قصدتهم هو الأمير يارباس الذي كان قد تقدم إلى الزواج من ديدو. وقد بلغ منه السخط مبلغا عظيما، حينما سمع النبأ، فذهب إلى هيكل جوبيتر يعرض أمام الإله ما لحقه من ضيم، وكيف أنه قدم لديدو هذه مكانا من سواحله، راغبا في الزواج منها، وكيف فضلت عليه رجلا غريبا عن فريجيا، وما هو إلا فارس آخر يرتدي من الملابس والحلى ما يليق بامرأة أكثر منه برجل.

ورأى جوبيتر أن ما يقوله كان حقًّا، فقاله لرسوله مركوري: «اذهب وخاطب انياس بهاته الكلمات: إن ملك الأرباب والناس يبلغك هذا القول: أهذا ما وعدت به أمك وهي تنقذك من رماح الأغريق مرتين؟ وهل أنت ذاك الذي سيحكم إيطاليا ورجالها المحاربين الاشداء؟ وتبسط ملكك إلى آخر المعمورة؟ وإذا نسيت كل هذا فهل تمنح ابنك قلاع روما؟ وما مقامك هنا؟ ولم لا تتجه نحو ايطاليا؟ فابرح الآن ولا تتمهل».

فأوثق مركوري خفَّيه المجنحين إلى قدميه، وأخذ صولجانه الذي يسير به أرواح الموتى، وسار توا إلى جبل الأطلس الذي يحمل السماء على رأسه، فالضباب يلازم أعلاه والثلج يغطي كتفيه، أما لحيته فقد غطاها الجليد. وهنالك وقف مركوري هنيهة ثم انقضَّ كما ينقض طير يطلب فريسته في البحر، حتى أتى انياس، حيث أقام يزين مقبض سيفه حجر من الشهب، ويلقي على كتفيه عباءة وُشِّيت بالذهب، فكلمه قائلا: «أتبني

قرطجنة وتنسى عملك؟ إن الخالق الجبار يبلغك هذا: ما هو قصدك؟ وما تمهلك هنا؟ وإذا كنت لا تأبه لنفسك ففكر بولدك، وأن الأقدار منحته إيطاليا وروما».

قال هذا ولم يعد انياس يراه، فوقف مكانه وقد صعق رعبا وريبة. وود لو يطيع الصوت ويفعل ما تريده الأرباب. ولكن كيف يبلغ الملكة قصده؟ ثم خيل اليه أن من الخير أن يدعو اليه بعض الزعماء مثل منثوس وسرجاستوس وانثوس، وطلب اليهم تجهيز السفن خفية، وأن يعملوا على جمع القوم دون إظهار السبب، في حين يرقب هو الوقت المناسب ليخاطب الملكة ويبسط لها الأمر.

ولكن ديدو لم تخدع، لأن للحب نظرة ثاقبة. وقد أبلغتها الشائعة أيضا بأنهم يعدون السفن للإبحار بها. فطارت تقطع المدينة كما يطير ليلا فوق جبل سيذادون من يصيبه مس من باخوس، حتى أتت أنياس فخاطبته قائلة: «أظننت أنك تخفي جريمتك، وأنك ستبرح المكان خلسة؟ إلا يهمك أمر تلك التي ستتركها للموت؟ أوَلا تخشى عواصف الشتاء التي يضطرب بها البحر؟ وإذا كان لا يزال هنالك للتوبة مجال، فتب وارجع عن قصدك، بحق كل ما فعلته من أجلك، وما قدمته لك. فلقد تحملت في سبيلك سخط أمراء ليبيا وغضب عشيرتي، وإذا كنت ستتركني فما معنى العيش لي؟ هل أعيش لكي يهدم أخي مدينتي، أو يحملني ياراباس أسيره؟ ولو كان لي على الأقل انياس صغير، يلعب في أحشائي لما شعرت أنني مهجورة بهذا المقدار».

ولكن انياس خشي كلمات جوبيتر، فنظر اليها بعين لا تلين، حتى تكلم أخيرا، فقال: «إنني لا أنكر أيتها الملكة ما قدمته لي من خير، ولن أنسى ديدو ما حييت، ولم أقصد إلى الهرب بالخفاء، على أنني لم أَعِدْ بسُكنى هذا المكان. ولو كان لي أن أختار، وأن أتبع رغباتي لأعدت بناء طروادة حيثما كانت قائمة. ولكن أمر الأرباب أتاني بوجوب السعي إلى إيطاليا،

ولك أنت قرطجنة، فلِمَ تحقدين علينا من أجل إيطاليا؟ أما تمهلنا بالسفر فيكف أقدر عليه وأنا أرى أنخيس أبي يأتيني، وينذرني في المنام ليلة بعد ليلة، عدا عن أن جوبيتر قد بعث إليَّ رسوله – وقد سمعته بأذنيَّ هاتين – وهو يأمرني بالرحيل».

فتقدمت ديدو نحوه، وقد تملكها غضب شديد، ونظرت اليه شزرا، وهي تقول: «لا ريب في أن أمك لم تكن ربة، ولا انحدرت من نسل دردنوس، بل أنسلتك صخور القوقاز، وأرضعتك نمرة هرقانية. ولِمَ أخادع وأرائي؟ هل يلذ لك أن ترى دموعي أذرفها؟ وهل ترثي لحبي أبذله؟ لا بل إن الأرباب نفسها لتتألب عليَّ؟ فقد اخترت لنفسي هذا الرجل، بعد أن تحطمت به سفينته، وأشرف على الهلاك، وقد أعدت سفنه وأصحابه، وأنقذتهم من الدمار. وها هو رسول جوبيتر لا ريب فيه، يحمل إليَّ من الأرباب أوامر مريعة. أما أنت فلن أحاول الاحتفاظ بك، فاذهب وابحث عن إيطاليا هذه عبر البحر، وإذا كان هنالك ثأر في السماء، فستدفع العقاب على ما قدمت يداك من سوء، فتهلك على أحد الصخور في أغوار البحر، وعبثا ستنادي ديدو عند ذاك، وسيلاحقك ظلي حيثما كنت، ويتملكني السرور هنا حيث أقيم عند سماعي لأخبار هلاكك».

وعادت أدراجها مسرعة نحو قصرها. ولكنها فقدت وعيها، فحملتها وصيفاتها إلى مخدعها وأضجعنها في فراشها.

وقد اضطرب قلب انياس أيما اضطراب، وود لو قدر على تعزية الملكة، ولكنه مع ذلك خضع للكلمة السماوية، وبرح المكان إلى سفنه. وعكف رجال طروادة على إعداد أنفسهم للسفر. وكما يحتشد النمل ويكدح في سلب كومة كبيرة من الحَبِّ يدخرها في مساكنه استعدادا للشتاء، فيؤلف خطا أسود طويلا يتحرك في الحقل، بعضه يحمل الحَبَّ الكبير، والبعض الآخر يعمل على تأنيب المتوانين، هكذا احتشد الطرواديون في مختلف السبل يجدون في عملهم مثابرين.

ولما رأت ديدو ذلك، دعت أختها «أنا» اليها، وقالت: «أترين كيف يسرعون إلى عملهم عند الشاطئ. لقد أصبحوا على استعداد تام للإبحار ينتظرون اتجاه الريح. وقد زين البحارون السفن بأكاليل من الزهر، كأنهم مبحرون، فاذهبي الآن – أنت التي كان المخادع يثق بك على الدوام، وأنت التي تعلمين أفضل السبل لإلانته – إذهبي وتوسلي اليه، فإني لم أسئ اليه، ولا أسأت إلى قومه، فليمنحني إذن هذه المنحة فقط، وهي أن ينتظر قليلا، ويختار لسفره فرصة أكثر ملاءمة من هذه. ولا أطلب اليه أن يتنازل عن مقصده. بل أن يهبني وقتا أتمالك به روعي، وأتعود فيه احتمال هذا العذاب».

فأصغت «أنا» إلى اختها، وحملت الرسالة إلى انياس، ولم تفد شيئا، لأن الأرباب أغلقت أذنيه دون سماعها. وكما تصمد شجرة السنديان أمام الريح الشمالية التي تحاول اقتلاعها – وقد تناثرت الأوراق من حولها، ولكنها ما تزال راسخة تمتد جذورها إلى أعماق الأرض، وترتفع فروعها إلى السماء – هكذا صمد إنياس، ولم تحوله عن قصده الدموع الغزيرة التي سفحتها.

وقد ملت ديدو حياتها، فقد كان الماء القراح يصبح أسود إذا ما قامت لتقديم القرابين، كما كان النبيذ يتحول إلى دماء، وكانت تسمع من المزار، الذي أقامته لزوجها في وسط القصر، صوتا يناديها كما كانت البوم تصرخ من أعالي المنزل. وكانت ترى انياس الجائر في أحلامها وكأنه يسوقها أمامه، أو يخيل اليها أنها تقطع المسافات الطويلة وحيدة لا رفيق لها ولا أنيس، وهي تبحث عن قومها في صحراء خاوية. وقد خاطبت أختها وهي تخفي ما في قلبها قائلة: «لقد اهتديت إلى وسيلة ترجعه إليَّ يا أختاه أو تحررني من قيده. فإن هنالك عند شاطئ البحر العظيم، حيث يسكن الأثيوبيون، كاهنة تحرس هيكل بنات هسفوروس، وتطعم التنانين الحافظة للتفاحات الذهبية. وهي قادرة بفعل سحرها على تفريج الهموم عن القلب،

أو إيثاق رباطه. كما أن بقدرتها إيقاف مجاري الأنهار وتغيير مساري النجوم، ودعوة أرواح الموتى. فاعمدي الآن إذن – لأن هذه أوامر الكاهنة – إلى تكديس ركام في الفناء المكشوف من الدار، وضعي عليه السيف الذي تركه معلقا في غرفتنا، والثياب التي كان يرتديها، والمتكأ الذي كان يضطجع عليه، وكل ما كان يخصه، لكي تباد جميعها معاً».

ولما هُيِّئ جميع ذلك – وقد كانت «أنا» تجهل مقصد أختها – ووضعت فوق الركام صورة أنياس، وقفت الكاهنة محلولة الشعر، ودعت الأرباب ساكني العالم السفلي، وهي ترش الركام بالمياه، قائلة: إنه جلب من بحيرة افرنوس، وتنثر الأعشاب الضارة قائلة: إنها قطعت عندما نام القمر بمنجل من البرونز. وتركت ديدو إحدى قدميها حافية، وفكت ثيابها، وألقت بالطعام إلى النار، ثم دعت وراحت تمتم بألفاظ وكلمات سحرية.

وكان انياس في هذه الأثناء يرقد عند مؤخر سفينته، فظهر له الإله مركوري في الحلم، وكان في الحالة التي رآه عليها عند قدومه إليه يحمل أوامر جوبيتر. فتكلم مركوري قائلا: «هل تقدر على النوم يا ابن فينوس؟ ألا ترى ما يحيق بك من الهلاك، إن الملكة تقصد بك شرا، وإذا أقمتَ متمهلا إلى الصباح، فسترى أن الشاطئ قد ملئ بأولئك الذين يتمنون لك الأذى. فاهرب إذن، ولا تتأخر، لأن المرأة كل يوم في شأن». فاستيقظ انياس من نومه فزعا، ونادى صحبه قائلا: «قوموا واجلسوا إلى مقاعدكم، وأرخوا الشراع، فإن الذي يطلب الينا الهرب إله». وقطع حبل المرساة بسيفه، وهو يتكلم، وأسرع الجميع يتبعونه، ويمخرون البحر معجلين.

وأشرقت شمس الصباح، حينما نظرت الملكة ديدو من برج المراقبة، فرأت السفن تسير في البحر. فدقت صدرها، وقطعت شعرها، وصاحت قائلة: «أهكذا يسخر بنا هذا الغريب؟ فلنسرع وراءه ولنأتِ بالسفن من أحواضها، ولنُهَيِّئ السيف والنار. فإن هذا الرجل هو ذاته الذي حمل أباه العجوز على كتفيه! فلِمَ لَمْ أمزقه قطعا وأذبح صحبه بالسيف، وأقدم

اسكانيوس الصغير له طعاما؟ وما يهمني لو هلكت حينذاك، إني لمائتة اليوم. فيا أيتها الشمس، يا من ترين الأرض جميعها، ويا جينو، يا حافظة المواثيق الزوجية، ويا هيكات يا ملكة الموتى، وأنتن يا ربات الانتقام اللواتي تثأرن من فاعلي الشر، أصغين إليَّ. وإذا كان أمر الأرباب بأن يبلغ تلك الأرض، فامنَحْنَهُ أن يلقى شتى أنواع العذاب من أعدائه، وأن يشتت من بلده، فيطلب العون من الغرباء، وأن يرى قومه يذبحون بالحسام دون شفقه، وحينما يستتب له الأمن بأسوأ الظروف، فليحرم من نعيم الملك طويلا، وليمت قبل يومه، فيبقى ملقى في السهل من غير دفن. وأنتم يا رجال طروادة! اكرهوا أولاده وقومه إلى الأبد، وليمح الحب والسلام بينكم وبينهم، وليقم من قبري منتقم يضطهد نسل دردنوس بالنار والسيف، لكي تبقى الحرب بيني وبينه مستعرة إلى الأبد».

ثم خاطبت برسة العجوز التي حضنت زوجها سيخوس قائلة: «أطلبي إلى أختي أن تغتسل بالماء وتحضر معها الماشية للذبح، وضعي إكليلا حول رأسك، فإن نيتي متجهة إلى إنهاء تقديم هذا القربان الذي بدأته لإحراق صورة رجل طروادة».

ولما أسرعت العجوز لتلبية ما أمرت به، ركضت الملكة ديدو، إلى الفناء، حيث أقيم الركام للحرق فصعدته، وسلَّت سيف انياس من غمده ورمت نفسها على الفراش قائلة: «إني أسلم الآن روحي، وقد أنهيت عملي، فبنيت مدينة جبارة، وانتقمت لزوجي من قاتله، ولو لم تأت سفن الطرواديين الينا، لسعدت بل لتمت لي السعادة». ثم قبَّلت الفراش، وأجهشت قائلة: «هل أموت من غير أن يثأر لي؟ ومع ذلك فلأمت، وسيشاهد رجل طروادة هذه النار من البحر الذي يمخره فيحمل معه شؤم الموت».

ورأتها الوصيفات، ويا لهول ما رأين! لقد ألقت بنفسها على السيف، واصطبغت يداها بالدماء، وتجاوب الصراخ في أنحاء القصر، وكان

صراخا مريرا، يخيل معه أن الأعداء استولوا على قرطاجنة، أو صور القديمة، وأن النيران تصاعدت فنالت مساكن الناس والأرباب. وسمعت اختها «أنا» هذا، فأسرعت في وسط الجمع تناديها باسمها وتقول: «أهذه كانت غايتك يا أختاه! ألهذا كان الحسام والركام والنيران؟ ولِمَ لَمْ تتيحي لي الموت معك؟ لا ريب في أنك قد انتحرت يا أختاه، ونحرت معك أختك وقومك وبلدك. ولكن إليَّ ايتها الوصيفات بالماء لنغسل جراحها، ولعل هنالك شيء من الرمق نقدر على الإبقاء عليه».

ثم صعدت الركام، وأخذت أختها بين ذراعيها، وجربت أن تجفف دماءها بملابسها، وقد جاهدت ديدو ثلاثا لتفتح عينيها، ولكنها عادت ثلاثا إلى إغمائها. وثلاثا إلى الوقوع في فراشها، وهي تنظر إلى النور بعينين دهشتين وتئن متبرمة بأنها لا تزال تراه.

ورأت جينو من أعالي السماء ما تعانيه ديدو من الالم الطويل، فرأفت بها وبعثت اليها برسولتها ايريس، لتخرج هذه الروح التي تكافح للانطلاق. فإن الملكة قد رأت أنها لا تموت موتا طبيعيا ولا بيد انسان ولكنها تموت قبل أوانها بوحي من جنونها. وعليه فقد هبطت إيريس بأجنحتها الندية من السماء، وقد أُحيطت بمختلف الألوان من نور الشمس، فوقفت عند رأسها، وقالت: «إنني أسلمك إلى الموت كما أمرت، وأحررك من جسدك». ثم قطعت الطوق فأسلمت الملكة ديدو الروح.

ورحلت ديدو إلى عالم الموتى

وأبحر انياس كما أمرته الآلهة

وقد ترك خلفه امرأة أحبته لدرجة أنها قتلت نفسها لأنها لا تستطيع فراقه.



سيبيل

وصل انياس إلى إيطاليا بالقرب من كومو، التي كانت موطن سيبيل، وحوَّل الرجال مقدم سفنهم نحو البحر، وأوثقوها بالمراسي، ثم قفزوا إلى الشاطئ، وأوقدوا النار، وراح بعضهم يحتطب من الغابة، والبعض الآخر يجلب الماء من الجدول، ولكن انياس ذهب إلى كهف سيبيل العظيم، حيث أجاز لها أفلون الكشف عن أمور مقبلة ومعرفة الغيب.

وكان الهيكل رائعا للناظرين، فإليه قدم ديدالوس حين هربه من مينوس ملك كريت، قدم طائرا في الهواء يتجه جنوبا على جناحين، وأقام في كومو. ثم كرس جناحيه تقدمةً للهيكل، وقد نقشت على الأحجار فوق الأبواب الداخلية قصة موت اندروغوز، واختيار رجال أتيكا السبعة ممن تصيبهم القرعة من أولادهم، ليقدموا كفدية سنوية، وتصاعدت من البحر في الناحية الأخرى أرض كريت. وكان هنالك ما يشبه دهاليز اللابيرانت وطرقها الملتوية، ولكنهم لم يروا ايكاروس، لأن أباه حينما كان يريد أن ينقش بماء الذهب قصة موته، كانت يداه تخذلانه، وقد عاود السعي مرتين، وخذلته يداه في المرتين. ولما أراد انياس أن يتابع النظر، خاطبته الكاهنة تقول: «لا تتريث في النظر إلى هذه الأمور، بل سارع إلى ذبح سبعة من ثيران القطيع، وسبعة خراف تختار حالا من بين الماشية».

ولما أتوا الكهف - وكان له مائة باب يخرج الصوت من كل منها - سمعوا سيبيل تصرخ قائلة: «لقد حان الوقت يا إلهي، أيها الآله»، وقد تغير منظرها، وهي تتكلم، وحال لون وجهها، وانحل شعرها، وخفق صدرها، ثم ضخمت حتى فاقت قامات الرجال. وصرخت تقول: «هل تهمل الصلاة، هل تهملها يا إنياس الطروادي، أمهمل أنت فإن الأبواب لا تفتح

إلا للمصلين». ولم تزد على ذلك شيئا. فطفق انياس يدعو قائلا: «يا فوبس، يا من كنت للطرواديين شفيعا على الدوام. يا من وجهت سهم فاريس ليصيب من أخيل العظيم مقتلا. لقد اتبعت أمرك، واجتزت الأرضين، وها أنا أحط رحالي على شاطئ ايطاليا، التي كانت وكأنها تفر أبدا من أمامي. فهب لنا بأن يكف النحس عن ملاحقتنا، وأنتم أيها الأرباب والربات الذين لم يضمروا لطروادة حبا! ارأفوا بنا وارحمونا. أما أنت أيتها الكاهنة فهاتي جوابك لأسمعه، ولكي أسعى مع بني قومي لتمجيدك إلى الأبد. وأسألك أن لا تكتبيه على ورق الأشجار كي لا تذروها الرياح، بل دعيني أسمعه بصوتك».

وبقيت الكاهنة تكافح الروح هنيهة، حتى تغلبت عليها وفتحت الأبواب، ثم تكلمت قائلة: «لقد نجوت من مهالك البحر، ولكن هنالك مهالك أدهى وأشد، تنتظرك على وجه الأرض. فإن رجال طروادة سيأتون مملكة لافينيوم، فلا يخيفنك هذا، ولو كانوا يتمنون لو لم يقدموها. إني أرى معارك، وأرى نهر التبر يرغي بالدماء، وهنالك كسانثوس سوميمويس جديدان، وأخيل آخر وهو أيضا ابن إلهة. وستظل جينو على كرهها لكم. وستظل لاجئا تتوسل بالعون إلى كثير من المدن. وستكون سبب كل هذه النكبات امرأة أيضا، فلا تستسلم، ولا تلن، بل سر قدما متحليا بالجرأة أبدا، كلما لاحت لك الفرصة، ولن يدور بخلدك أن أول ما سيأتيك من النجدة سيكون من مدينة إغريقية».

ولما أنهت هذه الكلمات أجابها انياس: «إن المشاق والمهالك لن تأخذني على غرة يا سيدتي، فقد فكرت في نفسي بكل هذه الأمور. ولكنني أطلب منك طلبا: فها هو باب مسكن الموتى، وكم أتمنى اجتيازه لَعَلِّي أظفر بزيارة أبي. فلقد حملته على كتفي لأنقذه من نيران طروادة، وتحمَّل معي من مشاق البر والبحر ما لا يقوى على احتماله رجل في مثل سنه. وقد طلب إليَّ أن اسألك هذه المنحة. فارحمي الوالد والولد، وإنك لقادرة

على ذلك إذا شئت، أَلَمْ يُرجع أورفوس امرأته من الموت، وهو لا يحمل إلا قيثارة؟ أَلَمْ يجتز فولكس هذه السبيل مرارا، وقد أعتق أخاه من الموت؟ فإنني أنا الآخر من نسل جوبيتر».

وعند ذلك تكلمت سيبيل قائلة: «إنه لمن السهل يا ابن انخيس أن تنحدر إلى الجحيم، فإن الباب مفتوح ليل نهار. ولكن الرجعة ومكافحة الهواء الأعلى فيهما صعب جدا. ولم يفعل ذلك إلا القليل، وهم إما من نسل الأرباب، أو من الأعزاء لدى جوبيتر. وإذا شئت مع هذا أن تحاول ذلك فأصغ إليَّ. في الغابة يختبئ فرع شجرة من الذهب مقدس لدى ملكة الجحيم. وليس لرجل أن يذهب إلى رحلته هذه، قبل أن يجتثه لكي تأخذ الملكة هدية لها. وحينما يجتث الفرع، ينبت دائما فرع مكانه، وإذا كان ذهابك يرضي الإلهة فإن الفرع سيلين ليديك. ولكن اعلم أن هنالك أحد رفاقك لا يزال مطروحا ميتا على الشاطئ. فعليك أولا أن تدفنه، ثم تقدم التضحية اللازمة ولتكن خروفا أسود، وهكذا تقدر أن تقترب من مساكن الموتى».

ترك انياس الكهف، ومعه اخات، ولشد ما تساءلا عمن يكون ذلك الميت من رفاقهما. ولما قدما الشاطئ وجدا ميزانوس، وقد طرح أرضا ويا للهول! إنه الرجل الذي ليس لبراعته في دعوة الرجال إلى القتال مثيل، إذا ما نفخ في الصور، وقد كان لهكطور رفيقا فيما سلف من الأيام، ثم صحب انياس. أما الآن فقد نفخ في بوقه عند الشاطئ، وتحدى الأرباب لمباراته. فقبض عليه غول البحر، وأغرقه في الماء فلقي حتفه. فعمد انياس ورفاقه إلى تهيئة دفنه، وراحوا يقطعون من الغاب أشجار البلوط والسنديان والكمثرى. ولما رأى انياس شدة اتساع الغاب، قال: «فلتسمح الأرباب بأن يكشف فرع الذهب في هذه الغابة الفسيحة عن نفسه». وبينما هو في هذا القول، طارت من أمام وجهه حمامتان، واستقرتا على العشب، فعرف فيهما طيري أمه، وصرخ قائلا: «هيا أرشداني إلى الفرع الذهبي،

وأنت يا أماه هبي لي عونك كما كنت تفعلين فيما مضى». فطارت الحمامتان، وما زالتا على قيد البصر منه وهو يتبعهما، ولكنهما لما بلغتا فم أفرنوس حطت كلتاهما على الشجرة، ويا لروعة ما هناك! لقد لمع الفرع الذهبي من بين الغصون وصفق للريح، فاقتطعه إنياس فرحا مسرورا، وحمله إلى مسكن سيبيل.

وقام رجال طروادة بدفن ميزانوس في هذه الأثناء، واحتفلوا بذلك احتفالا عظيما عند الشاطئ، فبنوا ركاما من الحطب، وغسلوا الجثة، وطيبوها وأسجوها في النعش، ومن فوقها الملابس التي كان يرتديها حيا. وعمد الآخرون وقد خولوا وجوههم إلى حمل المشاعل نحو الغابة، وهم يحرقون عليها البخور ويقدمون الزيوت. ولما تم الإحراق أخمدوا بقاياها بالنبيذ. وجمع كورينوس العظام في قمقم من البرونز، وطهر القوم وهو يرشهم بالماء بواسطة غصن من شجر الزيتون.

ثم أقام إنياس هضبة عظيمة وضع فوقها بوق الميت وقوسه، وتدعى هذه الهضبة ميزانوس تخليدا لاسمه إلى يومنا هذا.

ولما تم الدفن عمل حسب أوامر سيبيل، فقد كانت هنالك مغارة كبيرة تنبعث منها رائحة كريهة إلى حد لا يقدر للطير معه أن يجتازها، طائرا. والى هنالك جلبوا أربعة ثيران سود، وصبت الكاهنة النبيذ على رؤوسها، وجزت شعرا من بين قرونها، ولما أحرقوا هذا ذبحوا الثيران وهم يحملون الأوعية للدماء. وقدم انياس لملكات الخوف حملا أسود، ولملكة الجحيم عجلة عقيما، وقد ذبحها بسيفه. وأحرقوا الأحشاء بالنار وصبوا فوقها زيتا، وسمع للأرض من تحتهم صوت زاعق، ونبحت الكلاب، وكانت الآلهة على مقربة منهم. وصرخت الكاهنة قائلة: «اذهبوا يا من ليس لكم في هذا الأمر شأن. أما أنت يا انياس، فاستل حسامك من غمده، واتبعني، فأنت بحاجة الآن إلى كل قواك وشجاعتك». ثم غاصت في الكهف ومعها انياس.

لقد ذهبا معا يجوزان أرض الأشباح، فكانا أشبه برجلين يقطعان غابة لا يتخللها إلا نور مريب، يلقيه القمر وقد سطع حقا، ولكن الغيوم تغشى السماء، فأتيا أول ما أتيا أبواب الجحيم، حيث يقيم الحزن، والندم، والسقم الشاحب، والخوف، والجوع الذي يحفز الناس إلى الخطيئه، والعوز، والموت، والنصب، والنوم نسيب الموت وقريبه، والحرب القاتلة. ورأيا غرف ملكات الرعب والتنازع وشعورهن حيات تقطر دما. وفي هذه المنطقة شجرة عظيمة تسكن على أغصانها جميع أنواع الأحلام، وأشكال من جميع أنواع الاشباح الشريرة، مثل صنتورس الذي كان نصفه رجلا ونصفه حصانا، وبرياروس ذي المائة يد وغيرها من الأشباح التي حينما رآها انياس، أسرع اليها بسيفه ناويا قتلها، ولكن مرشدته حذرته بأنها ليست إلا أشباحاً.

وقدما بعد ذلك إلى نهر الجحيم، حيث يكدح الملاح شارون، وله لحية طويلة بيضاء شعثاء، وقد ثبت ناظريه بتحديق متقد، وعقد على كتفيه شال كما هي عادة الملاحين. وهو كهل عجوز ولكنه صحيح الجسم مورد الوجه. وهنالك على الشاطئ ازدحام دائم، وحشد عظيم من الزوجات والأمهات ورجال الحرب البواسل، ثم فتيات وفتيان قضوا قبل الزواج، وشبان يضطجعون على رخام الدفن أمام أعين والديهم، كل هؤلاء تكاثفوا وكأنهم أوراق الشجر تتساقط على الأرض عند بوادر صقيع الخريف، أو كأنهم طير الخطاف يجمع بعضه بعضا، ويتأهب للطيران عبر البحر إلى أرض الشمس.

وكان شارون يأخذ بعضهم إلى سفينته، ويمنع البعض الآخر مبتعدا عن الشاطئ، وقد عجب انياس لرؤيتهم فقال: «أيتها السيدة، ماذا يعني هذا الحشد عند الشاطئ؟ وماذا تطلب هذه الأرواح؟ ولِمَ يُطرد بعضهم عن النهر ويعبره الآخرون؟».

فأجابت سيبيل: «إن هذا النهر الذي ترى هو نهر ستيكس، وبه يقسم

الأرباب في السماء، ويخشون الحنث بيمينهم، وهؤلاء الذين رأيتهم يطردون عن الشاطئ هم الذين أخطأتهم مراسيم الدفن، أما الذين يعبرونه فهم الذين دفنوا كما يجب. فلا يعبر هذا النهر إلا الذين دفنت أجسادهم في قبورها، وإلا فهم يظلون هائمين مائة عام، وقد يعبرونه بعد ذلك.

وقد رثى انياس لسوء حظهم، وكانت شفقته أشد حينما رأى أورونتس وجماعته الليقانيين، الذين ابتلعهم اليم أحياء أمام عينيه، ورأى كذلك فالينوروس قائد سفينته، ولم يتعرف عليه إلا جاهدا، ولم يكد يبصره في الظلام حتى خاطبه قائلا: «أي إله أخذك منا، وأغرقك في البحر؟ لا ريب في أن افلون قد خدعني في هذا الأمر قائلا بأنك ستنجو من البحر، وتبلغ أرض إيطاليا».

فأجاب فالينوروس: «أجل يا أنياس العظيم، لقد بلغت أرض ايطاليا، وقد حملتني ريح الجنوب ثلاث ليال فوق البحر، ورأيت في اليوم الرابع أرض إيطاليا من فوق الموج، ولما سبحت إلى الشاطئ، وتشبثت بصخوره وقد ثقلت ملابسي المبتلة بالماء، أتاني القوم الوحشيون، وأخذوني فريسة وذبحوني. والآن فإن الرياح والأمواج تدفعني حيث تشاء. فأسألك بحق أبيك، وبحق يولوس أمل بيتك، أن تنقذني من هذا العذاب، وأتوسل اليك أن تذهب إلى سماء فاليا، وتهيل عليَّ التراب للدفن، أو أعطني يدك الآن وخذني معك عبر النهر».

فقالت الكاهنة: «أي جنون هذا يا فالينوروس؟ أتقطع النهر قبل تأدية ما يجب عليك من مراسيم الدفن، وهل تقدر على النظر إلى وجوه ملكات الخوف المرعبة؟ ولا تظنن أن الأقدار تتغير بالدعوات. ومع ذلك فاسمع ما أقول وهدئ من روعك. إن هؤلاء الذين أقدموا على ذبحك سيقدمون لك كفارة، بعد أن نزلت بهم الأوبئة، واشتدت عليهم وطأتها، فسيبنون لك قبرا، ويقدمون عنده الذبائح عاما فعاما. وسيسمى مكان ذبحك باسمك».

فهدأ روعه، ومضى في سبيله. ولكنهما لما قربا من النهر صاح بهما الملاح قائلا: «البثا حيث انتما، أيًّا كنتما يا من تقدمان إلى هذا النهر مسلحين، وأخبراني ماذا تطلبان. إن هذه أرض الأشباح، أرض النوم والليل، أما الأحياء فلا يعبرون في هذا الفلك. وكان يوم سوء، ذلك اليوم الذي حملت فيه هرقل وذيسوس وفيريذوس، مع أنهم كانوا أبناء الآلهة. فقد كبل هرقل الكلب الحارس للنار بسلسلة، وجره وهو يرتجف رعبا من سيده. أما ذيسوس ورفيقه، فقد قصدا إلى حمل الملكة من غرفة زوجها».

عند ذاك أجابت سيبيل: «إننا لم نأت هنا، ونحن نقصد شرا فلا تقلق. ودع الكلب الحارس لجهنم يخيف الأشباح الباهتة، ودع ملكتك تقيم في قصر زوجها، فإننا لن نقربهما بضر. ولكن انياس الطروادي نزل إلى جهنم لكي يخاطب أباه. واذا كنت لا تأبه لبر كهذا، فإنك ستتعرف على هذا الرمز».

وقدمت له الفرع الذهبي، ولما رآه ترك سخطه جانبا، وقد سر لرؤية الهدية الرائعة بعد عدة سنين. ثم قدم فلكه من الشاطئ، وطرد منه الأرواح التي كانت فيه، وأخذ اليه انياس والكاهنة. وقد تمايل الفلك مما يحمل من ثقل، وتدافعت المياه سريعة نحو الحافة. ومع هذا فقد عبرا النهر بسلام.

ثم رأيا سربيروس الكلب الحارس في كهفه، فأعطته سيبيل فطيرة منومة من العسل وبذر الخشخاش، وقد ابتعلها، وهو يفتح أفواهه الضارية الثلاثة، فانبسط في عرض كهفه، ونام في الحال.

وسمعا بعد هذا نحيب أطفال شديدا، وهي أصوات أولئك الذين قضوا قبل أن يأخذوا نصيبهم، أو ينالوا قسمتهم من الحياة. وعلى مقربة منهم أولئك الذين ماتوا بتهم مزورة، ولم تنقذهم العدالة مع ذلك، فقد كان مينوس يفصل في قضاياهم. ومن ورائهم أولئك الذين لا ذنب لهم، وقد أسلموا أنفسهم، وودوا الآن لو تحملوا المشاق، وبقوا على قيد الحياة، ولكن أنَّى لهم هذا، وهذا النهر يحتفظ بهم مع مجراه البغيض، كأنهم في

سجن. ولا تبعد عن هؤلاء كثيرا حقول الحداد، حيث تسكن أرواح الذين ماتوا حباً، مثل بروكريس الذي قتله سنالوس خطأ، ولوداميا التي قضت نحبها حزنا على زوجها. وبين هؤلاء كانت ديدو وقد شفيت حديثا من الجرح الذي قتلت نفسها به. ولما رآها انياس، وقد غشيها الظلام بين الاشباح، فكان كأنه يرى، أو يخيل اليه أنه يرى على ضوء القمر الباهت، انتحب وقال: «إيه يا ديدو! لقد كان حقا إذن ما وصل إليّ من أخبار تقول إنك قتلت نفسك بالسيف. أخبريني هل كنتُ سبب انتحارك؟ لقد كنتُ مكرها أيتها الملكة - وإني لأقسِمُ على ذلك بكل ما هو مقدس في السماء والجحيم - على ترك بلادك. ولكن الأرباب التي أتيت هذه الأرض اليوم بطلب منها، أجبرتني على ذلك قسرا. ولم أكن أعلم بأن رحيلي سيسبب لك كل هذا الأسى. ولكن تريثي قليلا، ولا تذهبي، فلن أقدر على محادثتك إلا هذه المرة فقط».

قال هذا، وبوده لو قدر على تخفيف حدة غضبها، ولكنها أرخت عينيها إلى الأرض، وكان قلبها قاسيا عليه قساوة الصخر. ثم دخلت غابة قريبة من المكان، كان فيها زوجها الأول سيتوس الذي أحبها بقدر ما كان محبوبا. وقدما بعد ذلك الأرض التي يسكنها الأبطال. وهنالك رأيا تيتوس، الذي مات أمام طيبة، وادراستوس وكثيرا من رجال طروادة، ورأيا أبناء انطنور الثلاثة، وايدوس حامل سلاح الملك فريام، الذي كان يحمل الأسلحة ويقود المركبة. وقد اجتمع كل هؤلاء من حوله، وهم يودون معرفة سبب قدومه. ولكن حينما رأى جيش الملك أجاممنون سلاحه يلتمع في الظلام، فروا كما كانوا يفرون إلى السفن في الأيام السالفة. ولقد كان بعضهم يصرخ عاليا، لو قدر على ذلك، ولكن أصواتهم كانت ضيئلة لأنها أصوات الموتى.

ورأى ذيفوب بن فريام بين هؤلاء، وقد شوه تشويها فظيعا، فقد قطعت ذراعاه، وجدع أنفه، وصلمت أذناه، حتى كادت معرفته تخفى على

إنياس. أما هو فقد ود لو خبأ جروحه خجلا، ولكن ابن انخيس خاطبه: قائلا: «من هو الذي عاملك بهذه الصورة القبيحة يا ذيفوب العظيم؟ لقد قيل لي إنك وقعت قتيلا في آخر ليلة من ليالي طروادة، فوق ركام من رجال الإغريق، قضيت عليهم قبلك. ولذا فقد أقمت لك قبراً عند الشاطئ، وهتفت باسمك ثلاثا، ولكني لم أجد جثتك لأقوم بدفنك».

فأجاب ذيفوب: «إنك لم تدع شيئا لم تفعله لأجلي، بل قدمت لي كل إكرام وتمجيد، ولكن سوء حظي، والوقاحة اللعينة التي كانت عليها المرأة الاسبارطية، هي التي سببت هلاكي. وأنت تعلم كيف قضينا تلك الليلة الأخيرة، ونحن نمرح لاهين، أما هي فقد كانت تحمل مشعلا في القلعة، بينما كانت نساء طروادة يرقصن أمام الآلهة. وبدت كأنها تقود حركاتهن، أما الحقيقة فهي أنها كانت تشير إلى الاغريق في تندوس وتدعوهم. وقد اضطجعت في غرفتي بعد أن أنهكني التعب، فدخلت، وكانت زوجة شريفة حقاً! وجمعت السلاح من المنزل، حتى سحبت سيفي الموثوق من تحت رأسي، ثم عمدت إلى إدخال مانيلا آملة أن تمحو بذلك ما اقترفته نحوه من إثم، وأدخلت أوذيس الذي كان دائما على استعداد لتقديم النصائح الشريرة. وماذا تنتظر أكثر من ذلك؟ فلتفعل بهم الأرباب ما فعلوا بي بل أدهى وأمر. ولكن قل ما الذي جاء بك إلى هنا؟».

وكان الوقت قد جاوز الظهيرة، وقد قضى هذان الاثنان جميع الوقت المحدد لهما بالحديث، فقالت سيبيل: «لقد أقبل الليل يا إنياس، وأضعنا نهارنا بالدموع فهيا بنا! وهاك سبيلين هنا أحدهما إلى اليمين وهو يقود إلى قصر فلوتو وسهول ايليز، والآخر إلى الشمال يأخذك إلى طرطوس مقر الأشرار». فأجاب ذيفوب: «لا تغضبي أيتها الكاهنة العظيمة، وسأرجع إلى مكاني، فاذهب يا صديقي، وليرافقك التوفيق».

وبينما كان انياس ينظر حواليه، رأى بناء عظيماً، وحوله سور ذو ثلاث طبقات، وحول السور نهر من النار. وهنالك بوابات عظيمة، وبرج من

النحاس جلست فيه تيزيفون إحدى ملكات الرعب حارسة. وسمع أصوات أولئك الذين يطرقون فوق السندان وقرقعة السلاسل. فوقف وقال: «ما معنى هذا الذي أسمع وأرى؟». فأجابت سيبيل: «إن أقدام الصالحين لا تجتاز عتبة هذا المكان. ولكن ملكة الجحيم أخذتني بنفسها إلى هنا، وأخبرتني بكل شيء عن المكان حينما سلمتني مركزي هذا. فهناك يجلس رادامنتوس الكريتي، ويقسط بين الموتى، فمن قضى عليهم أخذتهم تيزيفون وفتحت البوابة التي رأيت لاستقبالهم..وهنالك في الداخل حفرة عظيمة، عمقها بقدر علو السماء عن الأرض، فيها يرقد اليتانيون أبناء الأرض الذين ضربهم جوبيتر بصاعقة من عنده. وفيها أبناء ألوس الذين جاهدوا لطرد الأرباب من السماء، وسالمونوس الذي كان يود الاستهزاء بصواعق جوبيتر ممتطيا مركبته، يقطع بها مدن أيس، ويهز مشعلا مدعيا أنه إله. ولكن البرق ضربه في كبريائه. ورأيت أيضاً تيتيوس، وقد تمدد فوق تسعة أفدنة من الأرض، ووقعت عليه النسور تقتات من فؤاده. ورأيت بعضهم، ومن فوقهم صخر عظيم يكاد ينقض، والبعض الآخر جلوسا إلى وليمة لا يكادون يمدون اليها يدا حتى تمنعهم ملكة الرعب الجالسة إلى جانبهم، وترفع مشعلها وتهزه فيصم الرعد آذانهم. ثم هؤلاء الذين كرهوا إخوتهم في الحياة الدنيا، أو ضربوا آباءهم وأمهاتهم، أو خدعوا من وثق بهم، أو احتفظوا بغناهم لأنفسهم، ولم يأبهوا حتى ولأهل بيتهم (وعددهم كثير)، أو أثاروا نزاعا أهليا. ومن هؤلاء من يدحرج حجرا عظيماً، ولا يقف، ومنهم من أوثق إلى عجلات، ومنهم من جلس يصرخ أبدا: «سنعمل صالحا ونخشى الأرباب».

ولما انتهت الكاهنة من هذا الكلام، أسرعا في سبيلهما، وبعد هنيهة قالت: «هذا هو القصر الذي بناه السيكلوبيون لفلوتو وملكة الجحيم. وهنا يجب علينا أن نقدم الغصن الذهبي». وبعد أن فعلا ذلك قدما إلى مساكن الصالحين.

هنا الفسحات الخضراء تحيطها الغابات، ونور جنتهم أشرق وأعم مما وقعت عليه عين بشر، فلهم شمس غير شمسنا، ونجوم غير نجومنا، فبعضهم يلهو بالملاكمة والركض، وبعضهم يرقص رقصا موقعاً، وهم يغنون أنغاما بهيجة، وقد ارتدى أورفوس ثوبا فضفاضاً، وجلس يوقع لهم، فكان يمس قيثاره بأصابعه حينا، وبقوس من العاج حينا آخر. وهنا كان إعجاب انياس عظيما، فقد رأى جبابرة الرجال السابقين مثل ايلوس ودردانوس الذي بني طروادة. وقد غرزت رماحهم في الأرض جانبا، وتركت خيولهم ترعى في الحقل. فهم لا يزالون يحبون الرماح والمركبات والخيول، كما كانوا يحبونها على الأرض. وأقبل بعضهم يحتفلون، وقد اتخذوا من العشب مجلسا، وفاح عليهم شذى لطيف من بستان من الغار، حيث يجري النهر الذي يدعوه أهل الأرض باسم فو. هنا أقام الذين قضوا لأجل وطنهم، والكهنة المقدسون، والشعراء الذين لم يأتوا أمرا عظيمًا، أو الذين استنبطوا اختراعا بارعا، أولئك الذين قدموا للبشر خدمة عظمى. وجميع هؤلاء كللت رؤوسهم بأكاليل بيضاء كالثلج. وخاطبت سيبيل موزوس الذي وقف في وسطهم، وقد بزهم جميعا بطول قامته، وقالت: «خبِّريني أيتها الأرواح السعيدة أين نجد أنخيس؟». فأجابها موزوس: «ليس لنا أماكن للإقامة معروفة، فاصعدا هذه الهضبة، ومنها تريان جميع السهل تحتها، ولا شك في أنكما واجدان مَنْ تطلبان».

فأبصرا بأنخيس، وقد جلس إلى واد أخضر، وهو يعني بأرواح أولئك الذين سيولدون من نسله. ولما رأى انياس قادما، بسط يديه، وقال: «هل أتيت يا ولدي؟ وهل وجدت طريقك إليَّ؟ لقد ظننت أنك فاعل، ولم يخب أملي».

فأجاب انياس: «أجل لقد اجتزت طريقا طويلا لرؤيتك، كما رغبت إليَّ روحك، ولكن دعني أعانقك وأضمك بين ذراعي».

ولكنه حينما حاول عناقه كان كمن يقبض على الهواء.

ثم نظر انياس فأبصر نهرا، وعنده حشد عظيم من الأرواح، وقد تكاثفت النحل على جنة من الزنابق في يوم صيف هادئ. وحينما رغب في معرفة سبب هذا الاحتشاد، قال انخيس: «هذه أرواح أولئك الذين ما زال عليهم أن يعيشوا في الأبدان الفانية. وهم مجبرون على الشرب من ماء النسيان». فقال انياس: «لا يا أبي، وهل هنالك من يرغب في الرجوع إلى الجسم الميت؟ «فأجاب أنخيس: «أصغ إليَّ يا بني، وسأخبرك بالأمر كله: إن هنالك روحا واحدة في السماء والأرض، في النجوم وضياء القمر السيار، وفي الشمس ذاتها التي تنبت منها حياة الانسان والحيوان، والطير والهواء، وأسماك البحر. ولهذه الروح طبيعة إلهية، ولكن الجسم الفاني يجعلها بطيئة بليدة. وهنا يأتي الخوف والرغبة، ويأتي الحزن والفرح. ولهذا فإن الروح تكون في هذه الحالة وكأنها في سجن، وتعود لا ترى الضوء خارجا. وحينما تبلغ الحياة الفانية نهايتها، لا يكون الإنسان قد خلص من كل شرور الجسد، بل إن هذه لا تطرح جانبا إلا بطرق عديدة عجيبة. فبعضها يعلق في الهواء، وتغسل شرور الآخرين بالماء، ومنها ما يحرق بالنار، ولكننا جميعا نجابه عذابا مريعا، ثم يرسل من يستحق منا إلى اليسيوم، وإلى حقول المباركين. وعندما تنقَّى الروح تماما بعد عدد من الأيام، يرسل بها إلى نهر النسيان لكي تشرب منه، ثم تعود إلى العالم الأعلى».

ثم أخذ بأنياس وسيبيل إلى هضبة يرون منها الجمع كله، وتطالعهم الوجوه القادمة من حيث يجلسون، ثم قال: «تعال أريك هؤلاء الذين سيأتون من بعدك. إن هذا الفتى الذي ينحني على رمح أبتر، هو سيلفيوس ابنك الأصغر، الذي ستحمله لك لافينيا في أيام شيخوختك. وسيحكم ألبا، ويكون أبا لملوك. وهنالك ملوك عديدون سيبنون مدنا عظيمة شهيرة. ثم انظر هذا هو رومولس، الذي ستحمله إيليا لمارس، وسيبني روما التي سينبسط حكمها على الأرض ويمتد مجدها إلى السماء. وهل ترى ذاك

الذي يتوَّج رأسه تاج من الزيتون، وله لحية بيضاء؟ هذا هو الذي سيضع لروما شرائعها. وبجانبه تولوس المحارب. وهؤلاء هم التاركينيون، وهذا بروتوس الذي سيحرر البشر، أجل وسيقتل بنيه لأنهم أرادوا بوطنهم شراً. وانظر إلى دسى وتوركاتوس مع الثور العنيف، وكاميلوس الذي سيسترد أعلام روما. وهناك يقف ذاك الذي سيُخضع كورنتا. وهناك آخر سيثأر لدم طروادة من سلالة أخيل. وتقدر أن تشاهد السيبيين، وهم صواعق الحرب الذين ستخشاهم أرض افريقيا، وهذا ريخولوس منهمك بالأخاديد. وأخيرا وليس آخرا، هذا هو فابي أعظم الاسماء طرا، وهو الذي سينقذ بلادك بهوادة وحكمه. هؤلاء يا بني هم بنو بنيك، وهنالك غير هؤلاء وهم الذين سيحفرون وجوه البشر بالرخام بلمسات أرق من تلك، وسيذيبون البرونز. وسيبرهن غيرهم عن براعة أعظم أو أنهم يخططون السماء أو يخبرون عن مطالع النجوم. وإخضاع العالم هو لك يا رجل روما. وعملك أن تقيم السلام بين المغلوبين فتدع الخامل وتقهر المتكبر».

ثم تابع كلامه قائلا: «وخصَّ باهتمامك مارسيلوس أول مرافق للفاتحين، فهو الذي سينقذ الحكم في أيام الاضطربات، وسيهرب من أمامه القرطاجيون والغوليون». فقال انياس، وقد رأى بجانبه فتى يرتدي السلاح اللامع، وجماله يسر الناظرين، ولكنه كئيب يسبل عينيه إلى الأسفل: «قل لي يا أبي مَنْ يكون هذا؟ ما أشرف منظره! وما أحسن هذه الزمرة التي ترافقه! ولكن هنالك ظل من الظلمه يحيط برأسه».

فإجاب أنخيس: «لا تبحث يا بني عن معرفة ما سيحل بأبنائك من حزن عظيم بعدك. إن الأقدار لن تظهره للبشر إلا بمقدار، وإذا عاش، فإن الأرباب سيرون بأن روما قد اشتد جبروتها وعظم. واي حداد سيكون عليه! ،اي مأتم سيقام له. ويا نهر تير! إنك ستجري قرب لحده المشاد حديثا، ولن يرجى من فتى من نسل طروادة ما يرجى منه، ولكن واحسرتاه، إن صلاحه وصدقه وشجاعته لا يعلى عليها، وأنت أيها الفتى السيِّئ

الحظ، إذا اتفق وقدرت على نقض هلاكك المشؤوم فانك ستكون كمارسيلوس. أعطني قبضات من الزنابق. وسأنثر هذه الأزهار النيرة، وأقدم لظل حفيدي الإكرام التافه».

وهكذا أرى أنخيس ولده أمورا قادمة. وأضاء روحه برغبة إلى المجد، ثم أراه الحروب التي سيشتبك بها، وكيف يجب أن يكابدها، أو أن يتفادى الشرور القادمة إذا أمكنه ذلك.

وهنالك بوابتان «للنوم» إحدهما من بوق تخرج منه الاحلام الصادقة، والأخرى من عاج، وتخرج منها الكاذبة. وأخرج أنخيس ولده وسيبيل من بوابة العاج، ورجع انياس إلى السفن ووصل في إبحاره إلى الرأس الذي سمى فيما بعد كاتيا.





نيزوس واورياليوس

كانت جينو تتحين الفرص لرجال طروادة، فبعثت بإيريس رسولة الأرباب إلى طورنوس، حيث أقام في كهف أبيه فيلمنوس، وقالت له: «إن ما لم يجرؤ أحد الأرباب أن يعدك به، أحضره الزمان اليك، فقد ترك انياس صحبه وفلكه باحثا عن مدينة أفاندر، أجل، وباحثا عن التوسكانيين كذلك، فاغتنمها فرصة، وباغت بها مخيمه في غيابه».

ثم بسطت جناحيها، وصعدت السماء على سهم قوس قزح، فصرخ طورنوس: «لقد عرفتك أيتها الإلهة، وانني متبع لإشارتك». وبعد أن غسل يديه، صلى ونذر للأرباب نذره.

وتقدم الجيش للقتال، يقود ميسابوس مقدمة صفوفه، ويقود أولاد تيروز المؤخرة، وفي الوسط كان طورنوس، ورأى رجال طروادة سحابا عظيما من الغبار يغطي السهل، فصرخ كايكوس عن الأسوار قائلا: «ما هذا السحاب الذي أرى؟ إلى السلاح يا رفاقي، وتسلقوا الأسوار، فإن العدو على الأبواب». ثم أغلق رجال طروادة البوابات، وحصنوا الأسوار، فقد أوصاهم انياس بذلك قائلا: «لا تشتبكوا في معركة مهما وقع لكم، ولا تسلموا بأنفسكم إلى السهل، بل دافعوا عن أسواركم». ولذا أغلقوا بواباتهم، ومكثوا ينتظرون اقتراب العدو. وقدم طورنوس أولاً يمتطي جوادا تراقيا، يصحبه عشرون من الفتيان، وصرخ يقول: «هل منكم رجل يجرؤ على الهجوم؟» ورمى نباله يفتتح المعركة. وصرخ رجاله عاليا، وهم دهشون لالتزام رجال طروادة داخل أسوارهم، وعدم خروجهم إلى المعركة. وعكف طورنوس على الأسوار يتفصحها عله يجد لاختراقها سبيلا. وكما يعسعس الذئب حول الحظيرة، وقد أمنت الحملان إلى جانب

أماتها، تثغو ثغاء اهتاج لسماعه، وجن جنونه حقدا وجوعا وجف لسانه عطشاً للدماء، وهكذا أخذ الهياج طورنوس حول المخيم، وهو يدبر أمرًا يقدر معه على استدراج رجال طروادة إلى السهل. وفكر أخيرا بالسفن الراسية بجانب المخيم، فطلب إحضار مشاعل من الصنوبر وتبعه رجاله يتصايحون، وتصاعد الدخان إلى السماء.

ووقعت الآن معجزة، فحينما كان انياس يبني سفنه على جبل إيدا، خاطبت سيبيل أم الأرباب الإله جوبيتر قائلة: «هب يا ولدي هذه السفن التي يبنيها انياس من صنوبري - فقد أعطيته أياها منحة - هبها النجاة من الرياح والأمواج». ولكن جوبيتر أجاب: «ما هذا الذي تطلبين يا أماه، أتريدين الخلود لسفن فانية؟ لا بل سأمنحه هذا: إن أية سفينة من هاته تبلغ أرض إيطاليا سالمة، تصبح حورية من حوريات البحر». وقد حل الآن اليوم الموعود. وسمع صوت مرعب يقول: «لا تخافوا يا رجال طروادة، ولا تهتموا بالدفاع عن سفنكم». ثم قال الصوت للسفن: «اذهبي! وكوني من الآن وصاعدا من حوريات البحر». ويا للعجب! ها قد تقطعت الأسلاك في الحال، وحلت مكان السفن أشكال نسائية، فكانت مكان كل سفينة امرأة. وعجب اللاتينيون أشد العجب لهذا وقال طورنوس: «إن هذه المعجزة تعني لرجال طروادة شراً. فإن سفنهم لا تتحمل هجومنا. ولم يعد لديهم ما يقدرون معه على الهرب من أمامنا. أما القدر فلا أبالي به. فقد قدر على رجال طروادة أن يبلغوا أرض إيطاليا، وقدر على أن أهلك هذه السلالة اللعينة، فقد سرقوا مني زوجي، وألحقوا ضربهم بأناس غير مانيلا. وقد كان يكفيهم حقاً أن يهلكوا مرة، ولكن لِمَ يعاودون خطيئتهم؟ وقد كان من الخير لهم أن يعافوا الجنس النسائي بعد ذلك. أم انهم يظنون أن هذا الحاجز سيقوم بحمايتهم؟ ألم يروا الأسوار التي بناها نبتون تنهار في النار؟ والآن من منكم يأتي معي لهدم مخيمهم؟ فأنا لست بحاجة إلى أسلحة تخرج من ورش حدادة الإله فولكان، ولا إلى ألف سفينة، وليس

لهم أن يخشوا أعمال التخفي والظلمة، فإننا لن نختبئ في حصان خشبي، بل سنحرق أسوارهم في وضح النهار. وان فتيان إيطاليا هم حقا ليسوا كفتيان الإغريق الذين ألزمهم هكطور الحدود عشرة أعوام». ثم أصدر الأمر بمحاصرة المخيم، وأقام ميسافوس على مراقبة البوابة، وجعل أربعة عشر زعيما من الروتاليين مع كل منهم مائة شاب حراسا على الأسوار، وأقاموا الليل بطوله يرقصون، ويحتفلون، ويشربون، ويمرحون.

ولكن رجال طروادة أكبوا على العمل في هذه الأثناء، يدعمون بوابتهم، ويقوون أبراج أسوارهم. وكان منيثوس وسرجستوس سريعين في أوامرهما وفي حثهما للرجال على العمل، فقد أقامهما انياس لمثل هذا إذا مست الحاجة إلى ذلك في غيابه.

وكان الود العظيم يجمع بين نيزوس حارس البوابة، وهو محارب باسل، وأوريالوس أجمل فتى بين الطرواديين، فقال نيزوس لصاحبه، وهما يحرسان: «لا أدري إذا كانت هذه دعوة من الأرباب أم أنها حافز من نفسي، فإن في قلبي لرغبة شديدة هذه الليلة، ألا ترى الأعداء كيف يستسلمون لنومهم ثملين؟ ألا أقدر أن أنال بعض الشرف، وأحمل أنباء هذه الأمور إلى انياس؟ فهنالك عند الهضبة تسلك الطريق إلى مدينة أفاندر».

فإجابه أوريالوس: «كلا يا نيزوس إني لن أدعك تذهب وحدك، ولن تتركني، فإن والدي أوفلتيس لم يدربني على سفالة كهذه، ولم أحمل نفسي على مثلها في صحبتك، وحقا إنني أحسب أن الحياة تستحق أن تضحي في سبيل شرف كهذا!».

فقال نيزوس: «إنني لم أظن بك سوءا، ولعل جوبيتر يرجعني سالما وينيلني شرفا، أما إذا أصابني سوء، فإنني أود أن تحيا لاسترجاع جثتي، وإذا ما تعذر هذا فلتكريم روحي، ثم فكر بأمك التي قدمت إلى إيطاليا من دون أمهات طروادة جميعا حبا بك».

ولكن اوريالوس، قال: «إنك لتأتي بالواهي من الأعذار، فقد عزمت عزما راسخا على الذهاب معك، فلنسرع إذن». ثم أيقظا أولئك الذين سيأخذون مكانهما عند البوابة، وقصدا الزعماء يطلبان منهم الإذن بالكلام، فوجداهم يعقدون مجلسا، وقد وقفوا في وسط المخيم متكئين على رماحهم، فقال نيزوس إن لديه ما يقوله، وإن الأمر يستدعي السرعة، فدعاه يولوس إلى الكلام فأجاب: «إن العدو يستسلم إلى النوم ثملا عند الأسوار، وان نيرانه لتخبو، وإذا ما أسعفنا الحظ، فسنظفر بشق طريقنا إلى انياس، في بلدة أفاندر، ونذبح الكثيرين ونربح الأسلاب.

أما الطريق فنعرفه، وقد علمنا بمسالكه حينما كنا نصطاد في هذه الأنحاء». عندها قال العجوز ايتيس: «لا ريب في أن طروادة لن تهلك، ولديها قلوب مثل قلوبكم».

ورمى سلاحه عندهما وهو ينتحب، فقال يولوس: «أرجعا أبي الينا، فلا يكون إلا الخير، وسأعطيكما كأسين من الفضة نقشا بصور الرجال، أخذهما أبي من بلدة أريسبا، وإذا ما أخضعنا أرض ايطاليا، فإن جياد طورنوس وسلاحه ستكون من نصيبك يا نيزوس، وستنال معها اثنتي عشرة أسيرة، واثني عشر رجلا بأسلحتهم، مع مملكة الملك لاتينوس. أما أنت يا أوريالوس فإنك أقرب إلى سنا وستخلفني في كل الأمور».

فأجاب أوريالوس: «إننى أطلب اليك المزيد من أمر آخر. فإن لي أما من نسل فريام، لم أذهب لوداعها، لأنني لا أقدر على احتمال دموعها، فارعها بعنايتك إذا ما ثكلتني». فقال يولوس: «إنها ستكون لي مثل أمي».

ثم أعطاه سيفه بغمده العاجي، كما أن منيزوس أعطى نيزوس جلد أسد، وأعطاه أليتيس خوذة. وشيعوهما جميعا إلى البوابات بالادعية والنذر. أما يولوس، وهو الذي يتصف بحكمه تفوق سنه، فقد أرسل إلى أبيه رسائل كثيرة.

ثم قطعا الخندق، وأتيا الأعداء، وهم نيام، وقد مشى نيزوس إلى

الأمام ووراءه أوريالوس مراقبا، لكي لا يهاجمهما أحد من الوراء. فذبح نيزوس رانيس وهو نائم، وهو العراف الذي كان لطورنوس فيه ثقة شاملة ولكنه لم يتنبأ عن هلاك نفسه. ثم ذبح الخدم الثلاثة، وحامل الأسلحة، وسائق مركبة ريموس. ثم عكف على ريموس ذاته، فقطع رأسه، وذبح آخرين بينهم سرانوس الفتى الجميل، الذي كان المقصود في رياضة هذه الليلة، وقد كان من الخير له لو أطال هذه الرياضة إلى الفجر. وذبح أوريالوس الكثيرين كذلك، وكلهم كانوا يغطون في نومهم، ما عدا روتوس، وهو الوحيد من بينهم الذي كان يقظا، وحاول عبثا الاختباء وراء إناء كبير للمياه، ولما أوشك أن يذبح ميسابوس ورفاقه، صرخ نيزوس وقد رآه مأخوذا بحب الذبح، قائلا: «كف الآن، فقد اقترب النهار ويكفي أننا وجدنا في وسط الأعداء سبيلنا». وتركا وراءهما كثيرا من الأسلاب، ولكن اوريالوس أخذ من رانيس حزام سيفه المرصع بمسامير ذهبية - وهو حزام كيديكوس قد أعطاه لريمولوس التيبوري، وهذا أعطاه لحفيده، وربحه منه رانيس في الحرب - ووضع على رأسه خوذة ميسابوس. وهكذا رحلا عن المخيم.

ولكن حدث أن كان ثلاثمائة من الفرسان يقودهم فولستر قادمين إلى المخيم من المدينة، ولما اقتربوا لمح أحدهم خوذة أوريالوس على ضوء القمر، وقد وضعها لصغر سنه وتهوره على رأسه، فصرخ فولستر: «من أنت؟ وإلى أين تذهب؟».

ولكنهما لم يجيبا، بل أسرعا بالهرب، فأصدر عندئذ فولستر أمره بتطويق الغابة من كل ناحية، وكانت شديدة الكثافة، مما بها من أشجار الشربين الداكنة اللون والعوسج، وقد تاه أوريالوس عن الطريق حقا، فقد ثقل عليه ما يحمل من أسلاب، وتملكه الخوف. أما نيزوس فقد نجا بنفسه، ولكنه حينما أتى الاسطبلات التي تحفظ فيها أبقار الملك لاتينوس وجد نفسه وحيدا، ونظر حوله باحثا عن رفيقه، فلم يجد له أثرا، فعاد على

أعقابه يبحث عنه في أنحاء الغاب حتى سمع أصوات الفرسان تقترب ويا للهول! فإن أوريالوس كان في الوسط يطلب النجاة، ولا يقدر عليها. وقد دعا هذا ديانا أولا، علها تقدم له العون، فيقدر على تبديد هذه الجماعة، ثم رمى رمحه فورا. فاخترق ظهر سولمو نافذا من قلبه، وحينما تطلع الجميع دهشين، رمى رمحًا آخر نفذ من رأس تاغوس من الصدغ إلى الصدغ فأخذ الحنق من فولستر كل مأخذ، وهو يرى ذبحا كهذا، ولا يعلم كيف حدث، فصاح قائلا: «إنك ستجزى على أعمالك هذه على كل حال». وهجم على أوريالوس، ولكن نيزوس لم يقدر على رؤية هذا، فأسرع من مخبأه، وصرخ قائلا: «لا، إني أنا الرجل الذي أقدم على هذا الصنيع فحولوا سيوفكم إليَّ أما هذا فلم يقم ولا يقدر أن يقوم بأعمال كهذه، ولم يزد على أن كان يتبع صديقه». ولكن سيف فولستر مع ذلك لم يتأخر عن اختراق جنب أوريالوس، فانبثق الدم يسيل على جسمه الجميل، وتدلى رأسه كما تتدلى زهرة قطعها حد المحراث في الغاب، أو كزهرة من الخشخاش قطع منها ساقها. ثم هجم نيزوس إلى الوسط وهو لا يفكر إلا بوسيلة، يفتك فيها بفولستر، ولم يقدر الأعداء على وقفه، بل أرسل سيفه إلى فمه وفتك به، ثم وقع قتيلا فوق جثة صديقه، بعد أن أصيب بجروح كثيرة.

ولكن لما قدم الفرسان إلى المعسكر شاهدوا المذبحة التي حدثت هناك، ولما بزغ النهار أقاموا القتال صفا ضد رجال طروادة، ووضعوا رأسي أوريالوس ونيزوس على صاريتين وأروهم إياهما.

ولما بلغت هذه الأنباء مسامع أم أوريالوس ألقت بمغزلها جانبا، وأسرعت تخترق المعسكر، وحينما قدمت السور صرخت قائلة: «أهكذا أراك يا بني؟ لِمَ لَمْ أمنح هبة توديعك؟ ولن أغمض الآن عينيك، أو ألفّك بالأكسية التي صنعت وأنا أتسلى عن همومي بالعكوف على المنوال. فافتكوا بي برماحكم أيها اللاتينيون، أو فاضربني بصاعقة من لدنك يا

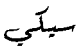
جوبيتر العظيم، ما دمت لا أقدر على الخلاص بطريقة أخرى من هذه الحياة البغيضة».

ولكنها مست بندبها قلوب الرجال، فأنستهم شجاعتهم، ولذا ذهب ألنيونوس ويولوس وأحضرا إيزوس وأكتور وأمراهما بأن يأخذا بيدها ويحملاها إلى مسكنها.

وهكذا كانت نهاية أشجع الشجعان في هذه الحرب المدمرة.







كان لأحد الملوك القدماء ثلاث بنات. الاثنتان الكبيرتان كالقمر بهاء وجمالا. أما الصغرى واسمها سيكي، فكانت حسناء خارقة الفتنة والإغراء، ذات وجه كإشراقة الصبح أو صفحة البدر، تفتح فيها الشباب كما تتفتح أزهار الربيع، وتزاحمت فيها ألوان الفتنة، فعينان دعجاوان، فيهما سحر وإغراء، لهما نظرات فاتكة ولحاظ قاتلة، وأنف تأنقت في تكوينه يد الجمال فغدا دقيقا مستقيما، وفم ياقوتي به صفان من اللؤلؤ الدقيق المنظوم، ضن على الشفاه بالقبلات وعلى المتيمين بالبسمات، وجيد لجيني بللوري شفاف. معتدلة القد، رخصة الجسم، خارقة الأنوثة، ذات شعر فاحم داكن. تجلس اليها فيأخذك سحرها، ويفتنك صوتها العذب، وتودعها فيطاردك طيفها.. هي درة لم يلتقط مثلها غواص، وصورة للعفاف والطهر. تمشي في الطريق فتجر وراءها جيشا من المعجبين والعشاق. يقصر البيان عن وصف محاسنها ويعجز اللسان من ذكر مفاتنها.. وكان القوم لا يتحدثون إلا عن روعة جمالها في غدوهم ورواحهم، حتى تحدث بفتنتها الناس، وجرى ذكر بهائها على كل لسان. فكان الناس يفدون من كل صوب وحدب ليحظوا بنظرة إلى طلعتها المشرقة التي تفننت في صوغها يد الجمال لتكون آية الجمال.. فإذا ما أسعدهم الحظ وفازوا برؤيتها ألقوا أمامها الأزهار النفيسة الغالية لتطأها بقدميها الرقيقتين الصغيرتين.

كان كل من شاهدها يقول: «لا بد أن هذه الغادة الجميلة، هي فينوس، ربة الجمال والحب، بلحمها ودمها.. إننا سنطلق عليها اسم «فينوس»، فليست فينوس بأروع سنها، ولسوف نعبدها كما لو كانت ربة».

بلغت تلك الأقوال مسامع فينوس، فاستشاطت غضبا، وثارت ثائرتها،

وأرغت وأزبدت، وأقامت الدنيا وأقعدتها.. وحق لها أن تثور وتهيج، إذ هدرت كرامتها لأن جميع الناس صاروا يعتقدون أن جمال فينوس ليس بشيء إذا قورن بجمال سيكي، ولذا صاحت فينوس وهي تتميز حقدا وغيرة وقالت: «ما هذا الهراء؟ أي وقاحه هذه؟ تعسًا لها ولمن يفتتن بجمالها! كيف تجرؤ هذه الفتاة، وهي من البشر، على أن تقارن جمالها بجمالي؟ وحق جوبيتر لأعاقبنَّها عقابا لم يذقه أحد من البشر، ولأجعلنَّها عبرة لمن تسوِّل لها نفسها أن تعتدي على كرامتي، وتغتر بجمالها فتجعل نفسها في مصاف الربات الخالدات».

قالت هذا، ثم استدعت ابنها كيوبيد، إله الحب، فلبّى نداءها، وجاءها حاملا سهام الحب الرقيقة. فلما مَثُلَ بين يديها، قالت له: «بني، هناك عذراء من البشر، يبجلها الناس حتى العبادة، لجمالها وفتنتها. اذهب إليها هذه الليلة واقتلها. كي يعلم أولئك الأغبياء الذين يقدسونها، أنها بشر فانية، فتمتلئ قلوبهم خوفا وهلعا».

أخذ كيوبيد آنية، وملأها بالسم الزعاف وانطلق يبحث عن سيكي.. وكانت تنام على سرير من الفضة في قصر أبيها وقد وضعت ذراعها حول رأسها. فدخل كيوبيد حجرتها يضمر الشر. وما إن وقف بجوار سريرها وهمَّ بإفراغ السم في حلقها حتى أشرق القمر فجأة، ودخلت أشعته اللجينية من خلال فرجة بين أستار إحدى النوافذ وسقطت على وجه سيكي فأضاءته، ثم انعكست بهية رائعة.

ذهل كيوبيد وبهت. وتراجع إلى الخلف دون أن يقدم على ما اعتزمه من فعلة شنعاء، لشدة ما اعتراه من دهشة وعجب، فلم يسبق أن رأى في حياته عذراء على هذا القدر البالغ من الجمال الخارق.. فارتبك واضطرب ميزانه، فأسقط أحد سهامه الذهبية الرقيقة فوق قدمه، فاخترقها، وفي الحال، امتلأ قلبه بحب هذه الغادة الغارقة في نومها العميق، ووله بها عشقا وهياما، حتى أنه لم يستطع مقاومة عواطفه.

مال كيوبيد على سيكي، وراح يمتع ناظريه من جمالها الساحر الخلاب. . وأقسم ألا يمسها بضر أو أذى قط. فلما لاح الفجر الزعفراني الثوب في أفق السماء، وشق بخنجره الفضي حجب الدجى، تسلل كيوبيد خارجا من حجرة سيكي، بنفس الهدوء الذي دخل به إلى خدرها.

أصبح الصباح، فاستقبلته الطيور بالغناء والتغريد، مبتهجة بروائح الوادي الشذية التي تسر النفس وتنعش الفؤاد، وانطلقت من أعشاشها تبشر بقدوم مليكة النهار قبل أن يبدو موكبها الوهاج في أفق الشرق. . واختالت السحب في جنبات السماء الصافية الأديم، سكرى من النور. وصحا كل راقد وهبَّ لاستقبال اليوم الجديد، سعيا وراء الرزق. ما خلا فينوس فإنها كانت تسعى وراء الشر. فأطلت إلى القصر سن نافذة السماء، لترى هل ماتت سيكي. وكيف تبدو على فراش الموت. ولكن، كم كانت دهشتها بالغة عندما أبصرت الفتاة تجري مرحة في حديقة القصر، تداعب حماماتها في سعادة وابتهاج. خالية الذهن تماما عما يدبر لها في الخفاء وما تحيكه ضدها هذه الربة من وراء السماء.

اشتد غضب فينوس عن ذي قبل. وعقدت العزم على النيل من هذه الفتاة المسكينة. وإذاقتها ألوان العذاب بشتى الطرق، إلى أن تجعلها تؤثر الموت على الحياة.

توالت الأيام وتعاقبت. وكل يوم يأتي إلى سيكي بما يسبب تعاستها وشقاءها وحزنها، ولم يبد أن هناك نهاية لهذه الآلام والأحداث. فاستسلمت لليأس والقنوط، وأقسمت أخيرا أن تضع حدا لحياتها بيديها. . وعولت على أن تصعد إلى قمة جبل شاهق. وتلقي بنفسها إلى بطن الوادي.

انطلقت سيكي إلى جبل عظيم الارتفاع، وأخذت تصعد اليه حتى بلغت قمته بعد مشقة وتعب، فألقت بنفسها غير هيابة ولا مترددة. . ولكن كيوبيد المدله بغرامها كان يراقبها، فأشفق على شبابها، وشق على نفسه أن تموت

هذه الغادة الفاتنة التي ملكت لبه وعقله وقلبه، وأحس بالحقد يتغلغل في فؤاده ضد أمه لتعذيبها هذه العذراء دون رحمة ولا شفقة. فما إن أبصر بمعشوقته تهوي في الفضاء، حتى نادى زيفيروس، ملك الريح الجنوبية، وأمره بأن يمسك الفتاة بين ذراعيه، ويحملها بعيدا إلى جزيرة نائية لا يعرف مكانها أي فرد.

أغمضت سيكي عينيها وهي تهبط في الهواء، حتى لا ترى ما حولها، وجعلت كل همها أن تتخلص من الحياة لتضع حدا لتلك المتاعب، ولكنها ألفت نفسها بين ذراعي الريح الجنوبية الناعمتين عبر الفضاء، تحملانها إلى جزيرة قصية. . ثم تضعانها في رفق وحذر فوق شاطئ هادئ مملوء بالأزهار والرياحين، حيث يتضوع الجو طيبا بأريجها العبق وريحها الزكي العطر. فخيل إليها أنها في حلم، وسوف تشعر بالصدمة بعد ذلك الحلم. فتحت سيكي عينيها، وراحت تتطلع حواليها في عجب واندهاش. ما هذا؟ ألم تزل في حلمها؟ وهل انتقلت إلى العالم الآخر؟

وجدت سيكي نفسها في حديقة غناء ساحرة، كأنضر ما تكون الحدائق فأينما يممت رأت الازهار تسر الناظر وتبهج الخاطر وتنعش الفؤاد. فالأشجار تتهامس بالأسرار، والأزهار تتناجى بالألفاظ، والطيور تتغنى بالأشعار وفي وسط الحديقة قصر جميل منيف عبق بشذى الورود والزهور. . فسارت متثاقلة نحو القصر، وهي لا تزال مذهولة من هول ما رأت، وما إن اقتربت من عتبته، حتى انفتحت الأبواب على مصاريعها تستقبلها بالترحيب.

كان جو القصر باردا ينعش ولا يرعش، وهواؤه معطرا يوحي بالأمان والأطمئنان. . وشعرت الغادة بأيد رقيقة خفية تطوقها وتهمس في أذنيها عبارات ناعمة، قائلة: «مرحبا بك أيتها العذراء الفاتنة. ادخلي ومتّعي ناظريك بقصرك. فكل ما هنا ملك يديك. وإذا رغبت في الطعام، وجدت كل ما تحتاجين إليه وكل ما يلذ لك وتفضلينه على سائر الأطعمة. ولئن

شئت أن تنامي، وجدت فراشا وثيرا من الريش الناعم، وموسيقى عذبة تشنف أذنيك حتى تستسلم للكرى عيناك...».

اطمأنت سيكي ودخلت القصر مسرورة جذلانة، فإذا مائدة رائعة حافلة بكل ما تشتهيه من لذيذ الطعام وحلو الشراب. ثم وجدت حجرة نوم فاخرة بها فراش بنفس الوصف الذي ذكرته الأصوات.

عندما أرخى الليل سدوله ولفَّ الكون في غلالة سوداء دكناء، دخل كيوبيد مخدع سيكي.. فلم تستطع رؤية وجهه، ولكنها أحست بوجوده.

توسل كيوبيد إليها بقوله لها: «لا تضطربي يا فتاتي الحسناء.. فما أنا إلا المتيم بهواك، الولهان بحبك. أريدك زوجة لي.. ينبغي ألا ترَيْ وجهي أو تسعَيْ إلى معرفة شخصي. فلو حاولت هذا، لضاعت سعادتنا وانقضت..».

روِّعت سيكي بادئ ذي بدء، ولكن سرعان مازالت مخاوفها، اذ كان كيوبيد رفيقا بها، عطوفا عليها، يحبها ويدللها ويستميل قلبها اليه بكل أساليب الاستعطاف، فلم يسعها إلا أن تبادله الحب والهيام، وتشاركه الشغف والغرام.. فكان يقضي معها الليل بطوله ينعمان بالمتعة الحلوة حتى يؤذن آخر الليل بقرب مجيء الفجر ليبدد حجب الظلام، فينهض كيوبيد وينصرف، وعندئذ تتملكها الكآبة والحزن، وتستسلم لدموعها الغزيرة تبلل بها فراشها، فيعود إليها كيوبيد يقول: «كفكفي دمعك الغالي يا سيكي، ولا تكتئبي يا عزيزتي، فلسوف أعود اليك في الليلة القادمة، وإنك لآمنه مطمئنة هنا في هذا القصر الجميل الذي شيدته خصيصا لك. وكل ما تريدينه أو تحتاجين اليه، ستجدينه هنا. فما من شيء ترغبين فيه إلا ووفرته لك هنا». ثم ينصرف ثانية فلا تراه حتى يخيم الظلام.

كانت سيكي تبتسم ابتسامه السعادة، وتنفرج أساريرها بعد انقباض، وتشعر بالهناء والغبطة، فتنام ملء جفنيها حتى تغمر مخدعها أشعة الشمس الذهبية، فتنيره بضوئها الساطع الفياض وتبعث الدفء في جوانبه. وعندئذ

تنهض من فراشها وتنطلق مرحة في أرجاء القصر، تتناول طعامها، وتخرج إلى الحديقة تقضي فيها نهارها تلعب بالأزهار، وتناجي الطيور وهي تملأ الجو بتغريدها العذب الشجي، وتجري بين الأشجار والزهور، تنتظر مجيء الليل بصبر نافذ، ليأتي زوجها الحبيب فيضمها إلى صدره وقد طوقها بذراعيه القويتين، ويرتشف رضاب الشفاه ويقضم تفاح الخدود ورمان النهود.

كان إله الحب يجيء إلى زوجته الرائعة الجمال كل ليلة، ويسعدها بصوته الرخيم الناعم، وهداياه العديدة الثمينة الحبيبة إلى نفس كل فتاة.. ولكن سيكي لم تكن لترى وجهه قط. كما أنها لم تعرف شيئا عن شخصيته. ولم تحاول التفكير فيمن يكون هذا الزوج العجيب. كأنها سعيدة معه أي سعادة.. ولكنها سرعان ما أدركت أن الايام بدونه طويلة غاية الطول، لأنها تتوق إلى صحبته الدائمة.

كانت سيكي سعيدة في تلك المنطقة النائية القصية. ولكنها لم تكن تعلم شيئا عن أسرتها وأخواتها، وعاودها الحنين إلى شقيقاتها، واشتاقت إلى رؤيتهن. فتوسلت إلى كيوبيد ذات ليلة، أن يسعى إلى إحضار شقيقاتها إلى قصرها لتراهن إذ تاقت إليهن، وهي وحيدة في ذلك المكان المنعزل البعيد عن العمران، وإن حديثها إليهن ليذهب عنها وحشتها، ويخفف عليها عزلتها ويرفِّه عن نفسها ويسليها، ويزيد في بهجتها وسرورها.

فقال كيوبيد: «يا لسذاجتك وطيبة قلبك، يا سيكي! إنهن لن يجلبن لك إلا المتاعب والآلام والتعاسة، ومن الخير لك أن تنسيهن إلى الأبد، وتمتعي بالسعادة هنا وحدك، فلوجئن إلى هنا، ورأين ما أنت فيه من هناءة ونعيم مقيم، لأكلتهن نار الغيرة المتأججة، ولسعين في تنغيص عيشكِ».

لم تنتصح سيكي بقول كيوبيد، ولم تكتمل سعادتها إلا عندما وعدها بأنه سوف يحضر إليها شقيقاتها.. ومن ثم، أرسل الريح الجنوبية ذات صباح لاحضارهن. فما هي الا غمضة عين حتى كانت الشقيقات في الحديقة وقد

اعترتهن الدهشة والذهول ولم يعرفن أهن في عالم الحقيقة أم في عالم الخيال، فأخذن يتجولن حول القصر بين الأشجار. وهالهن عظمة تلك الحديقة الغناء، وذلك القصر المنيف الباذخ..

كانت سيكي تتنزه في روضة قصرها ذلك الصباح، فإذا بها تبصر شقيقتيها، فجرت نحوهما وتعانقن طويلا وأمطرت كل واحدة منهن الأخرى بالقبلات الحارة. ثم صحبتهما إلى داخل القصر، فإذا بهما تريان ما لم ترياه من قبل، لا في قصر والدهما، ولا في غيره من القصور. فهذه تحف بديعة ليست من صنع البشر. وتلك نقوش جميلة لم تخطها يد إنسان.. وأعجبن كثيرا بالنفائس والجواهر النادرات. وبعد أن طفن بأرجاء القصر وجوانبه، دعت شقيقتيها إلى تناول طعام الإفطار.

ذهلت الشقيقتان عندما رأتا سيكي تصدر أوامرها دون أن يكون هناك خدم أمامها، فإذا المائدة تمد حافلة بشتى ألوان الأطعمة الفاخرة والحلويات النادرة والفواكه الناضرة والأشربة العاطرة، في صحاف من الذهب وآنية مرصعة بالجواهر.

فرحت سيكي بشقيقتيها أيما فرح، وأخذ ثلاثتهن يتجاذبن أطراف الحديث في أثناء تناول الطعام، وكل منهن تسأل مئات الأسئلة وتتلهف لمعرفة ما ليس لها به علم. فسألت الشقيقتان أختهما الصغرى عما جاء بها إلى هذا القصر العظيم المتألق الواسع، وقد اتقدت الغيرة في قلبيهما نارا متأججة.

فقد كان بيتهما حقيرا وضيعا إذا قورن بهذا القصر الباهر الرائع المؤثث في كثير من الترف والبذخ.

فأجابت سيكي قائلة: «أعطانيه زوجي الحبيب.. إنه لا يدخر وسعا في جلب الهناء إلى نفسي وتلبية سائر طلباتي وإنه ليحبني حبا جما».

زوجها! هل تزوجت؟ كيف ذلك، ومتى؟.. دارت هذه الأسئلة

بخاطريهما، وشرعت عقارب الغيرة والحسد تلسع جسديهما في كل موضع. حتى أحستا بأنهما لا تطيقان ما عليهما من ثياب، وأخذتا تتململان في مقعديهما الناعمين كأنما تجلسان على شوك شائك، فسألتاها بقولهما: «وما شكل ذلك الزوج العزيز؟».

عقدت الحيرة لسان سيكي وارتبكت، لا تدري بماذا تجيب على سؤالهما.. وحق لها أن ترتبك، فإنها لا تعرف عنه شيئا، ولم تبصره عيناها.. وأخيرا قالت لهما: «إنه رحيم ودود».

فقالت الشقيقتان الخبيثتان: «ولكن ما شكل وجهه؟ أهو شاب أم كهل؟ وسيم أم دميم؟ وأين هو؟ ولماذا لم يأت ليحيينا؟». مسكينة سيكي لم تعرف بِمَ ترد على أسئلة شقيقتيها.. ولاحظت الشقيقتان حمرة الخجل تعلو وجه سيكي، وأنها تخفض عينيها حيرة وارتباكا.. فأدركتا لتوهما أن هناك سرا غريبا تحتفظ به، ولا ترغب في إطلاعهما عليه.. وقررتا في نفسيهما الوقوف على حقيقة هذا الزوج العجيب مهما كلف الأمر. فراحتا تمطرانها أسئلة عدة عن زوجها، حتى اضطرت سيكي في آخر الأمر، أن تعترف بأنها لا تعرف شكل زوجها، وأنها لم تره في حياتها.

قالت: «عندما ينشر الظلام أجنحته على الكون، وتمتنع الرؤيا يأتي إليَّ زوجي، ولا يسمح لي برؤية وجهه.. ولكن هذا لا يهمني في كثير أو قليل، لأنه مثال الطيبة والإخلاص والتفاني في الحب، ولذا لا أرغب في معرفة شخصيته، يكفيني هذا».

زاد حسد الأختين لها، فقالت إحداهما: «لا يسمح لك برؤية وجهه، ولا يأتي إلا في الظلام؟ لا بد أن في الأمر شيئا يخافه، وإلا لما حجب نفسه عنك.. لابد أن يكون وحشا، ولذا يمنعك من رؤية وجهه.. ثقي بأنه وحش كئيب الخلقة بشع المنظر، أليس كذلك يا أختاه؟ ووجهت كلامها إلى شقيقتها الأخرى.

فأجابت هذه بقولها: «نعم، وإنك لعلى حق فيما تقولين. إن الوحوش

تتظاهر بحب الفتيات حتى يأمن لها، وعندئذ تلتهمهن في إحدى الليالي وهن مستغرقات في النوم».

فقالت سيكي: «لا، لا يمكن أن يكون كذلك. إنه رقيق لطيف، ولا يستطيع الوحش أن يتظاهر بالرقة واللطافه طيلة هذه المدة... و... و...».

ثم انخرطت في البكاء وقد بدأ الشك يتسرب إلى نفسها، والهلع يتملك فؤادها.

فقالت الأختان: «يجب أن تأخذي حذرك.. استمعي لنا، وسنخبرك بما يجب أن تفعليه. أعدي مصباحا وسكينا قبل أن تغرب شمس هذا اليوم. وعندما يأتي زوجك. ويسلم للكرى جفنيه، أشعلي المصباح وانظري إلى وجهه.. فإذ كان وحشا حقيقة، اغمدي السكين في قلبه قبل أن يلتهمك».

صمتت سيكي برهة، تفكر، وقد بدأت تساورها الشكوك، ثم قالت: «سأفعل بما تأمراني به.. والآن أرجو أن تنصرفا، فقد أتعستماني، وأفضل الاعتكاف وحدي، والاختلاء إلى نفسي».

عندئذ أسرعت الريح الجنوبية تحمل الشقيقتين إلى منزلهما تاركة سيكي المسكينة تبكي وحدها في حرارة ومرارة. وقد تبلبلت أفكارها فقالت في نفسها: «حقيقة، لا بد أن يكون وحشا! لماذا لا يريدني أن أرى وجهه، أو أعرف اسمه؟ لابد أن أعد المصباح والسكين كما أشارت عليّ شقيقتاي. لأرى بنفسي من يكون هذا الزوج».

أحضرت سيكي مصباحا.. وضعت فيه كمية من الزيت، وفتيلا، وأعدت سكينا، ثم أخفتهما وراء ستارة مجاورة لسريرها، وانتظرت مجيء زوجها وقد دبرت في نفسها أمرا، ولكنها كانت تنتفض ذعرا وترتعد فرقا وخوفا.

عندما خيم الظلام على الكون، وأخذ غراب الليل ينثر النجوم في رقعة

السماء حتى اكتمل عقدها وانتظمت في أماكنها، أقبل كيوبيد كعادته، فاستقبلته سيكي وهي تتكلف الابتسام لتخفي ما يشغل بالها ويقض مضجعها، فطوقها بذراعيه وضمها إلى صدره المتلهف المشتاق، وأخذ يوسعها عناقا وتقبيلا، ويتحسس شعرها الناعم السبط. ولكنها لم تقابل حبه بالمثل خشية أن يكون وحشا كما قالت أختاها...

أبصر كيوبيد سيكي واجمة مأخوذة، على غير عادتها، فتبدلت بهجته وجوما واستحال وجهه كآبة وتقطيبا. ولكن سرعان ما غلبه النوم، إذ كان متعبا.

ما إن أبصرته سيكي يستغرق في سبات عميق، حتى أدركت أنه استسلم للنوم، فقامت مترددة مرتجفة، وأشعلت المصباح وأمسكت السكين بيدها.. ثم حملت السراج فوق وجه كيوبيد، ومالت بوجهها تدقق النظر في وجهه، متوقعة أن ترى وحشا مخيفا، كئيب الخلقة، بشع التكوين، كأقبح ما تكون الوحوش.

ولكنها رأت ما أذهلها، وأدخل السرور إلى نفسها، وشرح صدرها.. إذ رأت فتى يافعا حلو القسمات، رائع التقاطيع، جميل الخلقة، يفوق الغيد الحسان جمالا وبهاء، ذهبي الشعر.. ويبرز من كتفيه جناحان في بياض الثلج.

أذهلت المفاجأة سيكي، فارتعدت فرائص واعضاء، واهتزت يدها بالمصباح. فسقطت قطرة من الزيت الساخن فوق كتف الرب النائم، فاستيقظ من شدة الألم.. ثم حملق في سيكي مدهوشا وسرى الحزن بين ضلوعه. ولما أبصر السكين في يدها ذهل وبهت وزادت كآبته وهمومه.

وثب كيوبيد من الفراش، والتقط قوسه وسهامه، وانطلق من الشباك يطير في الفضاء.. قائلا إبان طيرانه:

«وداعا! وداعا! فلن آتى اليك بعد اليوم».

أخذت سيكي تعض بنان الندم. وراحت تبكي تعاستها وتندب حظها وأنشأت تلعن الساعة التي التقت فيها بشقيقتيها، وتنحي على نفسها باللائمة إذ حذرها زوجها سن أختيها فلم تصغ إلى نصحه وألحّت في حضورهما. ولكن ما فائدة كل ذلك، وقد سبق السيف العذل؟

وفجأة هبت ريح قوية عاتية، زلزلت القصر من أعلاه إلى أساسه، فتصدع وتداعت حوائطه، فأسرعت سيكي تجري إلى الحديقة مرتاعة ملتاعة، حيث سقطت مغشيا عليها فاقدة الوعي، وراحت في غيبوبة.

فلما أفاقت وفتحت عينيها، كانت الشمس قد توسطت كبد السماء.. ونظرت حواليها فلم تجد للقصر أثرا، ولا للحديقة بقية، بل حل محلها برية واسعة الفلاة كثيرة الصخور والرمال.

نهضت سيكي على قدميها، وتطلعت حواليها، فلم تدر إلى أين تذهب أو ماذا تفعل.. وأخيرا شرعت تتجه نحو الغرب آملو أن تعثر على زوجها، وتطلب منه الصفح والغفران.

طفقت سيكي تسير على غير هدى. وظلت تقطع الفيافي تبكي بدمع لا ينقطع. وتسأل كل من تقابله في طريقها عن كيوبيد، عسى أن يكون قد أبصر به بعضهم. ولكن دون جدوى، فما من أحد رآه أو سمع عنه ممن رآه.. وأخيرا التقت بالربة كيريس التي ما إن تذكرت الحزن العميق الذي اجتاح فؤادها يوم أن فقدت ابنتها پروسيرپينا، حتى أحست بالإشفاق على الفتاة الباكية.

قالت الربة لسيكي: «إن كيوبيد مع أمه، الربة فينوس. إنه مريض بالحمى، إذ احترقت كتفه، وتؤلمه ألما بالغا برّح به».

سمعت سيكي هذا فهالها ما فعلت.. وراحت تبكي بحرقة أكثر من ذي قبل، لأنها كانت تعلم أنها هي التي فعلت به هذا بحماقتها وانخداعها بقول شقيقتيها الحاقدتين.

فسألتها سيكي قائلة: «وماذا عساي أن افعل أيتها الربة الجليلة الرحيمة؟ هل يمكن أن تصفح عني فينوس يوما ما؟».

فقالت كيريس: «قد تعفو عنك.. إذهبي واطلبي منها الصفح. كانت تغار منك منذ زمن، لأنك جميلة. أما الآن فهي غاضبة منك، حاقدة عليك، لأنك سلبتها فلذة كبدها، وأحدثت بكتفه جرحاً بالغاً».

انطلقت سيكي حتى بلغت مسكن الربة فينوس. فسجدت أمامها وسألتها العفو، قائلة: «اصفحي عني، أيتها الربة.. واجعليني خادمة لك. ولسوف أخدمك بإخلاص، وأكون لك عبدة أيتها الربة العظيمة».

كانت ڤينوس غاضبة أشد الغضب، فقر قرارها على أن تسخر سيكي في أشق الأمور وأصعبها، وتطلب منها القيام بأعمال تعجز عنها كل العجز.

قادت الربة سيكي إلى كومة شاهقة من القمح والشعير والفول والحمص والذرة، ثم قالت لها: «افصلي هذه الحبوب، بعضها عن بعض، جاعلة كل صنف على حدة.. وانجزي هذا العمل قبل أن تغيب الشمس.. فبمثل هذه المهام فقط يمكنك أن تحصلي على زوجك، أيتها الفتاة المغرورة الحمقاء».

مسكينة هذه السيكي! كانت تعلم يقينا أنها لن تستطيع قط أن تفصل حبوب تلك الكومة، وتنتهي منها قبل المساء.. فجلست تبكي يأسا وكمدا..

سمعت نملة بكاءها، وأحست بالعطف عليها، فأسرعت إليها لتعلم خبرها، وماذا يبكيها. فلما عرفت جلية الأمر، انطلقت تستدعي سائر النمل.. وراحت الحشرات الصغيرة العديدة تعمل طول النهار من أجل سيكي، تحمل كل صنف من الحبوب إلى مكان منفصل.. فما غربت الشمس حتى كان العمل قد أنجز.

دهشت ڤينوس لهذه المعجزة. وصاحت في سيكي غاضبة تقول: «لم

يتم هذا بفعل يديك» ثم ألقت اليها بكسرة من الخبز الجاف، وتركتها وحدها في الظلام.

وفي صباح اليوم التالي، جاءتها فينوس ثانية، وأرتها تلا مرتفعا على قمته قطيع من الأغنام المفترسة، ترعى وسط أشجار العليق.. ثم قالت لها: «إن هذه الخراف مفترسة كالأسود تماما، وإني أريد أن تحضري لي ملء قبضة اليد من صوفها.. اذهبي وأحضريها».

صعدت سيكي التل المرتفع الشديد الانحدار، بيد أنها ما كادت تقترب من الكباش، وتراها تتناطح في شراسة ووحشية، حتى ارتعدت فرائصها خوفاً وذعرا. وفي هذه اللحظة سمعت صوتا رقيقا عذبا يتحدث اليها من بين مياه جدول قريب.. قال الصوت: «لا تقتربي من الكباش، أيتها العذراء، والشمس شديدة اللظى... فعندئذ تكون في أشد وحشيتها، ولا تتردد عن افتراسك والفتك بك، وإنها لمتوحشة ضارية كما رأيت. لذلك انتظري إلى أن تسقط الظلال على جوانب التل، وعندئذ سترقد الكباش لتستريح. فيمكنك أن تصعدي إلى أشجار العليق وتلتقطي ما علق بها من الصوف الذهبي اللون، وما علق بالأشواك».

انتظرت سيكي حتى وقعت الظلال على جانب التل حيث كانت الأغنام تتقاتل وتتطاحن، ويفترس بعضها البعض الآخر في وحشية ما بعدها وحشية. ولكن ما إن سقط الظل حتى همدت الكباش في سكون واطمئنان، كأنما قد عقدت هدنة فألقت سلاحها.. فلما أبصرتها سيكي، قد خلدت إلى الهدوء والمسالمة، تسللت صاعدة إلى التل، وجمعت كمية من الصوف العسجدي اللون، ملء اليد.

تنفست سيكي الصعداء، وانفرجت أساريرها بعد العبوس عندما أمكنها أن تجمع الصوف الذي طلبته ڤينوس، ظنًا منها أن متاعبها ستنتهي عند هذا الحد. فانطلقت تجري إلى الربة تحمل ما جمعته من صوف.. غير أن فينوس قطبت جبينها وغضبت عندما ألفتها قد أنجزت مهمتها، كأنما كانت تريد أن تفترسها الكباش فتتخلص منها ومن جمالها الذي ينافس جمالها..

فقالت لها: «إنك لم تقومي بهذا العمل وحدك.. فللمرة الثانية جاءتك المساعدة والعون. وكان يجدر بك أن تؤديه دون معاونة أحد... وعليه سأكلفك غدا بمهمة لا يستطيع أي فرد أن يساعدك في أدائها».

بقيت سيكي طيلة هذه الليلة تبكي، وتحسب ألف حساب لمهمة الغد، حتى مضى الليل أكثره، ثم استسلمت لما يأتي به القدر، وأغمضت عينيها، واستغرقت في النوم حتى خرجت شمس الصباح من خدر أمها، فاستيقظت وذهبت إلى فينوس لترى ما تطلب منها.

صحبت فينوس سيكي إلى مجرى ماء أسود، يتدفق بقوة من حافة جبل ناء.. ثم أمرتها قائلة: «خذي هذه القارورة البللورية، واصعدي بها إلى حيث ينبثق الماء، واملئيها منه، وعودي إليَّ بها قبل أن تغرب الشمس».

سارت سيكي في طريقها إلى الجبل، حاملة القارورة، وهي لا ترى في هذا العمل أية خطورة ولا مشقة.. بيد أنها ما كادت ترتقي الجبل، وتصعد في جانبه حتى أبصرت ما أفزعها وروعها، وجعلها تتخاذل أمام هذا العمل الذي خالته يسيرا هيِّنا. إذ رأت أفعوانات ضخمة مفترسة تحرس الطريق إلى مجرى الماء. وتفتك بكل من يريد الوصول اليه أو الاقتراب منه.

ارتاعت سيكي ووجلت وقالت: «ويحي، أنا الشقية. جلبت البلاء على نفسي بنفسي، فها هو ذا كل مصيبة تأتيني أعظم من الأخرى». فوقعت على الأرض من شدة الهول، وحارت في أمرها لا تدري ماذا تفعل، ولا كيف تفر من تلك الأفعوانات.

كان في تلك الأثناء صقر كبير يحوم في الجو حول هذه المنطقة فأبصر سيكي المسكينة ترتمي على الأرض، فأشفق عليها وصمم على مساعدتها مهما أصابه، فهبط إلى جانبها، وخاطبها بقوله: «أيتها الفتاة الحمقاء، ماذا تفعلين هنا، عودي أدراجك قبل أن تبتلعك هذه الأفعوانات.. فليس في مقدروك أن تسرقي قطرة واحدة من النبع المقدس، فإن الحراسة عليه شديدة، والطريق اليه وعر مليء بالمخاطر».

نظرت سيكي إلى الصقر في يأس وقنوط، ولكنه كان قد عول على مساعدتها وإنقاذها من ورطتها، فأخذ القارورة البللورية من يدها، وأمسكها بمنقاره القوي، وارتفع بها في الفضاء حتى غاب عن الأنظار.. وما هي إلا فترة قصيرة حتى عاد إليها بالقارورة مملوءة بالماء البارد المثلج. ملأها من المجرى المتدفق.

ما كان أشد غبطة سيكي وفرحها عندما أمكست بالقارورة وفيها الماء المقدس، فطفقت تشكر للصقر ذلك الصنيع، وكان شكرها ما يخرج من أعماق قلبها معبرا عن صدق امتنانها.. ثم طار الصقر ثانية واختفى في الجو بعيدا.. وشرعت بعد ذلك سيكي تهبط الجبل في عناية وحذر فائقين خشية أن تزل قدمها فتنكسر القارورة وتكون الطامة الكبرى.

تناولت فينوس قارورة الماء المقدس، وأرغت وأزبدت وأخذت تكيل للفتاة المسكينة أقسى عبارات التقريع والتأنيب، وراحت تتفنن في تعذيبها وتكليفها بالمهام الشاقة الصعبة الأداء، حتى شحب وجه الفتاة ووهن جسدها تعبا وإرهاقا.

كان كيوبيد طوال هذه المدة راقدا في قصر أمه، مريضاً بالحمى.. غير أنه ذات يوم، طار من النافذة، عندما بلغه أن أمه تذيق زوجته العذاب صنوفا وألوانا. فوجد سيكي مغمى عليها في الطريق العام تتجلى في ملامح وجهها أمارات التعب والإعياء، وعلامات الكآبة والهم والتعاسة.. فامتلأ قلبه شفقة وعطفا عليها.. فقلبها في حنان ورفق، فاذا بها تفتح عينيها.

كم كانت الغبطة التي غمرت قلب سيكي الآن بالغة عندما رأت زوجها الحبيب من جديد وسمعت صوته يتودد إليها بعبارات الشوق والهيام.

أمرها كيوبيد ألا تخاف بعد ذلك، ثم أخذها معه إلى الاولمب، جبل الآلهة، حيث توسل إلى جوبيتر أن يسمح لها بتناول شراب الآلهة كي تصبح خالدة مثله.

وافق جوبيتر، وتناولت سيكي كأسا من الشراب العجيب، فغدت

خالدة.. ثم أقيمت وليمة الزواج فوق جبل أولمب. وهكذا تزوج الحبيبان أمام جميع الآلهة.

عادت سيكي ثانية إلى قصرها العجيب، وعاشت مع كيوبيد في سعادة وهناءة، وما عادت تراه بالليل فقط، إنما ليل نهار.



"فينوس" أرسلت إبنها "كيوبيد" ليقتل "سيكي" التي اشتهرت بجمالها

أثينة
الالهة الحرب

وتسمى أيضا بلاس أثينة وكانت في الأصل ربة مينوية، وبعدئذ ربة موكينية، واسمها نفسه ينتهي مثل موكيني، بنهاية غير مألوفة في اليونانية، وقد شيد أشهر معابدها على الأكروبول بأثينا مكان قصر موكيني قديم، يعرف في الإلياذة باسم بيت إرختيوس. وقد تظهر أحيانا، مثل ربات كريت، في صورة طائر، وبخاصة البومة التي اقترنت بها في العبادة خلال العصر التاريخي. ولهذا وصفت أثينة «بذات العينين المشابهتين بعيني البومة» أو البراقتين أو الخضراوين خضرة الزيتون أو ماء البحر وتشبه تماثيلها الغريبة، وهي تماثيل إناث مسلحات، الربة الموكينية المسلحة بالدرع. ومن هذا كله نستخلص أنها كانت الربة الحارسة لملوك كريت وموكيناي بالذات. ومن المرجح أن رعاياهم قد عبدوها وأخلصوا لها العبادة. وعلى أي حال فقد ظلت تحتل مكانة سامية في الأجيال التالية.

ويروي كهنة أثينة نفسها قصة غريبة عن والدها، فيقولون إن زيوس أشتهى ميتس، وهي الربة العظيمة من الجبابرة، وابنة أورانوس أي السماء، وجايا، أي الأرض، غير أنها تنكرت في صور مختلفة حتى تتهرب منه، ولكنه تمكن منها في آخر الأمر وأنجب منها طفلا. وأعلنت نبوءة «الأرض الأم» أن المولود انثى، وأنه إذا حملت ميتس مرة أخرى فستلد ذكرا يطيح بعرش أبيه، مثلما أطاح زيوس بكرونوس وأطاح كرونوس بأورانوس. واحتاط زيوس للأمر فأخذ يغوي ميتس بكلام معسول حتى استكانت له، ولكنه فغر فاه فجأة وابتلعها. هكذا كانت نهاية ميتس، وإن زعم زيوس أنها ظلت تمده بالنصيحة والرأي السديد من داخل بطنه. ولم يلبث كبير الآلهة

أن أصابه من جراء ذلك صداع شديد بينما كان يسير على شواطئ بحيرة تريتون، حتى أحس بأن رأسه على وشك الانفجار، فأخذ يعوي كالمجنون عواء هائلا رجعت السماء صداه، وهرع إليه هرميس الذي أدرك من فوره سبب ألمه وتعبه. وما زال بأخيه هفايستوس حتى أقنعه بضرورة تخليص أبيهما من عذابه. وعندئذ هوى هفايستوس بفأسه على رأس زيوس وشجها، فانبثقت منها أثينة. وقد خرجت الربة منها مدججة بالدرع تصيح صيحة الحرب التي ارتجفت لها الأرض والسماء. وارتاع منها الآلهة، وزلزل جبل أولمبيوس، وهاج البحر وماج.

وقد أصبحت أثينة بعد مولدها العجيب أحب الأبناء إلى قلب زيوس حتى أنه كان يعهد إليها أحيانا بحمل درعه المخيف وترسه الرهيب وصاعقته المهلكة. وكانت أثينة زعيمة الربات الثلاث اللائي لم يتزوجن أبدا حتى أنها لقبت بالفتاة العذراء، وعرف معبدها في أثينا بمعبد العذراء. فإذا وصفت أحيانا بالأم، فإن هذا لا يعني سوى أن الأمهات كن يتعبدن لها، مثلما كانت هيرا، مع أنها زوجة زيوس، توصف بالفتاة والزوجة والأرمل. أو لعله يعني أنها كانت في الأصل، أي في الفترة قبل التاريخية، ربة متزوجة وأُمًّا، وإن حاول الأثينيون طمس هذه الحقيقة لأنهم جعلوا من ذرية أثينة رمزا على استحالة قهر مدينتهم. وقد توحي الأسطورة التالية بوضع الربة القديم.

فقد رغب الإله هيفايستوس في الزواج من أثينة إما بدعوى أنه كان له فضل كبير في ميلادها، أو في مقابل أسلحة صنعها لها في الحرب الطروادية عندما رفض زيوس إعارتها أسلحته لوقوفه على الحياد. أدخل بوسيدون - إله البحر - في روعه أن الربة راغبة فيه، وأن أباها راض عن زواجها منه. غير أن زيوس في الواقع ترك لابنته الخيار في أن ترفضه إذا شاءت. وعندما هم بها هفايستوس تمنعت عليه فانقض عليها يريد اغتصابها. وثار بينهما نزاع شديد وصراع عنيف سقط خلاله لقاح الإله على ساقها، فنفضته عنها في اشمئزاز بقطعة من الصوف، فسقط على

الأرض: ونبتت الأرض طفلا نبذته «الأرض - الأم»، فاحتضنته أثينة وتكلفت به وأسمته إريختونيوس. ولكي تتحاشى شماتة بوسيدون فيها وتحرمه لذة التفكه بنجاح خدعته، فقد أخفت هذا الطفل في سلة أو صندوق مقدس وعهدت به إلى جلاوروس كبرى بنات ككروبس ملك أثينا الذي كان نصفه إنسانًا ونصفه الآخر ثعبانًا، وأوصتها بأن تحفظه وديعة عندها. غير أن الفضول دفع أم جلاوروس وأختيها إلى إزاحة الغطاء عن الصندوق ليشاهدن ما في داخله. وقد هالهن أن رأين طفلا له ذيل ثعبان بدلا من الساقين، فتملكهن الفزع، وولين الإدبار قاذفات بأنفسهن من أعلى الأكروبول. ولما علمت أثينة بهذه الفاجعة، حزنت حزنا شديداً حتى أن الصخرة الهائلة التي كانت تحملها آنئذ لتدعم بها حصن الاكروبول أفلتت من يديها فانحرفت بعيدا حيث أصبحت جبل ليكابتوس المتاخم لأثينا.

وأما الغراب الذي نقل إليها الخبر فقد بدلت لونه الأبيض باللون الأسود، وحرمت على الغربان جميعا أن تحوم فوق الأكروبول. وقد لاذ إريختونيوس بدرع أثينة التي سهرت على تربيته ودللته حتى ظن البعض أنها أمه. ولما شب طفل الأكروبول المقدس وصار رجلا يافعا ارتقى عرش أثنيا حيث أدخل عبادة الربة، وعلم مواطني المدينة استعمال الفضة، وابتكر العجلة الحربية ذات الجياد الأربعة. ولهذا قيل إن صورته ظهرت في السماء بين الكواكب باسم الأوريجاس أي السائق.

ولم تتنازع أثينة وهفايستوس فقط، بل تنازعت أيضا وبوسيدون إله البحر، وهو نزاع مشهور ثار حول امتلاك أرض أتيكا. واحتدمت المنافسة فرأى بوسيدون أن يظهر آيته، وضرب بحربته المثلثة الشعاب صخرة الأكروبول فتفجرت منها عين ماء أجاج كماء البحر، ثم انبثق منها الحصان. وأما أثينة فكانت آيتها شجرة الزيتون التي غرستها في أتيكا لأول مرة. ولذلك حكم شعب أثينا أو بالأحرى ملكها كرويس في صالح الربة لأنها وهبت البلاد ما هو أنفع. وأثار ذلك الحكم غضب بوسيدون فأغرق

بماء البحر سهل ثريا. ولكنه تصافى والربة في آخر الأمر ورضي عن أتيكا، وأصبح يلقى في أثينا عظيم التكريم. ولما كانت أثينة في الأصل نصيرة ملوك كريت وموكيناي وحامية ذمارهم، فقد ارتبطت بالقلاع، وبالتالي ارتبطت بالمدن نفسها، ولذا اشتهرت بأنها «ربة المدينة الدولة» وربة أثينا بالذات التي لا يعدو اسمها أن يكون الواقع اسم الربة في صيغة الجمع. على أنه من الخطأ الاعتقاد أن أثينا وحدها كانت مدينتها المقدسة، فقد كانت أرجوس واسبرطة وطروادة مدنا مقدسة لدى هذه الربة.

ومع أن أثينة لها صلة وثيقة بالماء كما يتبين من لقبها، فإن أبرز اختصاصها كان في ميدان القتال. لقد كانت أثينة ربة محاربة بوجه عام، مثلما كان أريس إلها للحرب. ولهذا تظهر في الإلياذة كإلاهة خبيرة بالخطط العسكرية، مقاتلة شديدة المراس، قد تتسم أحيانا بالقسوة والشراسة عندما يتملكها غضب عنيف. وهذا، وإنها لم تكن تقاتل إلا من أجل بطلها أو فريقها المختار فتقوده إلى المعركة أو تبسط عليه حمايتها مثلما يبسط محارب قوي حمايته على الضعيف.

على أن دفاع الربة عن مدينة أثينا لم يقتصر على وقت الحرب فقط، بل تعداه إلى وقايتها من شتى الأخطار في وقت السلم أيضا. ومن ثم فقد اعتبرت أحيانا مبتكرة لبعض معدات القتال كالعجلة الحربية وبوق الحرب واللجام الذي روض الإنسان به الجياد. ومع أنها كانت ربة للحرب إلا أنها لم تكن تبتهج بالقتال كآريس وإيريس، ربة الشقاق، بقدر ما كانت تبتهج بحسم النزاع ومناصرة القانون بالوسائل السلمية. فهي لم تحمل السلاح في زمن السلم. فإذا احتاجت اليه استعارته من زيوس. وكانت ربة رحيمة القلب، فإذا تساوت أصوات المحلفين في قضية جنائية أمام محكمة الأريوباجوس، أدلت بالصوت الذي يرجح كفة البراءة على الإدانة. وعندما فأجاها تيريسياس مرة وهي تستحم، وضعت كفيها على عينيه فسلبته البصر، غير أنها وهبته عوضا عنه عكازا سحريا ليقوده وعمرا مديدا، ووهبته، وفوق ذلك كله، نفاذ البصيرة، فأصبح من أشهر العرافين.

ولما كانت ربة مدينة أثنيا التي أحرزت فيها الصناعة تقدما ملحوظا، فقد أصبحت أيضا راعية للحرف والصناعات، وبخاصة صناعة الغزل والنسيج والخزف والأشغال النسوية بوجه عام. وفي الحق إنها غدت معبودة الصناع على اختلاف مهنهم، فاعتبرها صانعو الفخار وصائغو الذهب والحدادون معلمة لهم. ولا عجب إذن أن لقبت أثينة براعية المهن الصناعية، وتداخلت اختصاصاتها إلى حد ما واختصاصات هيفايستوس، الأمر الذي يفسر ارتباطها به في الأساطير. وكان سن الطبيعي أيضا أن تتطور آثينة، بوصفها راعية المهن الفنية، إلى ربة للحكمة في الأجيال التالية. ولعل منشأ هذا التطور يرجع إلى أيام هسيودوس الذي يروي عن مولدها قصة مختلفة فيقول إنها ابنة ميتس، ربة الرأي السديد التي فاق علمها علم الآلهة والناس أجمعين. كذلك ارتبطت أثينا بربة الصحة فلقبت باسمها في بعض الأحيان. وكانت ربة النصر ذات الجناحين، وهي فكتوريا عند الرومان - أشهر الربات اللائي سرن في ركابها، وما تزال أطلال معبد هذه الربة قائمة فوق الأكروبول.

ولقد صورها الإغريق حسناء ممشوقة القوام قوية البنية.. ساحرة الجسد، تلتف في ثوب فضفاض منسدل حتى قدميها، تغطي صدرها عادة بدرع محفور عليه صورة صديقتها بالاس التي قتلتها وبكتها، وعلى رأسها خوذة وتمسك الرمح بإحدى يديها ورمز النصر باليد الأخرى.



نار كيسوس
عاشق نفسه

كانت إخو حورية ذات وجه باسم وضاح، وعينين نجلاوين وجمال رائع، تفتح فيها الشباب، وجرى فيها ماء النضارة. ولم تكن كسائر الحوريات، بل كان لها شغف خاص وهواية معينة.. كانت ذات صوت رخيم شجي، عذب النبرات، حلو النغمات، لذا كانت تعجب بصوتها إلى درجة أنها نادرا ما كانت تكف عن الغناء أو الكلام أو الثرثرة، لتسمع كل فرد ذلك الصوت الذي حبتها به الآلهة.

وبينما هي تسير ذات يوم في الطريق، إذ قابلت الربة جونو، فراحت تحدثها حديثا طويلا لا ينتهي، وكلما أرادت جونو أن تسد عليها أبواب الكلام، فتحت إخو بابا آخر وأخذت تثرثر فيه وتطيل، وتكرر وتعيد، حتى سئمت جونو حديثها، فأنبتها على ثرثرتها، وأخبرتها بأن ذلك لا يليق بحورية فاتنة مثلها، وأمرتها بأن تكون رقيقة في حديثها، تزن الكلام قبل أن تنطق به، ولا تتكلم إلا بالضروري من الألفاظ، فخير الكلام ما قل ودل.

استشاطت إخو غضبا، وزمجرت وطار الشرر من عينيها، وعدَّت ذلك إهانة بالغة من الربة، وردت عليها ردا جافا لا ذوق فيه ولا أدب. إذ أكبرت من جونو أن تنهرها عن الاسترسال في إظهار محاسن صوتها، وإبراز نبراته العذبة. وركبها الغرور القاتل، فشق عليها أن تؤنبها إحدى الربات، وهي الحورية البارعة الجمال، الرائعة الإغراء، ذات الصوت الشجي الذي لا تتمتع بمثله حورية ولا سيدة من البشر، بل ولا أية واحدة من الربات.

ويحك يا إخو! ما هذا الحمق؟ ألم تعلمي أن جونو هي عظمى الربات، وزوجة جوبيتر والد الآلهة والبشر؟ ألم تَدْرِ أن في استطاعتها أن تسحقك

سحقا، وتحرمك ما تتمتعين وتزهين به من مغريات ومفاتن؟.. ولكنها هكذا ركبت رأسها.

غضبت جونو من وقاحه إخو، وأرادت أن تلقنها درسا فيه عبرة لغيرها، فقالت لها: «ما هذا الغرور، يا إخو؟ وما هذه الوقاحة؟ كيف تجرئين أيتها الحورية الحقيرة على مخاطبتي بهذه اللهجة؟ ألا تعرفين أنني جونو زوجة جوبيتر الذي يقذف بالصواعق، ويرعد في عليائه؟ عقابا لك، ستفقدين صوتك الذي تعتزين به وتتباهين.. لن تتكلمي بعد اليوم كلمة واحدة. وكل ما يمكنك أن تنطقي به هو ترديد لأواخر الألفاظ التي يتفوه بها الآخرون! انطلقي الآن واحتجبي وسط التلال، وإياك أن تتجاسري على المجيء إلى هنا أو إظهار نفسك، إلا إذا أمرك أحد بذلك، هيا اغربي عن وجهي!».

انطلقت إخو تجري وقد غمرها الحزن وعصف بقلبها، فانقلبت بهجتها هموما، وتبدلت أفراحها وجوما، واستحالت أمانيها حسرات وترقرقت الدموع بين جفونها وفي نفسها، وامتلأ قلبها باليأس والقنوط.. ولما حاولت الكلام اكتشفت أنها فقدت صوتها العذب، وأنها لا تستطيع أن تقول أي شيء إلا متى سمعت الآخرين يتكلمون. وحتى في هذه الحال، ما كان في مقدورها أن تردد سوى آخر مقطع ينطق به هؤلاء.

قدم إلى التلال ذات يوم شاب يافع يدعى ناركيسوس، فارع الطول معتدل القوام، أبيض البشرة، وسيم الخلقة، جميل المحيا، يفوق الحوريات فتنة ورواء، وحسنا وبهاء، ذو شعر أسود فاحم سبط، ينساب فوق جبينه الأغر، وكانت عيناه اللامعتان تشعان ضياء وسناء، فتضفيان على وجهه إشراقا دونه إشراق الشمس في كبد السماء.

كانت إخو واقفة خلف شجرة باسقة، فإذ بها تلمح ذلك الجمال البارع، فهالها حسنه وبهاؤه، وخيل إليها أنها تتطلع إلى البدر الساطع في كامل استدارته. فقالت في نفسها: «رباه! ما هذا الشاب البهي؟ أيمكن أن يكون للذكور مثل هذا الجمال الخلاب، وهذه الفتنة الجذابة؟».. وفي الحال أحست بشعور غريب يجتاح قلبها.

كانت لا تملك قياد نفسها، ولا زمام عواطفها.. لقد كانت مطية يسيرة للحب وفريسة دسمة للغرام، وأسيرة ذليلة للهوى، وما كان سيد هيامها غير ذلك الفتى الذي انشقت عنه الأرض فظهر لها ليسلبها قلبها، ويعذب فؤادها ويسبي عينيها، ويفتك بحيائها، ويشغل بالها، ويبلبل أفكارها. لقد ألفت نفسها مستسلمة لعينيه الدافئتين الساحرتين، فإذا به فتى أحلامها، وجل آمالها وغاية مناها..

هكذا عرفت إخو الحب وذاقته لأول مرة.. علمها إياه، بلا معلم، هذا الشاب النضير، بما هو عليه من جمال فتان، وخلقة رائعة، وتكوين بديع.

تغلغلت جذور هذا الحب بسرعة في قلب إخو، وتعمقت وامتدت بين جوانحها وفي أعماقها، وودت لو أن هذا الشاب يبادلها حبا بحب، وغراما بغرام، فيهيم بها كما تهيم به.. ولكن، هيهات! هيهات أن تحظَيْ بذلك يا إخو. فإنك محرومة من الظهور أمام الناس، والخروج من بين التلال.. فكيف يمكنه أن يرى وجهك الفتان، أو يلمح طلعتك المشرقة، وفتنتك الفذة، وأنت محتجبة وراء الأشجار والتلال؟ أنَّى لك أن تلفتي أنظاره إليك وتجتذبي قلبه نحوك بلحاظك الفتاكة، وقد حكمت عليك جونو القاسية، بألا تخرجي من مكانك إلا إذا أمرك بذلك؟ ما كان أغناك يا إخو عن كل ذلك! إن الحكم لقاس مرير والعقاب رادع مهين.

اقتفت إخو إثر ناركيسوس، ولازمته كالظل دون أن يشعر بها. فما صعد جبلا إلا صعدته خلفه، ولا مشى في طريق إلا مشت وراءه، إذ كانت متيمة بهواه، لا تستطيع إلى فراقه سبيلا.

وأخيرا توقف ناركيسوس فجأة عن المسير، إذ بلغت آذانه وقع أقدام آتية من خلفه... فراح يتطلع حواليه ذات اليمين وذات اليسار، وأمامه ووراءه.. ولكنه لم يبصر أحدا، أو يتبين شيئا.. فاستأنف سيره من جديد ليقف ثانية بعد فترة وجيزة، وقد عرف يقينا أن هناك شخصا ما يقتفي أثره.

فصاح قائلا: «من هناك»؟

«هناك؟» أجابت إخو مرددة آخر مقطع من سؤاله.

فقال ناركيسوس: «من أنت؟».

فإجابت إخو: «أنت؟».

ولما لم ير ناركيسوس أحدا، رغم سماعه صوته، غضب وصاح قائلا «إيتها الفتاة لا تسخري مني».

فأجابت إخو فرحة مغتبطة: «مني».

فجن جنون ناركيسوس، وأمر الفتاة بقوله: «تعالي، وأظهري نفسك هنا».

فردت إخو، وهي لا تكاد تتمالك نفسها من الفرح: «هنا» وفي الحال ظهرت له بطلعتها المشرقة، وفتنتها الساحرة، وجمالها الصارخ. فغضب ناركيسوس إذ كان مزهوًّا بنفسه ممتلئاً بالغرور والخيلاء.. ولإيمانه بأن إخو قد سخرت منه، لم يعر نظراتها الغرامية أي التفاتة. ولما حاولت أن تطوقه بذارعيها البضتين الرخصتين، أقصاها عنه في شدة وعنف.. وهو يقول: «سمعتك تسخرين مني، فلم تتظاهرين بحبي؟ ما أنت إلا ضاحكة مني، هازئة بشخصي، ولا شك في أن صديقاتك يكمنَّ خلف الأشجار يسخرن مني كذلك.. إليك عني، أيتها الحمقاء اللعوب!».

لم يسع إخو إلا أن تطيع أمره، فانصرفت مكتئبة حزينة،تتمتم قائلة: «عني...، اللعوب» وهى تشق طريقها إلى التلال خلال الأشجار، متمنية من كل قلبها أن يأتي اليوم الذي يقع فيه هذا الفتى المتغطرس في حبائل العشق والغرام، فيبرح به الجوى، ويكتوي بنار الحب، دون أن يجد متنفسا لهواه، أو صدى لحبه. حتى يدرك معنى الحب ويذوق آلامه..

استأنف ناركيسوس سيره صاعدا إلى الجبل.. فما هي إلا فترة قصيرة حتى أحس بحاجته إلى الماء إذ ألهب الظمأ أحشاءه، فأخذ يبحث عن غدير يرتوي منه، فلم يجد سوى مستنقع من الماء الصافي، فافترش الأرض

منكفئا على وجهه ليعبَّ من الماء عَبًّا.. وقبل أن يشرب منه، أبصر وجهه في صفحة الماء..... فاعتقد لتوه أنه أمام حورية حسناء فاتنة تنظر إليه من داخل البحيرة. فأعجب بجمالها وهام بها حبا، إذ لم تقع عينه على وجه أبهى من ذلك الوجه الماثل أمامه وسط الماء.. وهكذا وقع ناركيسوس المتعجرف في غرام صورته الشخصية.

راح الشاب الوسيم الخلقة يتوسل إلى من ملكت عليه لبه وفؤاده، واستولت على عقله وجنانه، ويخاطبها بعبارات الاستعطاف قائلا: «أيتها الحورية الجميلة، ذات الطلعة الساحرة، والعيون الآسرة، متى ستخرجين من البحيرة حتى يسعدني الحظ بإن ألعب معك؟».. فلم يحظ بأي رد على توسلاته غير تحريك شفتي الوجه المتطلع اليه سن الماء بينما كان هو نفسه يحرك شفتيه، دون أن يسمع أي صوت صادر من تلك الشفاه. فأراد أن يعبر عن حبه وتلهفه إلى ضم الحورية إلى صدره فمد ذراعيه نحوها، غير أنه ما كادت ذراعاه تلمسان المياه، حتى اضطرب سطح المستنقع واختفى الوجه الجميل.

أسف ناركيسوس على ما بدر منه، وظن أنه أغضب الحورية فوجم وانتظر صاغرا حتى سكن سطح الماء ثانية، وبان الوجه من جديد. فانحنى بالقرب من البحيرة، وراح يبتسم لذلك الوجه، وما كان أشد فرحه وأعظم غبطته عندما ابتسم له الوجه! إذن لقد رضيت عنه الحورية وبادرته غراما بغرام. فتحدث إليها يبثها هيامه ويرجوها أن تخرج حتى يمتع ناظريه بقوامها الرشيق... ولكنها، كما سبق، لم تتكرم عليه بتلك المنة، وحركت شفتيها ليس غير.

أبصرت إخو ناركيسوس يتحدث إلى شخص ما داخل المياه، فاتقدت نار الغيرة في فؤادها حتى كادت تفتك بها. كيف يحب حورية أخرى، لا تميل إليه، بينما يعرض عنها، وهي التي أحبته من كل قلبها؟ فاسترقَّتِ النظر من فوق كتفه لترى وجه الحورية التي يتحدث إليها.. فإذا هي لا ترى

غير وجه ناركيسوس على صفحة الماء، فتاقت نفسها إلى إخباره بإنه لا ينظر إلا إلى وجهه. ولم يغرم إلا بنفسه، بيد أنها عجزت عن الإفصاح له بذلك، لأنه لم يكن في مقدورها أن تنطق بأي لفظ غير إعادة الكلمات الأخيرة التي يقولها.

اكتشفت إخو أن أمنيتها قد تحققت، فوقع ناركيسوس في حب فاشل، اذ ليس في مكنة طيف ناركيسوس أن يبادله الغرام الذي يظهر له.

لم يستطع الفتى المسكين مبارحة البحيرة، وعبثا كان يتوسل إلى الحورية أن تخرج من المياه، وعبثا كان يبتسم لها، ويمد إليها ذراعيه..

ظل الشاب المتيم يقضي يومه كله راقدا بجانب المستنقع، يتطلع إلى الوجه الذي خدعه.. ويمضي الليل مسهدا ساهرا ينظر إلى صورته في الماء عندما يسطع القمر على البحيرة بنوره الفضي، يتحدث إليها بأحاديث الغرام، ويشكو هواه وهيامه مستخدما كل ما في معاجم اللغة من ألفاظ العشق والهوى، ولكن دون جدوى..

مرت الأيام، وتعاقبت الشهور والأعوام، وناركيسوس ما زال راقدا إلى جوار البحيرة.. وقد حرم نفسه الطعام والشراب، إذ نسي كل شيء ما عدا حبه للحورية الفاتنة التي تسكن البحيرة يذرف الدمع الغزير، فتساقط كاللؤلؤ إلى الماء، ولما اكتشف أن البكاء يحرمه مشاهدة الحورية التي عذبت فؤاده وأضنت جسده، كف عن البكاء، لأنه ما كان يطيق فراق الحورية أو اختفاء صورتها عنه بأية حال من الأحوال.

سرعان ما ذوى ناركيسوس، وشحب لونه، وهزل جسمه، كما عانت حورية البحيرة نفس الشيء.. وأصبح الفتى تعيسا شقيا معذبا، وانقلب نعيم دنياه جحيما لا يطاق.. أما إخو فقد أخذت تذوي وتبتئس هي بدورها، لأنها أدركت أن حبيبها سوف يموت كمدا.. في الوقت الذي لا يمكنها فيه أن تمنع عنه الضر، أو تفضي إليه بحقيقة أمره، وتحذره من المصير الذي هو مقبل عليه.

وفي صباح أحد الأيام أشرقت الشمس على الصبي، وقد ذبل جسمه وامتقع لونه وفارقته الحياة. كان لونه أبيض ناصعا، وجماله واضحا جليا صارخا وهو يرقد رقدته الأخيرة إلى جوار المستنقع الصافي، لدرجة أن الآلهة نفسها بكته وبكت حبه الضائع اليائس.. وبجانب جسده نبتت زهرة في بياض ناركيسوس وجماله - وهكذا ظهرت النرجس الصغيرة التي تحب دائما أن تنمو وتزدهر بالقرب من غدران الماء.

ولا تزال هذه الزهرة تحتفظ بانحنائها لترى صورتها في الماء، كما كان يفعل ناركيسوس تماما، منذ سنين طويلة، ليشخص ببصره إلى صورة طيفه.

أما إخو التعيسة، لقد ذبل عودها أيضاً وضمر جسمها ضمورا شديدا من فرط حزنها، حتى أنه لم يبق من صورتها إلا صوتها.. ويمكنك أن تسمعها إذا شئت بين التلال والغابات الفسيحة تردد آخر صدى صوت ألفاظك.. ولكن لا شك أنه لن تراها عين بعد اليوم قط.

لقد أصبحت إخو ظبيًا شاردًا يجري بين الوديان والتلال، بين الجداول والزهور تبكي وتولول على حبها المفقود.



«ناركيسوس»

بريسيس

صانت كلينمنسترا عفتها ما ظل زوجها أجاممنون وفيا

وانزلقت للخطيئه حين اكتشفت إثمه

سمعت أن الكاهن خريسيس أتاه معتمدا فوق عصاه معتمرا بالعصابة المقدسة، قابضا على غصن الغار، متوسلا اليه عبثا أن يرد اليه ابنته بريسيس. وكذلك سمعت كيف أدمى الحزن قلبك، يا بريسيس بعد اختطافك.

وأتاها نبأ خصومات شائنة أطالت أمد الحرب وما كان ذلك كله غير قصص حملها الرواة إليها.

لكنها رأت بعينيها كاسندرا بنت بريام بصحبة زوجها فأدركت كيف غدا اجاممنون المنتصر أسيرا ذليلا لاسيرته لحظتها.

وهبت ابنة تنداريوس قلبها مرحبة به في فراشها ودبرت الثأر انتقاما من جريمة زوجها المهيبة.

اوفيد

وهكذا انهمك الجميع في سائر انحاء المعسكر، ومع ذلك فلم يكف أجاممنون عن المشاحنة التي هدد بها أخيل في بادئ الأمر، بل استدعى اليه رسوليه وخادميه المطيعين «تالثوبيوس» و«يوروباتيس»، وقال لهما: «أذهبا إلى خيمة أخيل، ابن بيليوس، واختطفا بريسيس الجميلة الخدين، واحضراها إلى هنا، واذا لم يعطكما إياها، فسأذهب بنفسي بصحبة عدد أكبر من الرجال وآخذها، ويكون هذا شرا له» قال هذا، وارسلهما لتوه، وشدد عليهما الامر. فذهبا على كره منهما يسيران بمحاذاة شاطئ البحر

القاحل، ووصلا إلى مخيمات «المورميدون» وسفنهم. فوجدوا أخيل جالسا بجوار خيمته وسفينته السوداء، ولم يظهر ابتهاجا برؤيتهما. واذ سيطر عليهما الخوف، والفزع من الملك، وقفا لا ينبسان ببنت شفة، أو يطلبان شيئا، غير أنه أدرك الأمر، فتكلم قائلا: «مرحبا، أيها الرسولان، يا رسولي زوس والبشر، اقتربا. لستما الآثمين في نظري، ولكنه أجاممنون، الذي بعث بكما من أجل الفتاة برسيس. ومع كل فهيا، يا باتروكلوس، يا سليل زوس، أحضر الفتاة، وسلمها اليهما ليذهبا بها. وعلى ذلك فليكن هذان نفساهما شاهدين أمام الآلهة المباركة والبشر المعرضين للموت، نعم، وأمام ذلك الملك المتهور، لو احتاج الامر إلى أبعد من ذلك لأدفع الهلاك المزري عن الجيش. الحق إنه ليثور بعقل مخرب، ولا يعرف إطلاقا أن يستشف المستقبل على ضوء الماضي، حتى يمكن لاتباعه الآخيين أن يشنوا الحرب في أمان بجوار سفنهم».

واذ قال هذا، أطاع باتروكلوس قول زميله العزيز، فأخذ «برسيس» الفاتنة الخدين، وسلمها اليهما ليذهبا بها. وهكذا عاد الرسولان أدراجهما يسيران بجوار سفن الآخيين، ومعهما، على مضض منهما، سارت المرأة. بيد أن أخيل استسلم من فوره إلى البكاء، وانتحى بعيدا عن رفاقه، وجلس على شاطئ البحر الرمادي اللون، واتجه ببصره نحو اليم ذي اللون النبيذي القاتم، وبشوق جارف راح يتضرع إلى أمه العزيزة باسطا يديه: «أماه، بما أنك قد ولدتني - ولو أن ذلك لفترة قصيرة من الحياة - فمن المؤكد أنه كان يجب على الاوليمبي، زوس الذي يرعد في علاه، أن يضع المجد في يدي، ولكنه الآن لم يخصني بشيء ما من المجد. هذا حق، فإن ابن أتريوس، أجاممنون الواسع الملك، قد نال من كرامتي، لأنه اغتصب غنيمتي بواسطة عمله المتغطرس».

قال هذا وهو يبكي، وسمعته أمه الملكة وهي جالسة في أعماق البحر بجانب الشيخ المسن، أبيها. وسرعان ما خرجت من البحر الرمادي

كسحابة من الضباب، وجلست أمام وجهه، وهو يبكي، وضربته بيدها، وكلمته، ونادته باسمه قائلة: «أي بني، لِمَ تبكي؟ أي حزن استولى على فؤادك؟ أفصح لا تُخْفِ الامر في بالك، كي يعرفه كلانا».

عندئذ تحدث اليها أخيل وهو يتأوه تأوها ثقيلا فقال: «إنك لتعرفينه. لماذا، في الحقيقة، يجب عليَّ أن أخبرك بالقصة يا من تعرفين كل شيء؟ لقد ذهبنا إلى طيبة المقدسة، وخربناها، ثم أحضرنا إلى هنا جميع الاسلاب. وهذه قسمها أبناء الآخيين فيما بينهم بالعدل، ولكنهم اختاروا ابنة خروسيس الجميلة الخدين لابن أتريوس. غير أن خروسيس، كاهن أبولو الذي يضرب من بعيد، جاء إلى السفن السريعة التي للآخيين ذوي الحلل البرونزية، ليحظى بالحرية لابنته، وأحضر فدية تفوق الحصر، حاملا في يديه سهام أبولو، الذي يضرب من بعيد، فوق صولجان من الذهب، وتضرع إلى جميع الآخيين وبصفة خاصة لولدي اتريوس، قائدي الجيش. عندئذ صاح سائر الآخيين الباقين بالموافقة، آمرين باحترام الكاهن وقبول الفدية العظيمة. بيد أن الأمر لم يسر قلب أجاممنون، ابن أتريوس، فطرده بغلظة، وأصدر اليه أمرا صارما. ومن ثم عاد الرجل العجوز غاضبا، وسمع أبولو صلاته، لانه كان عزيزا جدا عليه، فأرسل سهما شريرا صوب أهل أرجوس. وعندئذ بدأ الناس يموتون جماعات وبسرعة، وراحت سهام الرب تزمجر في كل مكان خلال معكسر الآخيين الواسع. فأعلن لنا العراف، جازما، نبوءات الرب الذي يضرب من بعيد...

وعلى ذلك، كنت أنا أول مَنْ أمر على الفور بمهادنة الحرب، غير أن الغضب تملك ابن أتريوس من جراء ذلك، فنهض في الحال ونطق بكلمة تهديد، كان لها أن تنفذ الآن. لأن الآخيين ذوي العيون المتألقة يأخذون الفتاة في سفينة سريعة إلى خروسي، حاملين الهدايا للرب، بينما الأخرى أخذها الرسل الآن من خيمتي. وذهبوا بها، بـ«برسيس» التي أعطانيها أبناء

الآخيين. فلو كان لك قدرة، حقا، فصوني ابنك، أسرعي إلى أوليمبوس وتوسلي إلى زوس، إذا كنت قد أدخلت السرور إلى قلبه بالقول أو بالفعل. فكثيرا جدا ما سمعتك تتباهين في ساحات أبي، معلنة أنك وحدك من دون الخالدين التي ذدت الخراب المشين عن «ابن كرونوس» سيد السحب الدكناء، في اليوم الذي عزم فيه الأوليمبيون الآخرون أن يكبلوه بالاصفاد، وكانت من بينهم «هيرا» و«بوسيدون» و«أثينا». ولكنك أتيت، أيتها الربة، وخلصته من قيوده، عندما استدعيت بسرعة إلى جبل اوليمبوس الشامخ ذلك الذي له مائة يد، الذي يسميه الآلهة برياريوس، ويسميه سائر البشر «ايجابون» لأنه كان أقوى من أبيه «بوسيدون» فجلس إلى جانب «زوس»، تحيط به هالة مجده، فذعر منه الآلهة المباركون ولم يكبلوا زوس. عليك أن تذكريه بهذا وتجلسي إلى جانبه، وتمسكي بركبتيه عسى أن يقرر نجدة الطرواديين، وحبس أولئك الآخرين، الآخيين، بين مؤخرات سفنهم وحول البحر وهم قتلى، لعلهم يفيدون جميعا من مليكهم، وحتى يعرف ابن أتريوس، أجاممنون الواسع السلطان، أن العمى قد غشيه يوم لم يحترم بأية حال صالح الآخيين».

عندئذ أجابت «ثيتيس» على تضرعه وهو ما زال يذرف الدموع: «ويحي، يا بني، لماذا نشأتك، واللعنة تلحقني إبان حملي؟ ليت حظك كان أن تمكث بجوار سفنك بلا دموع وبلا حزن، حيث إن حياتك قصيرة المدى ولن تتحمل مزيدا من الطول. ولكنك الآن مهدد بميتة سريعة، فوق أنك محوط بالحزن أكثر من سائر البشر، إذن فقد أنجبتك في ساحاتنا لتلقى مصيرا مؤلما. ومع كل فلكي أروي هذا الذي تقول لزوس الذي يقذف الصاعقة، سأذهب لأضرع اليه فوق قمة أوليمبوس الجليدية، أملا في أن يُصغي إليَّ. ولكن هل لك أن تتلكأ بجوار سفنك السريعة، ماخرة البحار، وتمضي في غضبك على الآخيين وتحجم بتاتا عن القتال، لأن زوس قد توجه بالامس إلى أوقيانوس، إلى الاثيوبيين النبلاء، من أجل وليمة، فتبعته

جميع الآلهة، لكنه سيعود إلى أوليمبوس في اليوم الثاني عشر، وعندئذ اذهب إلى بيته ذي العتبة البرونزية وأمسك بركبتيه متوسلة، وإنني لأعتقدُ أنني سوف أحظى برضاه».

وما إن قالت هذا، حتى انصرفت وتركته حيث كان، يملأ الغضب قلبه من أجل الفتاة الجميلة التي اختطفوها منه رغما عنه.



بوسيدون، أبوللو، أرتيميس



عودة بريسيس

في تلك الأثناء كان «أوديسيوس» وجماعته وابنة الكاهن قد بلغوا خروسي، ومعهم الذبيحة المقدسة من مائة ثور. فلما صاروا الآن داخل المرفأ العميق، طووا الشراع، وحفظوه في السفينة السوداء، وخفضوا الصاري إلى قاع المركب وجعلوه بسرعة في مستوى الدعامة، وجذفوا بالسفينة بواسطة المجاذيف إلى مكان الرسو. وبعد ذلك ألقوا أحجار المرساة وثبتوا الحبال، وذهبوا هم أنفسهم إلى شاطئ البحر. وفي الحال أحضروا ذبيحة المائة ثور لأبولو، الذي يضرب من بعيد، كما أسرعوا بانزال ابنة خروسيس من السفينة ماخرة البحار. ثم قادها أوديسيوس الكثير الحيل إلى المذبح، ووضعها بين ذراعي أبيها العزيز، وقال له: «أي خروسيس، إنّ أجاممنون، ملك البشر، قد أوفدني اليك لأحضر لك ابنتك، وأقدم لأبولو ذبيحة مقدسة من مائة ثور بالنيابة عن الدانيين، حتى يمكننا بواسطتها أن نسترضي الرب الذي جلب على أهل أرجوس الويلات والأحزان».

قال هذا ووضعها بين ذراعيه، فأمسك الكاهن بابنته العزيزة فرحا، ولكنهم أسرعوا ليقدموا الذبيحة المقدسة من مائة ثور حول المذبح الراسخ البنيان، من أجل الرب، وبعد ذلك غسلوا أيديهم، والتقطوا حبات الشعير. عندئذ رفع خروسيس يديه وصلى بصوت مرتفع من أجلهم قائلا: «استمع لي، يا صاحب القوس الفضية، يا من تشرف على خروسي وكيلا المقدسة، ومن تحكم جزيرة تيندوس. كما سبق أن أصغيت إليَّ عندما صليت - وشرفتني، وأنزلت ضرباتك شديدة على جيش الآخيين - الآن أيضا حقق لي رغبتي هذه: أبعد الوباء البغيض عن الدانيين».

تكلم هكذا في صلاته فسمعه الاله أبولو. وبعد أن صلى القوم ونثروا حبات الشعير، شدوا أولا رؤوس الذبائح إلى الوراء وذبحوها.

وإلى جواره كان الشبان يمسكون في ايديهم المذاري ذات الشعب الخمس. غير أنه عندما احترقت الذبائح عن آخرها، وتذوقوا الأجزاء الداخلية ولما انتهوا من عملهم وأعدوا الوليمة، أكلوا كفايتهم من المائدة الحافلة. ولكن عندما ولت عنهم الرغبة في الطعام والشراب، ملأ الشبان الكؤوس حتى حافتها بالشراب وداروا بها على الجميع، ساكبين أولا قطرات في كؤوسهم. وهكذا قضوا اليوم كله إلى إرضاء الرب بالغناء، منشدين أغنية النصر الجميلة، ورتل الآخيون مديح الرب الذي يضرب من بعيد، فابتهج قلبه وهو يستمع اليهم.

بيد أنه عندما غربت الشمس وساد الظلام، رقدوا ليستريحوا إلى جوار حبال السفينة، وما كاد الفجر الباكر ذو الأنامل الوردية يظهر حتى اقلعوا صوب معسكر الآخيين الواسع. فأرسل اليهم أبولو، الذي يضرب من بعيد، ريحا مواتية، فأقاموا الصاري ونشروا الشراع الأبيض. ومن ثم ملأت الريح بطن الشراع، وراحت الموجة الدكناء تغني عاليا حول جؤجؤ السفينة، وهي تشق طريقها بسرعه فوق الموج، ولما بلغوا معسكر الآخيين الفسيح، سحبوا السفينة السوداء فوق الشاطئ، إلى علو فوق الرمال، ووضعوا تحتها صفا من الدعامات الطويلة، وتفرقوا هم وسط الأكواخ والسفن.

ولكن ابن بيليوس المنحدر من السماء، أخيل، السريع القدمين، ظل يجترُّ غضبه بجوار سفنه السريعة، ولم يتقدم على الإطلاق إلى مكان الحشد، حيث يفوز الرجال بالمجد، ولا إلى الحرب قط، بل اعتزم في نفسه أن يظل عاطلا، يتلكأ حيث هو، رغم أنه كان يتوق إلى صيحة الحرب وإلى القتال.

أبوللو

يروى أن ابوللو اضطر أن يرعى قطعان أدمينتوس ملك فيراي وأنه قنع بكوخ متداع يأوي اليه

من منا يستنكر أن يحذو حذوه

أطرح عنك الكبرياء إن تشوقتَ إلى أن تحيا قصة حب تطول وتعمق

فإذا منحتك الأقدار طريقا سهلا إلى قلب فاتنتك

أو ألفيتَ بابها موصدا في وجهك

فألقِ بنفسك من كوة السقف

أو تسلل نحوها من نافذة شاهقة

وسيسعدها إن خضت المخاطر في سبيلها

عربون الحب الذي عن يقين ستظفر به.

لقد كان في وسعك أن تتغيب عن عشيقتك ياليناندر[1] فلا تلقى بنفسك في التهلكة.

ولكنك آثرت أن تقطع أمواج البحر مابحا، برهانا منك لها على ما تحمل من عاطفه متأججة

اوفيد

وإلى جوار رب الأرباب كانت زوجه «هيرا»، تشاركه الملك العظيم، وتفرض سلطانها على الجميع لقربها من حاكم الأرض والسموات، وتتدخل في كل شيء. من فوق هذا العرش حكم «زيوس» العالم كله،

(1) ياليناندر: عشيق هيرا إحدى كاهنات معبد ڤينوس الجميلات.

بعدما قضى على أعدائه من أبناء عمه «تيتان» الرهيب، بأن أرسل عليهم سهامه المدمرة التي صنعها «السيكلوب» أمهر الحدادين العمالقة ذوي العين الواحدة في وسط الجباه.. الذين كانوا يوقدون النيران في جوف الأرض، ومن أفرانهم تنطلق أعمدة رهيبة من النيران والدخان تقذفها البراكين.

وكان «زيوس» خليقا أن ينعم بتلك الحياة... إلا أن زوجته «هيرا» التي تشاركه عرش الأولمب، ملأت نفسه سأما مريرا، بطباعها السيئة وخلقها البغيض، وعنادها الذي لم يكن يقف في وجهه شيء.

ولم يجد «زيوس» العظيم - فرارا من حقد زوجته، ومقتا لها - بدا من أن يحاول الهرب منها بين الحين والحين. وفي كل مرة كان يعيش سرا مع حب جديد. وعندئذ لم يكن يهتم بأن تكون زوجته الجديدة من بين ربات السماء، أو من بين نساء البشر.

وكانت «لاتونا» واحدة من زوجات زيوس العظيم، وواحدة من الربات اللاتي صبت عليهن «هيرا» جام غضبها وحقدها، بعد أن رأت في جوفها جنينا خشيت أن يحتذب قلب أبيه العاشق إلى أمه، فيجلسها معه على العرش بدلا منها.

وأخذت «هيرا»، مندفعة بحقدها الرهيب، تثير غضب «زيوس» على لاتونا. ووقع رب الأرباب في الشرك، فطرد «لاتونا» من فوق أولمب، وأرسلها إلى الأرض شقية معذبة.

ومع ذلك فقد ظلت لعنة «هيرا» تلاحقها وهي حائرة على الأرض. وحاولت المسكينة عبثا أن تجد مكانا تختفي فيه من لعنة «هيرا». ولما عجزت عن الحصول على المخبأ الأمين.. ألقت بنفسها في البحر.

وكان «بوسيدون» إله البحر يتبع بنظراته الزوجة الحزينه التائهة، وأبت عليه الشفقة أن يدعها تغرق في الماء، فاستقبلها في جزيرته «دبلوس» التي صنعها ليرفع منها امواج البحر بضربات رمحه ذى الشعبتين.

وهناك - في هذه الجزيرة السحرية - وضعت «لاتونا» أجمل توأمين من أبناء زيوس العظيم: ديانا، و أبوللو.

ومع ذلك، فقد ظلت «هيرا» تلاحق «لاتونا» بحقدها ولعنتها.. في حين كانت الأم مشغولة بتربية ولديها، اللذين وهبا جمالا رائعا وذكاء نادرا أثارا عليهما حقد أهل الجزيرة.

وراحت «هيرا» تملأ صدور النساء حقدا على لاتونا، حتى أثارت عليها إحدى ملكات الجزيرة، فاحتكت بالأم المسكينة.. وكان نقاش وصدام، ثم وجدت «لاتونا» نفسها، وقد حكم عليها أن تعود مرة أخرى طريدة، شقية هائمة.

غير أن «لاتونا» - قبل أن تمضي - ثارت على المعاملة السيئة التي لقيتها، ومست الاهانة كبرياءها، فسلحت «ابوللو» بالدروع، وأعطت «ديانا» حربة مسنونة، وأمرتهما أن يقتلا أبناء الملكة، فراحا يضربان بكل ما في شبابهما من قوة وغضب حتى قضيا على الجميع.

وعادت «لاتونا» تبكي من جديد. ومست دموعها قلب زيوس الذي كان لا يزال يحمل لها في أعماقه بقايا غرام... فعطف عليها، ولم يجد وسيلة لانقاذها من غضبة هيرا إلا أن يحيلها تمثالا رائعا من رخام.. ناصع الجمال.

وشب «أبوللو» و«ديانا»، فكانا موضع إعجاب في السماء والأرض، وخفق قلب زيوس لولديه، فأرسل يستدعيهما ليصبحا من الآلهة. وقدمت لهما «هيني» شراب الخلود، لينقطع كل ما يربطهما بالأرض. وأمر ابنته الصغيرة بأن تكون ربة للصيد، في حين جعل ابنه ربا للشمس، وقائدا لمركبتها الذهبية الرائعة في رحلتها كل يوم بين الشرق والغرب.

وأصابت سهام كيوبيد إله الحب قلب أبوللو فقد أحب «أبوللو» فتاة من البشر تدعى «كليميني» وتزوجها. وأنجب منها أولادًا: «فايتون»، و«كرونيس»، «أيسكلوبيس».

ونشأ أبناء ابوللو، كما نشأ أبوهم من قبل، بارعين في كل ميدان نزلوا فيه. وبرع من بينهم «أيسكلوبيس» في دراسة خواص النباتات والمعادن، واستخلص منها أدوية تشفي جميع الأمراض.. وأعلن «ايسكلوبيس» عن اكتشاف دواء يعيد الحياة إلى الموتى.

ووفد الناس أفواجا على «أيسكلوبيس» يطلبون منه أن يرد الحياة إلى موتاهم، ويشفي مرضاهم. هنا ثار «زيوس» فما كان يعجبه أن يتحدى حفيده رغبات آلهة أولمب. وما كان يرضيه أن يترك الناس تقديم القرابين إلى محاولة استرضاء الفتى الطيب. فأرسل صواعقه المدمرة. فقضت على «أيسكلوبيس» ابن «أبوللو»، وأحرقت أدوات طبه ومكتشفاته.

وحزن «ابوللو» لما أصاب ولده، ولم يعرف كيف ينتقم لابنه القتيل من قاتله. وكان كل ما يمكنه أن يفعل هو أن ينزل غضبه بصانعي الصواعق التي يستخدمها زيوس.. فانطلق إلى براكين ليمنوس، وانحدر من فوهتها إلى حيث يعمل السيكلوب، وأهلكهم جميعا.

وأنطفأت نيران البراكين، وانقطعت أصوات المطارق الهائلة وانتبه «فولكانوس»، الاله الحداد، إلى السكون الغريب، فانطلق إلى مكان صناعه المهرة، فوجدهم جثثا هامدة على الأرض.

وانفجر «فولكانوس» غاضباً، وانطلق يحجل بساقه العرجاء صاعدا إلى السماء، حيث شكا لزيوس ما صنعه ولده ابوللو بعمالقه الحدادين، وقدم له السهام التي استخدمها في القضاء عليهم.

وأجج الغضب في صدر زيوس، وارتعد جبل أولمب مع زفرات رب الأرباب وهو ينطق بحكمه الرهيب بنفي أبوللو إلى الأرض، ليرعى الأغنام تحت إمرة واحد من البشر.

وهبط «أبوللو» إلى أرض البشر.. وعمل راعيا للأغنام عند أدمينوس ملك تساليا. سرعان ما أدرك الملك أن الراعي الجديد من نوع لم ير مثله

من قبل. فقد سحرت الأنغام السماوية التي تصدر من ناي «أبوللو» سكان المملكة جميعهم.

وكانوا يتجمعون حول الراعي الغريب، وهو جالس على شاطئ نهر أمفريسوس، ليستمعوا إلى شدوه الساحر في نشوة تبلغ حد الذهول.. وكم حاول زملاؤه الرعاة أن يتعلموا منه هذا النغم الرائع، فاستعصى عليهم الأمر، واكتفوا بالالتفاف حوله أينما ذهب ليتمتعوا بألحانه السماوية على الدوام.. لقد تحول أبوللو من قائد مركبة الشمس إلى رب الشعر والفن والموسيقى.

وأحب الملك راعي الغنم الجديد، وازداد له حبا عندما مكّنه بموسيقاه من قلب «الكستيس» ابنة الملك «بيلاس» الذي قرر ألا يزوج ابنته الأميرة إلا لمن يحضر إلى قصره في مركبة تجرها السباع.

لقد انطلق «ابوللو» يعزف على أوتار قيثاره السماوي، فهرعت اليه السباع من كل صوب، نشوانة باللحن السحري.. وأسلست له قيادها، وامتثلت لأمره أليفة مستكينة، وهو يربطها إلى المركبة المذهبة التي انطلق بها الملك «أدمينوس» إلى قصر الملك بيلاس.

وآن لأبوللو أن يستريح.. فقد بلغ من تعلق الملك «أدمينوس» به أن اتخذه صفيا له، ولم يعد يرهقه بالعمل في رعي أغنامه. وسارت به الحياة رخية ناعمة إلى أن مات الملك.. فلم يطق «أبوللو» البقاء في المملكة بعد وفاته، وهام رب الموسيقى على وجهه لا يستقر في مكان.

وفي ذلك الوقت كان «بوسيدون» قد طرد هو أيضا من السماء وكلف ببناء أسوار طروادة. ولم يكن ذلك بالعمل السهل. وناء بوسيدون بحمله، وأوشك على الهلاك.

ثم التقى «أبوللو» ببوسيدون، وأشفق عليه، وقرر أن يساعده.. فأخرج نايه من جعبته، وانطلق يشدو بألحان تحركت لها الصخور، واهتزت لها طربا، وصارت تقفز إلى حيث يومئ لها ابوللو بمؤخرة نايه.. واستمر في

العزف حتى تراصت الصخور في ثبات، واستقرت مكونة سور طروادة العظيم!

ومضى «ابوللو» على ظهر الأرض يؤدي للبشر خدمات عظيمة لم يكونوا ليبلغوها بمفردهم.. وبالرغم من ذلك، فإنه لم يكن موفقا في صداقاته.

كان يلعب ذات يوم مع صديقه «هياكنتوس»، ويتسليان بقذف القرص. ومر بهما «زفيروس»، رب الريح الغربي، فلم يرقه لعب الصديقين، وامتلأ قلبه الحقود حسدا وغيرة للمرح البادي عليهما، فقرر في الحال أن يضع حدا له.

وانتظر «زفيروس» حتى قذف أبوللو القرص، فأرسل ريحا عاتية من الغرب غيرت اتجاه سير القرص، واذا به يصدم رأس «هياكنتوس» صدمة قوية قضت عليه لساعته.. وصرخ أبوللو في ألم وذهول، وألقى بنفسه على جسد حبيبه الميت يبكيه في لوعة وأسى. وأفاق من غمرة حزنه، ووارى جثة صديقه التراب. ثم تناول بعض الأزهار البرية وغمسها في بقايا دمه الأرجواني، ثم غرسها فوق مثوى الصديق.. فترعرعت الزهور الجميلة، وسميت منذ ذلك اليوم «زهرة الهيكانتوس».

حتى في الحب.. كان «أبوللو» تعبا شقيا. فحين كان يرعى الغنم على سفوح جبل أوسرا. التقى بحورية حسناء اسمها «دافني» إحدى بنات رب النهر بنيوس - فأحس نحوها بميل شديد، سرعان ما تحول إلى وجد مشبوب غمر حواسه كالفيضان.. وكثيرا ما حاول «أبوللو» أن يجتذب اليه نظر حوريته الحسناء، وإن يستميل قلبها اليه، ولكن جهوده ذهبت كلها أدراج الرياح.. حتى أنغام قيثاره السحري ما كانت لتؤثر في «دافني» فقد كانت دائما تفر من طريقه، وتهرب من أي مكان يكون فيه.

وقرر «أبوللو» أن يلجأ إلى القوة ليجبر فتاته على التحدث اليه.

وذات صباح انتظر عند منحنى على سفح الجبل، ولم يكد يراها تمر حتى وقف في طريقها، وتدفقت من فمه عبارات الحب تفضح هواه

المكبوت، وتنبئ عن نار الشوق المستعرة في صدره. وكاد قلب الفتاة يرق للواعج غرامه.

إلا أن ذهول المفاجاة زال أثره سريعا، وتمالكت نفسها، وفرت في رشاقة الظبي الشارد من طريقه.

واندفع «أبوللو» وراءها كالريح.. فما عاد يتمالك وعيه، بعد أن طغى الحب على وجدانه، وأعمى بصره وبصيرته عن كل شيء ما عدا جمال حوريته.. وتمكن من اللحاق بها. ولم يكد يمد يده اليها حتى صرخت مستغيثه بأبيها:

النجدة يا أبي.. أدركني.. أنقذني.

وأسرع اليها رب النهر، ولكنه عجز عن اللحاق بها لبعدها عن شاطئه.

وعادت الفتاة إلى صراخها الموجع:

حولني يا أبت إلى أي صورة أخرى، أو اجعلني أغوص في الأرض قبل أن تمسني يداه!

ومد «أبوللو» يده، وقبضت أصابعه على شيء حسبه في نشوته الغامرة ذراع الفتاة، وتحسسه في لذة.. فإذا أصابعه تكاد تتهرأ. وفتح عينيه فإذا أمامه شجرة غار يانعة الفروع، وإذا بيديه تقبضان على فرع منها. أما الحبيبة فلم يعد لها أثر.

وانطلق «أبوللو» والأسف يغمر نفسه، لأنه كان السبب في أن صارت الفتاة الممتلئة حيوية شجرة جامدة صماء. ومد يده فجمع بعض أغصان الشجرة الخضراء، وصنع منها تاجا وضعه على جبينه ليكون ذكرى دائمة لفاتنته.. ومضى في الطريق يعزف على قيثاره لحنا حزينا مؤثرا..

كل ذلك كان يحدث على الأرض، في حين كانت عربة الشمس تجري وحدها بين الشرق والغرب، بلا قائد ينظم سيرها ويقودها خلال منعرجات السماء.

وبالرغم من ن «زيوس» كان يوجه من عليائه جياد المركبة الذهبية بنفسه، الا أن سيرها اختل، وبدت الجياد حائرة مضطربة. حتى الساعات الاثنتا عشرة التي تحيط بالمركبة، وتدور حولها خلال رحلتها الأبدية، اختل نظامها فما عادت تحس رقيبا أو حسيبا.

وأحس الآلهة جميعا بقيمة «أبوللو» وبراعته في قيادة المركبة.. فانطلقوا إلى «زيوس» يكررون الرجاء، ويلحون في طلب العفو عن رب الشمس واعادته إلى مكانه السماوي.

ولم تكن «هيرا» جالسة إلى جوار «زيوس» في ذلك الوقت فأصدر أمره بالعفو عن ولده وإعادته إلى مكانه بين الخالدين..

وثمة حادثة أخرى في حياة رب الشمس.. أبوللو.

لقد تزوج أبوللو كورنيس ابنة فلجياس إلا أنها خانته مع عشيق من البشر اسمه أسخيس من أركاديا، وعلم أبوللو بخيانتها من رسوله الغراب الوفي. ويزعم بندار أنه عرف ذلك عن طريق علمه بالغيب، ولذلك أرسل شقيقته أرتميس للانتقام منها، أو أنه رماها هو بسهمه القاتل.. إلا أن حبه لكورنيس ملك عليه نفسه ولكن بعد فوات الأوان، ولهذا عاقب الغراب ذا الريش الأبيض بتحويله إلى غراب أسود - هو الذي يظهر لنا حتى اليوم - وإذ تيقن أنه لن يستطيع إعادة الحياة إلى كورنيس أنقذ حياة ابنها اسكلوبيوس الذي لم يكن قد وُلد بعدُ، فانقض أبوللو على جثمانها الممدد فوق المحرقة الجنائزية وانتزع اسكاليبوس من رحمها وأسلمه إلى خيرون القنطور الحكيم، وتحت وصايته العلمية البارعة سرعان ما حذق أسرار العشب وفن الطب حتى بلغ أن يعيد الحياة إلى الموتى.

وترك «أبوللو» قيثاره ونايه، وصعد إلى السماء ليقيم في قصر تيميس، ولينطلق مع الفجر حين تفتح «أورورا» أبواب الشرق، فيخترق بمركبته الفضاء، ويظل سائرا في طريقه المرسوم حتى يصل إلى الغرب حيث يستريح مع جياده الأربعة في انتظار اليوم الجديد.

في ذلك الوقت كان «فايتون» ابن أبوللو يعيش مع أمه «كليميني» في أرض البشر. وبالرغم من أن الفتى الصغير كان عفيفا طيب الخلق.. إلا أنه كان دائما يفاخر بين أصدقائه بأنه من نسل الآلهة، وأن أباه «أبوللو» رب الشمس، وجده «زيوس» رب الأرباب.

ولم يكن أصحابه يصدقون دعواه قط، بل طالما سخروا منه وهزأوا به. فكان «فايتون» ينطلق إلى أمه صارخا باكيا، طالبا منها البرهان على أنه ابن رب الشمس حقا. وكانت أمه تقسم له على صدق ما يقول فيصرخ فيها دائما: أين الدليل؟

وضاق صدر الفتى ذرعا، ولم يعد يحتمل سخرية أصحابه.. وعندما وقف أمام أمه كعادته يطالبها بالدليل على بنوته لرب الشمس، صاحت قائلة:

فايتون إذا كان الشك يعذبك إلى هذا الحد، فإن الجبل الذي تشرق منه الشمس غير بعيد. إذهب اليه بنفسك، وأسأل رب الشمس أأنت ولده حقا، أم أنني أغرر بك؟

وارتاح الصغير لهذا الرأي، وفرح فرحا شديد، ونهض من فوره ومضى في طريقه إلى جبل المشرق. فبلغه بعد عناء وجهد، وصعد إلى القمة، وقد أنهكه الإعياء والتعب، وارتمى فوق صخوره ريثما يسترد أنفاسه المتقطعة.

وكان فجر جديد قد بزغ.. وتفتحت عينا الفتى على ضياء بهره وأخذ بلبِّه، وفغر فاه من روعة المنظر الذي بدا لناظريه: قرص الشمس يتلألأ في فيض من أشعتها الذهبية، وقد انتصب القصر على عمد من ذهب يغطيه سقف من عاج، وأبوابه من فضة خالصة.

ووقف الفتى مبهور الأنفاس، ثم خطا إلى الأمام في وجل، ودلف من الباب الكبير إلى القاعة الكبرى، للقصر. وهناك رأى «فايتون» منظرا عجبا، لقد كان «أبوللو» جالسا في رداء أرجواني زاه، على عرش من الماس يخطف بريقه الانظار وحوله الساعات والأيام والأعوام في صفوف منتظمة رائعة.

ولمح «أبوللو» ولده «فايتون» واقفا في خشية، وقد بهره الضوء، فناداه في وداعة ورفق:

أي بني.. ما جاء بك هذه الساعة؟ اقترب ولا تخف.

وتقدم الفتى في بطء، تحدو خطواته الرهبة، ويملأ نفسه الإعجاب.. وقال:

أبتاه.. يا نور كل نور، إن صحبي يهزأون بي كلما أنبأتهم أنني ابن رب الشمس، ولم أعد أحتمل إهاناتهم لي. ولقد جئتك ولي رجاء عندك: إن كنت ابنك حقا.. فأعطني الدليل.

ونهض «أبوللو» عن عرشه المهيب، وأزاح عن نفسه هالة النور، وأمسك بيد ولده، واجتذبه إلى صدره، وقبله في حنان، ثم خاطبه قائلاً:

بني.. لك أن تطمئن إلى نسبك الرفيع. وإني لأقسم لك بسيكس، ربة العزة والقوة، أن أجيبك إلى ما تطلب كي تخرس ألسنة الهازئين بك، وترفع رأسك تيها على كل أبناء البشر.. سل يا بني ما تريد، ولن أرفض لك طلبا.

وغمرت الصغير نوبة من الفرح الجارف، وهتف بأبيه في جذل: أحقا يا أبتاه؟ إذن، فأقصى أملي أن تسمح لي بأن أقود مركبة الشمس بدلا منك يوما واحدا لن أزيد عليه.

وفوجئ «أبوللو» بطلب صغيره، واضطرب ميزانه.. فقد أدرك تسرعه بالقسم العظيم الذي لا حنث فيه. وراح يحاول أن يثني ولده عن هذه الأمنية الغريبة، ويعده أن ينفذ له أي مطلب عداه مهما يبلغ من العظمة أو الغرابة. .إلا أن ابن «أبوللو» أبى الا هذا المطلب، وصمم عليه وهو موقن أنه مجاب، فما كان لأبيه أن يحنث في قسمه وعاود «أبوللو» محاولته قائلا:

إن في إجابة طلبك خطرا عظيما يهددك، فإنك معدود من البشر، إلى جانب حداثة سنك. وهذان السببان لا يسمحان لك بقيادة مركبة الشمس.

فهز الفتى رأسه.. واستأنف أبوه قائلا:

أي بني... إنه لا يمكن لمخلوق مهما تكن قوته أن يسيطر على مركبة الشمس.. فإن الطريق شديد الانحدار لا تصعده الخيل الا بجهد يقصر عنه الوصف، كما أن نهاية الطريق لشدة وعورتها تكاد تسقط فيها المركبة مني أنا نفسي رغم حيطتي وتحكمي في قيادتها. ناهيك بالوحوش الكاسرة والمهاوي السحيقة التي تعترض المركبة في كل رحلة. والجياد يا بني جامحة تنفث من صدورها الحمم. وإني أنصحك أن تعدل عن هذا المطلب الخطير، لأنك إن أبيت، فمعنى إبائك الهلاك لك وللعالم بسببك.

ولكن الفتى تشبث بطلبه، ولم يتزحزح قيد أنملة عما عقد عليه العزم. فما كان لأبيه - وقد تورط في قسمه العظيم - إلا أن يذعن، فقاد ابنه من يده إلى حيث وقفت المركبة الذهبية المرصعة بالزبرجد والياقوت والماس، وقد شدت اليها الخيول الأربعة، وأخذت تضرب بحوافرها الأجواء في تحفز واضطراب، وتزفر الحمم من أنوفها استعدادا لرحلة اليوم.

ولم تمض لحظات حتى فتحت «أورورا» أبواب الشرق القرمزية.. وعندئذ أمر «أبوللو» ولده بأن يثبت نفسه في مكانه من المركبة، ثم مسح وجهه بالدواء الواقي من الحرارة والوهج، ووضع على رأسه هالة الأشعة وهو يقول: «لا زالت أمامك الفرصة يا ولدي لتعدل عن رأيك، فالأمر جد خطير».

وكانت إجابة الفتى صرخة حمقاء أطلقها في آذان الخيل وهو يهز أعنتها في قوة، فانطلقت المركبة كالسهم المارق في طريقها المرسوم.

وسارت الجياد، كما اعتادت أن تسير كل يوم، دون أن تحس أن في الأمر أي تغيير.. فقد كانت بداية الطريق مرحلة هينة لا تحتاج إلى حزم القائد وإرشاده. ولكن ما إن بدأت وعورة الطريق، وتلمست الخيل حكمة القائد حتى انقلب الحال إلى غير ما كان عليه. فقد أحست الجياد بخفة

المركبة وعدم اتزان الزمام. . وبدلا من أن يعمد الفتى إلى التقليل من سرعة الخيل، ترك لها العنان فاندفعت في انطلاق مجنون لا حاكم له ولا رابط، وفقدت المركبة اتزانها فمضت تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال، تندفع إلى أعلى، وفجأة تسقط إلى أسفل. وتأزم الموقف، وأفلت الزمام تماما من يدى «فايتون»، وامتلأ قلبه رعبًا، وخانته شجاعته، فاكتفى بأن أحكم قبضته على سياج المركبة. ولم يلبث أن راح في غيبوبة من شدة الرعب وهول الفزع.

ومضت الجياد في انطلاقها الجامح. . وكلما أحست باضطراب المركبة خلفها، اندفعت في سرعتها المجنونة. وبين ارتفاع المركبة وانخفاضها، وتمايلها يمينا وشمالا. . كانت تصطدم بالجبال فتشتعل قممها نارا وهّاجة، وتزلزل الهواء فجفت مياه السحب، وتهاوت النجوم شواظا محترقة، وهلك الزرع، واستحالت الأرض صحارى فقراء جرداء، وجفت مياه البحار والأنهار، وتعالت في الجو صرخات الاستغاثة يطلقها الإنسان والنبات والحيوان!

وامتلأ قلب ربة الأرض رعبا، فانطلقت على عجل إلى «زيوس» رب الأرباب تستحلفه وتتضرع اليه أن يرفع عنها هذا البلاء. وفزع «زيوس» وهو يرى من عليائه ذلك الفتى الأحمق يجري بالمركبة على غير هدى في فضاء اللانهاية. وخشى رب الأرباب أن يدمر طيش هذا المخلوق الصغير الكون، فدعا اليه الآلهة كلها، فهرعوا اليه ومن بينهم «أبوللو» رب الشمس الذي تخلى عن واجبه، وأخذوا جميعا يفكرون في وسيلة لإنقاذ الكون.

وعجز الجميع عن التفكير، ولم يجد «زيوس» بدا من أن يطلق أحد سهامه الصاعقه نحو الطائش الصغير الذي تثير صرخاته ثائرة الخيل فتندفع في انطلاقها.

واستقر سهم «زيوس» في صدر «فايتون» فسقط صريعا على أرض المركبة، ولم يلبث أن سقط منها في الفضاء إلى نهر بادوس.

أما «أبوللو» فما كان في وسعه إلا الحزن على ولده، ثم انتظار وصول المركبة إلى قصر تيميس بعد أن تهدأ ثائرة الجياد. . ثم ليبدأ مع اليوم الجديد رحلته الجبارة الخالدة.

وابتدأت الشمس تشرق من جديد وتبدد ظلمات الكون، ويتوالى الشروق ثم الغروب وهكذا. . . لم تقف عجلة الزمن «ولم تقف الدنيا عند هذا الحد».





برسيفوني

ولم يشأ جوبيتر أن يلتزم الحياد بين أخيه وشقيقته الحزينة، فإذا هو يقضي بتقسيم العالم إلى قسمين متساويين حتى تستطيع الآلهة التي بسطت هيمنتها على عالم الحياة والموت أن تقضي مع أمها عددا من شهور العام مساويا لما تقضيه منها مع زوجها. وما أسرع ما تبدلت سيماء ديميترا ومزاجها، وأشرق جبين الآلهة برسيفوني وتألّق بالسعادة والحبور بعد أن كان معتما متجهما في عيني پلوتو نفسه، وكأن الشمس التي حجبتها السحب الحبلى بمياه الأمطار حين تطل ظاهرة من بين الغيوم.

وكانت الألهة ديميترا ربة الأرض أعقل الآلهة جميعا: أم الأرض، وربة كل ما ينبت فيها من نبات، وما يدب على سطحها من حيوان - تعيش في أعماق هذا الوادي الجميل.

وكانت «ديميترا» تسمح لابنتها الصغيرة الجميلة «برسيفوني» بالخروج بضع ساعات كل يوم للعب في مروج الوادي العجيبة. ولذلك لم يكن غريبا أن تخرج «برسيفوني» في ذلك اليوم لتلعب مع صديقاتها من بنات حوريات الوادي وكن يجرين في مرح، وهن يضحكن ويعدون بأقدامهن العارية على الحشائش الرطبة اللينة. وصاحت «برسيفوني» في صديقاتها خلال الضحك والمرح: هيا بنا نقطف الأزهار.

وفرحت الصغيرات ورحن يجمعن ما طاب لهن من زهور جميلة بين بنفسج وزنبق وسوسن أرجواني.

ولفتت الأصوات المرحة الضاحكة انتباه «بلوتو» إله العالم السفلي، حين كان مارا في مركبته الداكنة التي تجرها أربعة جياد في سواد الليل البهيم.

ونظر «بلوتو» إلى الصغيرات، فأعجبته تلك الصبية الضاحكة الحلوة، التي كانت تقفز هنا وهناك، في مرح لم ير مثله قط في عالمه المظلم المخيف.

وتوقف «بلوتو» واستغرق في دوامة هائلة من التفكير.. لقد تصور مملكته الكئيبة القاتمة، ومحاولاته الدائمة في البحث عن ربة ترضى أن تشاركه الجلوس على عرش العالم السفلي، وما كان يقابل به دائما من رفض الربات كلهن الاستماع إلى توسلاته، فلم تقبل واحدة منهن الهبوط إلى عالم مظلم لا تشرق عليه الشمس، ولا تشدو في أجوائه الطيور.

وكان بلوتو - لشدة شوقه إلى ملكه تجلس بجواره، ويأسه وألمه من محاولات الحصول على بغيته عن طريق الاقناع - قد قرر أن يستعمل القوة للوصول إلى تحقيق مرامه.

ورأى بلوتو - في هذه اللحظات بالذات، «برسيفوني»، وأيقن أن جمالها الوضاء، وفتنتها الطاغية، هما القادران على بعث الحياة في مملكته الخامدة الكئيبة.. وهكذا قرر أن يختطفها.

أما «برسيفوني» فلم تنتبه إلى وجود غريب في مكان مرحها. وانطلقت في ضحكها ومرحها متنقلة من زهرة إلى أخرى.

وفجأة.. لمحت «برسيفوني» زهرة رائعة لنوع عجيب من النرجس، ملكت عليها حواسها، وأنستها كل ما عداها.

وقفزت الصبية اليها، ووقفت إلى جوارها، وراحت تتأملها في سرور وإعجاب. لقد كانت تختلف عن كل زهرة رأتها من قبل، وكانت ساق الزهرة تحمل ما لا يقل عن مائة نورة، أما شذاها فقد ملأ أريجه العطر أرجاء الوادي، وانتشرت على قمة الجبل.

ونادت «برسيفوني» رفيقاتها ليشهدن معها جمال الزهرة العجيبة، إلا أنهن لم يسمعنها، فقد كن ابتعدن عنها كثيرا في عدوهن بين المروج.

واندفعت «برسيفوني» لتقطف الزهرة، وأمسكت بعودها فأحست كأنه حية رقطاء تتلوى بين أصابعها.. وحاولت أن تكسر العود، فلم تتمكن، ولم تجد وسيلة إلا أن تقلعه من جذوره. ومالت على الشجيرة تقتلعها، فأحست بالتربة السوداء تلين فسيحة، ويخرج منها أربعة جياد سود، تجر مركبة داكنة، يجلس فيها ملك متوج، لم يسبق لعيني برسيفوني أن رأت مثله على ظهر الأرض.

وارتعدت الصبية مذعورة، إلا أن «بلوتو» كان قد قرر أن يأخذها عنوة.. فلم يترك لها الفرصة لتسترد أنفاسها اللاهثة، فانقض عليها، ورفعها بين يديه وأجلسها بجانبه، ثم ألهب ظهور جياده، فانطلقت تسابق الريح.

ظل «بلوتو» ينهب الأرض بمركبته، والقلق يملأ قلبه خشية أن تلاحقه «ديميترا»، فتسترد ابنتها الحبيبة. ولم يحاول أن يتوقف قليلا ليريح الجياد.. بل كان كلما تباطأت، أو خيل اليه أن سرعتها قلَّت عن ذي قبل، انهال عليها بسوطه في قسوة، فاندفعت والزبد من أشداقها.

وبلغ بلوتو آخر الأمر نهر «سيان»، فوجد أمواجه صاخبة مرغية مزبدة، تقطع عليه طريق الهرب.. وأصبح محاصراً لا يمكنه أن يتقدم إلى الأمام، ولا يجرؤ على أن يعود إلى الخلف.

ثم تذكر رمحه المقدس ذا الشعبتين، فتناوله ورفعه إلى أعلى، وضرب به الأرض ضربة قوية، فانشقت عن هوة واسعة ممهدة.. انحدر اليها بعربته وجياده وأسيرته، وراح يخترق أعماق الأرض حتى بلغ مملكته في عالم الموتى.

أما «ديمتيرا»، فقد كانت تشرف على الحصاد في بلد آخر بعيد عن وادي «أنا».. إلا أن صرخات «برسيفوني» التعسة سكت - على بعد الشقة - سمعها، فاندفعت إلى الوادي صارخة مولولة تنادي ابنتها، ولكنها لم تسمع لنداءاتها ردًّا سوى رجع الصدى!

وامتلأ قلب «ديميترا» أسى ولوعة، وراحت تذرع الوادي طولا وعرضا باحثة عن ابنتها.. تندبها وتبكيها في حرقة ولوعة، وقد يئست تماما من العثور عليها.

ونادت «الربة» رسولها الخاص.. طائر الكركي الأبيض، الذي يحبس الأمطار.. وأمرته بالبحث عن ابنتها. ودار الطائر حول العالم دورة سريعة، جاب فيها الأقطار، وعاد إلى ربته بلا خبر.

ومضت الأيام، ولم تعد «برسيفوني» وصعدت «ديميترا» إلى قمة جبل «إتنا»، ثم راحت تقطع الفيافي والقفار، وتطوف مشارق الأرض ومغاربها.. تتسلق المرتفعات، وتهبط الوديان، وقد ولى صباها، وانحنى ظهرها لثقل ما تنوء به من هَمٍّ على فقدان ابنتها.

وكانت «ديميترا» تخترق، ذات يوم، صحراء جرداء قاحلة، فاشتد بها العطش وأدركها الإعياء فسقطت على الرمال.. وما كادت تنهض حتى تعثرت وسقطت، واحست ببودار الهلاك تدب في جسدها، وراحت في غيبوبة طويلة.

وفتحت «ديميترا» عينيها، فوجدت إلى جوارها «هيكيت» حاملة في يدها مصباحها، وتبدو كمن تبحث عن شيء.. وقدمت إناء ممتلئا إلى «ديميترا» فشربته إلى آخر قطرة. ثم سألتها عن قصتها، فحكت لها «ديميترا» قصة ابنتها. وأخبرتها «هيكيت» أنها سمعت هذا الصراخ، مصحوبا بصوت عجلات رهيبة، ونصحتها بأن تلجأ إلى «أبوللو» إله الشمس... فهو الوحيد الذي يمكنه أن يدلها على مكان ابنتها.

وانطلقت «ديميترا» إلى رب الشمس ضارعه متوسلة وكان «أبوللو» جالسا في مركبته، لاستئناف رحلة كل يوم عبر السماء. وعندما سمع توسلاتها، أوقف جياده النارية، وأخبرها أن «بلوتو» رب العالم السفلي هو الذي خطف ابنتها، وأخذها لتقيم معه في الأعماق المظلمة!

وعندما عرفت «ديميترا» حقيقة الأمر، أدركت أن ابنتها لن تعود. فنضت

عنها ثياب الآلهة، وقررت أن تعيش على الأرض متنكرة في زيّ عجوز حطمتها السنون.

وعاشت «ديميترا» على الأرض تجوب أرجاءها آناء الليل وأطراف النهار دون أن يعرفها أحد.. إلى أن وصلت، ذات يوم، إلى «اليوسس» مجهدة قد نال منها الإعياء والتعب.. وأخذت تتجول في شوارع المدينة، حتى وجدت نفسها داخل حديقة جميلة، فاستندت إلى سياج رخامي يحيط بنافورة تتوسط الحديقة.

وشاهدت «ديميترا» بعد برهة أربع فتيات في سن ابنتها يمرحن في الحديقة.. وتصورت «برسيفوني» الضاحكة، وكيف كانت تمرح فانحدرت على خديها خيوط متصلة من الدموع.. وانتبهت الصبيات إلى العجوز الباكية، فاقتربن منها، والتففن حولها وأخذن يسألنها عن سر بكائها وحزنها.

فأجابت بأن لصوصا اختطفوها من بين أهلها، ولكنها تمكنت من الهرب منهم، وظلت تجري حتى وجدت نفسها في هذا المكان، ولم تعد تعرف مكانا تأوي اليه.

وتركتها الفتيات الصغيرات بعد أن استأذن منها وانطلقن إلى قصر أمهن الملكة «ميتانيرا»، وأخذن يحدثنها عن العجوز الطيبة، وطلبن منها أن تدعوها إلى القصر.. واستجابت الملكة لفتياتها الصغيرات، وأذنت لهن باستدعاء العجوز.

ودخلت «ديميترا» القصر، فأكرمت «ميتانيرا» وفادتها، وجلست تتجاذب معها الحديث. وعرفت «ديميترا» من ثنايا الحديث، أن ابن الملكة الصغير يعاني مرضا عضالا، حار في علاجه الأطباء.. وطلبت «ديميترا» أن ترى الطفل، فقادتها الملكة إلى فراشه، فنظرت العجوز اليه، وقالت لأمه إن علاجه سهل عليها، وإن في إمكانها إنقاذه، وإن كان في حاجة إلى عناية فائقة حتى ينجو من الخطر.

واستعطفت الملكة ضيفتها العجوز أن تبقى معها، وأن ترعى الطفل.. فقبلت ديميترا، وطلبت أن تخصص لها حجرة تقيم فيها مع الطفل حتى تتمكن من علاجه.

ومرت الأيام.. وصحة الصغير تتقدم يوما عن يوم حتى تم له الشفاء. ثم مرت الشهور، والطفل ينمو، ويزداد تعلقه بالعجوز التي لم تعد تطيق فراقه لحظات.. بيد أنها خلال ذلك لم تكن لتنسى ابنتها الغائبة «برسيفوني»، فكانت متى هبط الليل، وأغلقت عليها حجرتها، تبكي بكاء مرا حتى يغلبها النوم على أمرها.

وكانت الغرفة التي تقيم فيها «ديميترا»، متى جاء الهزيع الأخير من الليل، تضاء كأن نور الشمس يسطع فيها، وتنبعث من جسمها نار ذات لهب، فتنهض من فراشها، تمسك بالطفل بين يديها، وتغمره في تلك النار المقدسة.. والطفل يضحك، ويضرب برجليه في الهواء.. ثم تخمد النار بغتة، وتظلم الحجرة، فتعود «ديميترا» إلى فراشها وبجانبها الطفل.

ولم يكن أحد يدري سر ما يحدث، حتى سرت إشاعات في القصر بأن العجوز تشعل النيران في حجرتها، وأنها تحاول إلقاء الطفل فيها. وأسرت بعض الوصيفات، ممن تجسسن على العجوز، الأمر إلى الملكة.. فامتلأ قلبها رعبا، ونهضت في الوقت الذي حددته الوصيفات، وأطلت من ثقب باب حجرة العجوز، فرأت نورا يبهر البصر. ولم تطق الأم صبرا، فدفعت الباب بقوة فانفتح على مصراعيه، فإذا النار تملأ الغرفة وتندلع ألسنتها من جسم العجوز، وإذا بتاج من النيران ينعقد فوق رأسها، والطفل في أعماق اللهب.

وصرخت الأم مذعورة. وفي لمح البصر تبدل كل شيء.. خمدت النيران، وأظلمت الغرفة إلا من الضوء الباهت المنبعث من المشعل الضئيل. وأطلت الأم فرأت طفلها نائما نوما عميقا في فراشه. أما «ديميترا» فكانت واقفة والشرر يتطاير من عينيها، وأسرعت الأم إلى طفلها

تحتضنه.. وتكلمت ديميترا في صوت رهيب: أيتها الأم.. لقد حرمت ولدك نعمة الخلود بجهلك وتسرعك!.

وأدركت الملكة أن ضيفتها ليست إلا إحدى الربات الخالدات، فجثت على ركبتيها متوسلة: عفوك يا مولاتي.. لقد رأيتك تلقين بابني في النار، فلم أتمالك نفسي.

وأجابت «ديميترا»: لقد جاهدت طوال هذه الشهور لكي تبيد النار المقدسة عناصر الفناء في جسم ولدك فيمنح الخلود، وكادت جهودي تكلل بالنجاح لولا تدخلك.

وبكت الأم في أسى، وتحرك قلب «ديميترا» شفقة، فابتسمت قائلة: حسنا.. لئن كان ابنك قد حرم الخلود.. إلا أن الآلهة ستهبه ذكاء نادرا، وقوة خارقة.. وسيكون طويل العمر، محبوبا من الناس جميعا.

ولم يكن أمام «ديميترا» إلا الرحيل، بعد أن افتضح تنكرها، واضطرت إلى الظهور في زيها المقدس.. إلا أنها قبل أن تمضي وعدت بالعودة إلى المدينة إذا أقيم فيها معبد تقدم فيه القرابين.

ولم تمض أشهر قلائل، حتى كان أهل «اليوسس» قد أقاموا معبدا عظيما للالهة «ديميترا».. وما هي إلا أيام، حتى عادت الربة لتقيم في معبدها الخاص.. وقد عقدت العزم على اعتزال جميع الآلهة إلى أن تعود اليها «برسيفوني».

ومرت الأيام.. وكانت «ديميترا» قد أهملت الحب في الأرض، فلم يعد ينمو فيها نبات ولا زرع، وندر القمح حتى خلت منه الطواحين، وجفت الحشائش، وتجردت الأشجار من أوراقها، ورحلت الطيور عن الأرض، وهزلت الماشية وبدأت معالم الحياة تختفي رويدا رويدا على ظهر الأرض.

وارتفعت صرخات الإنسان والحيوان، متوسلة إلى «زيوس»، رب الأرباب، أن يتدارك الكون بحكمته قبل أن يحل به الخراب.

وأطل «زيوس» من عليائه فوق قمة الأولمب، فرأى الأرض يخيم عليها شبح الفناء، وأدرك أن الآلهة غضبى لحرمانها من القرابين التي كانت تقدمها «ديميترا».

واستدعى زيوس الربة «ايريس» وحملها رسالة إلى «ديميترا» أن تعود إلى الارض.. ولكن «ايريس» عادت باكية بكاء مرا.. فقد أثار حزنها منظر ربة الأرض في نحيبها الشقي على ابنتها الحبيبة «برسيفوني».

وأرسل «زيوس» الآلهة واحدا واحدا.. إلا أنهم فشلوا جميعا في إقناع ربة الأرض بالعودة إلى مكانها، وعادوا إلى «زيوس» يجرون أذيال الفشل.

ولم يجد «زيوس» بدا من أن يرسل رسوله «هرمز» إلى مملكة «بلوتو» لاقناعه باعادة «برسيفوني» إلى أمها.. إلا أن الإله الكئيب، لم يكد يرى «هرمز» حتى سخر منه، وأبى أن يرد «برسيفوني».

أما هي فلم تكد ترى رسول رب الأرباب، حتى استخفها الطرب، وطار لبها شوقا إلى أمها، فوثبت من فوق العرش!

وهنا وجد «بلوتو» نفسه مضطرا إلى القبول، فأمر بإعداد مركبته ذات الجياد السود، لكي تنقل «برسيفوني» إلى الأرض إلى أمها الحبيبة... إلى الشمس والنور والحياة.



مراجع البحث

الإلياذة - هوميرس، أمين سلامة

الاوديسة - هوميرس، أمين سلامة

الاوديسة - هوميرس، دريني خشبة

فن الهوى - أوفيد، ثروت عكاشة

مسخ الكائنات - أوفيد، ثروت عكاشة

أساطير اليونان - محمد صقر، خفاجه، وعبد اللطيف أحمد علي

ساحر الدلافين، أمين سلامة

أساطير الغرب، سليمان مظهر

الإنيادة - فرجيل، عنبرة الخالدي

أساطير في الفن والحب والجمال، أمين الصيرفي

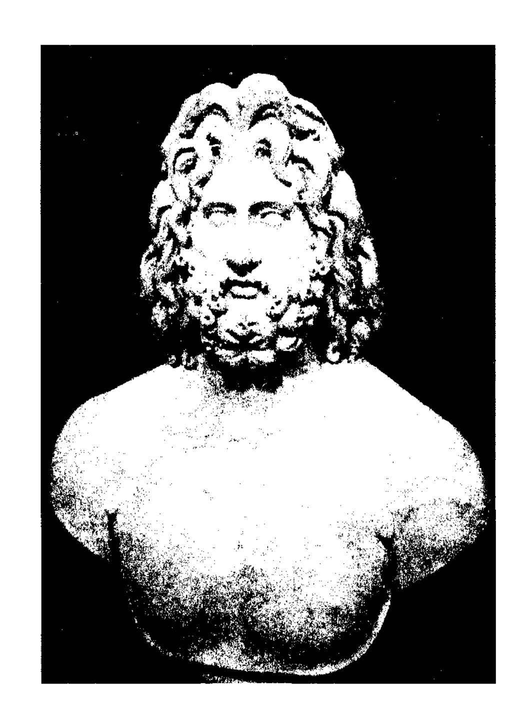
أساطير إغريقية، د. عبد المعطي شعرواي

الإغريق بين الاسطورة والإبداع، د. ثروت عكاشة

الأساطير، د. أحمد كمال ذكي.



الفهرس



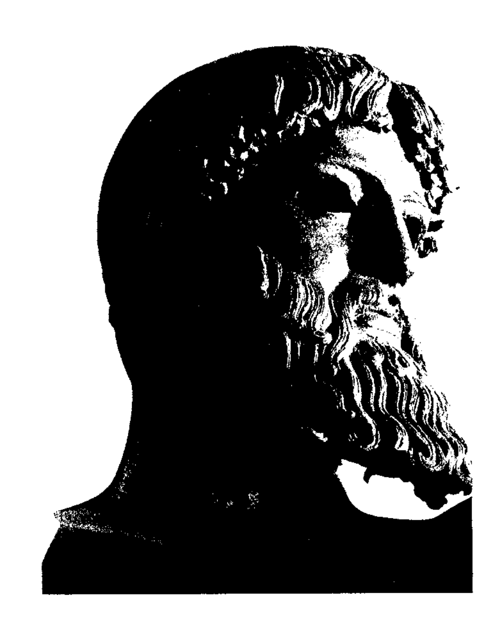
زيوس، كبير الآلهة (صفحة 33-44).



هيرا زوجة زيوس (صفحة 45-48)



هرميس إبن زيوس (صفحة 49-58)



.بوسيدون- إله البحر (صفحة 59-65)



.هيلين- الجميلة (صفحة 81-95)



آريس (مارس) إله الحرب ابن زيوس وهيرا (صفحة 99-101)



أرتميس (ديانا) ربة الصيد (صفحة 102-104)



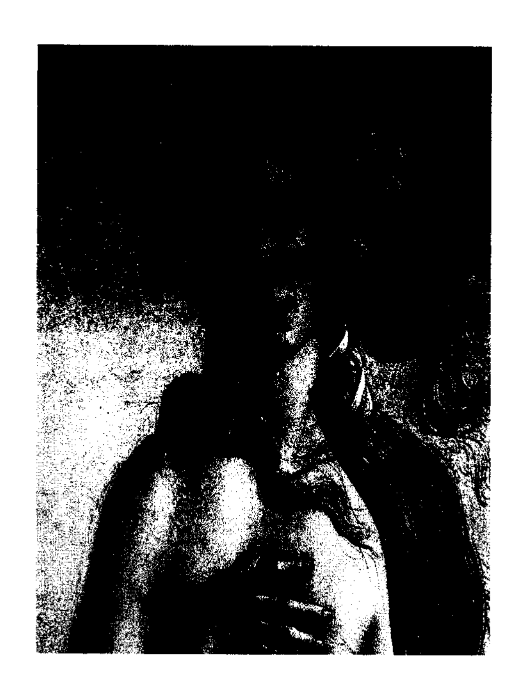
تازه. يصارع المينوثور. (صفحة 109-115)



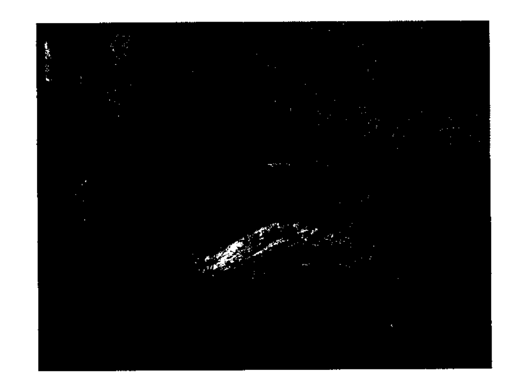
أرتميس (ديانا) الجميلة، شقيقة أبوللو (صفحة 102-104)



حصان طروادة الخشبي (صفحة 136-144)



افروديتي، إلاهة الحب والجمال (صفحة 160-171)





-أنياس وديدو. (صفحة 172-190)



-سيبيل. (صفحة 191-204)



أثينا، إلاهة الحرب (صفحة 228-232)



أبوللو، إله الشمس (ابن زيوس) (صفحة 247-259)



إختطاف برسيفوني. (صفحة 260-267)